الباب الثامن
فى أشعارهم الرائقة وأفكارهم الفائقة

حكى عن أبى الحسين الجزار أنه جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فوجد الشعراء قد سبقوه إلى الدخول فجلس على الباب وكتب رقعة وأنفذها إلى الصاحب فإذا مكتوب فيها:

الناس كلهمو كالإير قد دخلوا والعبد مثل الخصا ملقى على الباب

فناداه الصاحب من داخل الدار ادخل يا خصا فقال هذا دليل على السعة فاستظرف ذلك منه ووصله.

واصطبح الأمير محمد بن زبيدة يوما فتسابق جميع الندماء فى البكور عليه فسبقهم سليمان بن أبى جعفر فوصله بألف دينار وتخلف إبراهيم بن المهدى فأمر أن يحجب إذا جاء وأن يقام على رجليه ففعل به ذلك ثم شفع فيه سليمان بن أبى جعفر فأذن له فلما دخل شتمة فقال يا أمير المؤمنين اعذرنى فإنى مبتل قال وما بليتك قال إنى عاشق وهذا هو السبب الذى شغلنى عن أمير المؤمنين فقال سعيد بن جابر كذب والله يا أمير المؤمنين قال وكيف ذلك قال:

إن الذى يعشق معروفه لأنه أصفر منحوف

ليس كمن تلقاه ذا جثة كأنه للذبح معلوف

فقال إبراهيم بديها:

وقائل لست بالمحب ولو كنت محبا لذبت من زمن

يحب قلبى ومادرى بدنى ولو درى لم يقم على السمن

فقال محمد أحسنت والله يا عم أعطوه ألف ألف درهم انتهى ومثله فى المعنى قول الآخر:

وقائلة ما بال جسمك جاسم . وعهدى بأجسام المحبين تسقم

فقلت لها قلبى بسرى لم يبح لجسمى فجسمى بالهوى ليس يعلم

وقال ابن حمدون النديم بعث إلى أبو عيسى بن الرشيد فى يوم غيم وقال أنت ترى هذا اليوم وقد عزمت فيه على الصبوح فإن أسعفتنى بوصلك هنأتنيه وإن اعتذرت بعذر بغضتنيه قال فسرت إليه مع رسوله فوجدت عنده مخارقا وعلوية والمشدود فدعى بالطعام فأكلنا وجىء بأنواع من الشراب فشربنا واندفع علوية يغنى:

يا من لقلب عصانى غير مزدجر إذا أقول تسلى عز جانبه

والحب شىء إذا لح الفؤاد به يموت قبل أوان الموت صاحبه

فما سكت حتى اندفع مخارق يغنى:

لما استتم بأرداف تجاذبه فاخضر فوق بياض الدر شاربه

وأشرق الورد فى نسرين وجنته واهتز أعلاه وارتجت حقائبه

كلمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه

فما سكت حتى اندفع المشدود يغنى:

الحب حلو وقد مرت عواقبه وصاحب الحب صب القلب ذائبه

أستودع الله من بالطرف ودعنى يوم الفراق ودمع العين غالبه

ثم انصرفت وداعى الموت يهتف بى ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

قال ابـن حمدون فـوالله ما شـبهـتهم إلا بالقـمارى إذا تجـاوبت على الغصون فشربنا بالأرطال فما جاءت صلاة الظهر ومنا أحد يعقل. قيل اجتمع السراج الوراق مع أبى الحسين الجزار مع ابن الفقيسى فمـر عليه مليح بديع الجمال فقال السراج الوراقى:

شمائله تدل على اللطافة وريقته تنوب عن السلافة

فقال أب الحسين الجزار:

وفى وجناته ورد ولكن عقارب صدغه منعت قطافه

فقال ابن الفقيسى:

فلو أعطى الإمارة ذو جمال لحق له بأن يعطى الخلافة

وحضر حسان بن نمير المعـروف، بعرقلة الدمشقى مع ابن المرتجى الشاعر وكلاهما أديب وعندهما غلام حسن الوجه على خديه خالان فقال عرقلة:

كان الخال فى الخد اليمين ظلام الشك فى صبح اليقين

فقال ابن المرتجى:

كان الخال فى الخد الشمال ظلام الهجر فى صبح الوصال

ودخل ابن القطان الشـاعر يوما على الوزير الزينى وعـنده الحيص بيص فـقال ابن القطان قـد عمـلت بيتين لا يمكن أن يعـمل لهـما ثالث لأنى قـد استوفيت المعنى فيهما فقال الوزير ما هما فأنشد:

زار الخيـال بخيـلا مـثل مـرسله فـمـا شـفـانى منه الضـم والقـبل

مـا زارنـى قط إلا كى يوافـقنى على الـرقـاد فـينفـيـه ويرتحل

فقال الـوزير للحيص بيص ما تقول فى دعـوته فقال إن أعادهمـا سمع لهما ثالثًا فأعادهما فقال الحيص بيص:

وما درى أن نومى حيلة نصبت . لطيفة حين أعيا اليقظة الحيل

ومـثل ذلك مـا اتفق للوزير القـوصى وقـد أنشـد ابن المرصص بيـتين نظمهما فى جارية حسناء وزعم أن لا ثالث لهما وهما:

تبـدت فـهـذا البـدر مـن كلف به وحقك مـثلى فى دجا الليـل حائر

ومـاست فشق الغـصن غيظا ثيـابه ألـست تـرى أوراقـــــه تتـناثـر

فأنشد ابن المرصص فى الحال:

وفاحت فألقى العود فى النار نفسه كـذا نقلت عـنه الحـديث المجـامـر

وقـالت فـغـار الدر واصـفـر لونه كـذلك مـا زالت تغـار الـضـرائر

وقال جامعه فى الحال أيضًا وهو أول شىء نظمه:

وغنت فـظل الجنك يـطرق رأســه وجـادت لهـا بالروح منهـا المزامـر

ومن لحظها الهندى فى غمـده اختفى وظبى الفــلافى لفــتـه وهو نـافـر

ومن وجنتيهـا الورد راح بخـجلة ألست تـراه أحـمـــرا وهو فـــاتر

ومن ريقها الصهبـا شكت نار شوقها فـأطـفـأها بالماء ســاق مـســامـر

وقال يحـيى بن على كنت واقفًا بين يدى المعـتضد وهو مقطب فـأقبل غلامه بدر وهو فى غاية الجمال فلما رآه من بعيد تبسم وأنشد:

فى وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وجيه حيثما شفعل

ثم قال لمن هذا قلت يقوله الحكم بن قنبر المازنى البصرى فقال أنشدنى باقيه فأنشدته:

لهفى على من أطار النوم فامتنعا وزاد قلبى على أوجاعه وجعا

كأنما الشمس من أعطافه لمعت حسنا أو البدر من أزراره طلعا

مستقبل بالذى يهوى فإن عظمت منه الإساءة معذور بما صنعا

فى وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وجيه حيثما شفعا

ويعجبنى فى هذا المعنى قول الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف ضفيع

وقال آخر:

إذا ألف ذنب من حبيب تتابعت يقوم لها من حسنه شافع فرد

قلت وللحذاق من أهل الأدب كلام فى التفضيل بين هذين البيتين والذى يظهر لى والله أعلم أن كلا منهما أحسن من وجه فوجه حسن الأول أنه نسب إلى الحبيب ذنبا واحدا وفى الثانى نسب إليه ألف ذنب متتابعة ولعمرى إن فى هذا إساءة أدب على الحبيب بل الأدب أن لا ينسب إليه ذنب ألبتة ووجه حسن الثانى أنه جعل فيه ذهاب ألف ذنب بشفيع واحد من المحاسن، وهذا فى غاية ما يكون من المبالغة فى خفة الذنوب وعظم الشافع والبيت الأول بالعكس فإنه جعل فيه الذنب الواحد يحتاج إلى ألف شفيع، وهذا دليل على عظم الذنب وحقارة الشفعاء والله أعلم.

ودخل سعيد بن حميد على الحسن بن مخلد وبين يديه غلمان له حسان فتناول الدواة وقطعة ورق وكتب:

وزعـمت أنك لا تلـوط فـقـل لنا هذا المـقـرطق واقـف مـا يصنع

شـهـدت مـحـاسنه عليـك بريبـة وعلـى المحب شـــواهد لا تـدفع

وذكر عبد الله بن مـسلمة بن جندب عند المهدى فاستظرفـه فقيل له ما يعجبك من ظرفه قال قدم رجل عراقى إلى المدينة تاجرا بيزكان معه فباعه كله إلا خمرا سودا فلم يبع منها شيئًا لكسادها فعزم على ردها لبلده، فقال له ابن جندب ماذا عليك إن نفقـتها لك قال جميع الربح قـال لا ولكنى أقنع بنصفه قال نعم فذهب ابن جندب إلى منزله ونظم بيتين وهما:

قل للمليـحـة فى الخـمار الأسـود مـــاذا فـعلت بزاهد مـتـعـبـد

قـد كـان شـمـر للـصـلاة ثيـابه حـتى وقـفت له بـباب المسـجـد

وصنع لهما لحنا وغناه حكم الوادى فلم يبق بـالمدينة حرة ولا غيرها إلا اشتت خمارا أسود حتى طلب خمار بزنته ذهبا فلم يوجد فربح التاجر أضعافا ووفى له بما شرط.

وسـأل رجل فخـر الملك وزير بنى بويه حـاجة وأمله فلم يعطه شـيئًـا فمضى إلى القاضى وادعى على ابن نباتة الشـاعر فلما جاءه الرسول قال والله ما لأحد على دين ولا بينى وبين أحـد مخاصمة فمن خصـمى حتى أرضيه، فقال هو ذا فقال له ابن نباتة ما حقك حتى أوفيك. قال أنت قلت فى شعرك حيث مدحت فخر الملك:

لكل فـتـى قـريـن حين يسـمـو وفـــخـــر الملك ليس له قـــرين

أنـخ بجنـابـه وأنزل عـلـيـــــه على حـكم الوفـا وأنا الـضـمين

فأنت قد ضمنت وأنا قد نزلت عليه فلم يعطنى شيئًا والضمين غارم قال

أمهلنى حتى أصل إليه فلما دخل عليه وأخبره بالقصة قال للرجل كم أملت قال مائة دينار قال ادفعوها له، وقال لابن نباتة إذا مدحتنى فلا تعد تضمن عنى شيئًا وابن نباتة هذا قديم مولده سنة سبع وعشرين وثلثمائة ووفاته سنة خمس وأربعمائة.

وخرج الوزير نظام الملك أبو الحسن على إلى الصلاة فجلس قليلا ثم التفت إلى الحاضرين وقال هنا بيت شعر أريد له أولا وهو:

فكأننى وكأنه وكأنها أمل ونيل حال بينها القضا

وكان فى الجماعة مسعود بن محمد الخجند الشافعى فقال:

بابى حبيب زارنى مستنكرا فبدا الوشاة لى فولى معرضا

فكأننى وكأنه وكأنها أمل ونيل حال بينها القضا

ويعجبنى ما حكاه الأصمعى قال كان الرشيد يحب جارية اسمها جنان فنظم فيها ذات ليلة بيتا من الشعر ورام أن يشفعه بآخر فامتنع عليه القوم واجتهد فى ذلك فلم يقدر فقال على بالعباس بن الأحنف فبادر الغلمان وهجموا عليه وأحضروه وقد امتلأ قلبه رعبا فلما رآه الرشيد على تلك الحالة قال لا تجزع يا عباس فقال كيف لا أجزع وقد طرقت فى مثل هذه الساعة ارتاب أهلى بسبب طلبى ولم أخرج إلا والنائحة فى بيتى وهم غير شاكين فى قتلى فقال له الرشيد إنما أحضرتك لتجيز شعرا عملته وضاق ذرعى عن الزيادة فيه قال وما هو يا أمير المؤمنين. قال قلت:

جنان قد رأيناها فلم نر مثلها بشر

فقال العباس:

يزيدك وجهها حسنا إذا ما زدته نظرا

فقال هارون أحسنت فزدنى فقال العباس:

إذا مـــا الليل جـــار عليـ ـك فى الظلمـــاء مـعـتكرا

وراح ومـــا به قـــمـــر فـــبـــادرها ترى القـمـرا

فقال الرشـيد أحسنت وقد دعوناك فى مثل هذه السـاعة وأفزعنا عليك عيالك فلا أقل من أن نعطيك دينك وأمر له باثنى عشر ألف درهم.

وقال حماد بن إسحق كانت مـارية جارية الرشيد وهى أم ولده المعتصم قد تمكنت من الرشـيد وحظيت عنده حتى كبـر مقامهـا لديه ثم إنها غاضـبته يوما ولم تصـالحه وكبـرت نفسهـا عن ذلك وترفع هو أيضًا عن مـصالحتـها وقعدت على ذلك أيامـا فاشتد غمهـا وضاق عيشهـا فكتبت إلى عنان جارية الناطقى تشكو إليها حالها وتشاورها فيما تفعل فكتبت إليها عنان تقول:

الحـب أرزاق ولـكـنـمـــــا للحب أســـبـــاب تقـــويه

فـســاعـدى مـولاك فى كلمـا يطـلبـــه منـك ويرضـيـــه

كـونى له عـونا عـلى مـا اشـتـهى وســاعـــديه واســتـــمليـــه

لا تســتــزيديه الهـوى كـامـلا بل كل مـــا يهـوى اســتـــزيديه

وإنما يـدعى الهـــوى بالـهـــوى وليـس يدعى التـــيـــه بـالتـيـــه

فلمـا قرأت مارية هذه الأدبيـات وتدبرتها علـمت أن عنان ناصحـة لها فـقامت وتزينت بأحـسن زينة ثم خـرجت إلى الرشيـد وأكبت على رجليـه فقبلتهما فقال لها كيف كـان هذا وما السبب الذى حملك عليه فأخبرته الخبر وأنشدته الشعر فـأمر الرشيد لعنان بجائزة سنية وبعثت هى أيضًـا إليها بجائزة دونها وعـاد الأمر بين الرشـيد ومارية أحـسن ما كـان. ويقرب منهـا ما وقع

للرشيد مع جاريته ماردة وهو أنه أغضبهـا مدة وكان يحبها حبا شديداً وكانت هى أيضًا كـذلك فلما دام الغضب بينهـما وخاصتـه يعرفون مكانهـا منه أمر جعـفر البرمكى العبـاس بن الأحنف أن يعمل فى ذلك شيـئًا فعمل العـباس شعرا ودفعه إلى إبراهيم الموصلى فلحنه وغنى به بين يد أمير المؤمنين وهو:

العـاشـقـان كـلاهمـا مـتـغـضب وكـلاهـمـا مـتـوجـد مـتـجنب

صدت مـغاضـبة وصـد مغـاضبـا وكـلاهمـا مما يعـالج مـتـعب

راجع أحـبـتـك الذين هجـرتهم إن المتـيـم قلمـا يتـجـنب

إن التـجنب إن تطـاول منكمـا دب السـلو له فـعـز المطـلب

فلما سمعه الرشيد بادر إلى ماردة وترضاها فسألت عن السبب فى ذلك فقيل لها الصورة التى اتفقت فأمرت لكل واحد منهما بأربعين ألف درهم.

وألطف من هذه الحكاية ما حدث به على بن الجـهم قال أهدى عبد الله ابن طاهر المتوكل بأربعمائة جـارية فيهن جارية يقال لها محبـوبة وكانت فائقة فى الجـمال والحسن والـظرف والأدب، تحسن جـميع آلات الملاهى فـأحبـها الموكل وتحظاها وكان يحـبها حبا شـديداً ويجالسها إذا جلس للـشراب بحيث يراها هو دون غيره فأغـضبها يوما ومنع أهل القصر من كـلامها فمكثت على تلك الحالة أياما وترفعت عليه لما تعلم من محبته لها، وترفع هو أيضًا عن أن يبتـدئها بالصلح. قـال على بن الجهم فـبكرت يوما إلى المتوكل فـلما دخلت عليه قال لى يا على قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال علمت أنى رأيت الليلة فى النوم محبوبة وقـد صالحتها فقلت أقر الله عـينك يا أمير المؤمنين وأنامك على خيـر وأيقظك على سرور وأرجو أن تصـالحها فى اليـقظة فبينمـا هو يحدثنى وأحدثه وإذا بوصيفة قد جاءت وهى تقول قد سمعت يا أمير المؤمنين غناء من

حجرة محبوبة قال فنظر إلى متعجبا ونظرت إليه ثم قال قم بنا يا على فقمنا ومشينا حتى انتهينا إلى باب الحجرة قال قف هنا فوقفت وتوقف هو أيضًا عن المشى واستمعنا فإذا هى تغنى شعرا وهو:

أدور فى القصر لا أرى أحدا أشكو إليه ولا يكلمنى

حتى كأننى أتيت معصية ليس لها توبة تخلصنى

فهل لنا شافع إلى ملك قد زارنى فى الكرى وصالحنى

حتى إذا ما الصباح لاح له عاد إلى هجره وصار منى

فطرب أمير المؤمنين عند سماع ذلك وتعجب من هذا الاتفاق الغريب فقلت يا أمير المؤمنين لقد أحسنت محبوبة قال نعم والله لقد أحسنت فلما أحست هى بأمير المؤمنين بادرت وخرجت وأكبت على رجليه تقبلهما وتقول والله يا سيدى رأيت هذه الهيئة البارحة فى النوم فانتبهت مشغوفة وقلت هذا الشعر ولحنته فى الليل فلما أصبحت لم أملك نفسى أن غنيته فقال لها وأنا رأيت مثل ذلك فى المنام ثم أقام عندها يوما وليلة.

وهجر الرشيد جارية ثم لقيها في بعض الليالى فى القصر سكرانة تدور فى جوانب القصر وعليها مطرف خز وهى تسحب أذيالها من التيه فراودها عن نفسها فقال يا أمير المؤمنين هجرتنى هذه المدة وليس معى علم بموافاتك فأنظرنى الليلة حتى أتهيأ للقيام وآتيك بالغداة فلما أصبح قال للحاجب لا تدع أحدا يدخل على وانتظرها فلم تجىء فقام ودخل عليها وسألها بجاز وعدها فقال يا أمير المؤمنين كلام الليل يمحوه النهار فرجع واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس والرقاشى ومصعب فقال هاتوا على كلام الليل يمحوه النهار فقال الرقاشى إنى قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشد:

أتسلوها وقلبك مستطار وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهاما فتاة لا تزور ولا تزار
إذا ما زرتها وعدت وقالت كلام الليل يمحوه النهار

وقال مصعب أنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشد:

أما والله لو تجدن وجدى لما وسعتك فى بغداد دار
أما يكفيك أن العين عبرى ومن ذكراك فى الأحشاء نار
تبسم ضاحكا من غير ضحك كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو نواس وأنا قائل أربعة أبيات فى ذلك وأنشد:

وليلة أقبلت فى القصر سكرى ولكن زين السكر الوقار
وقد سقط الرد عن منكبيها من التخميش وانحل الإزار
وهز الريح أردافا ثقالا وصدرا فيه رمان صغار
فقلت الوعد سيدتى فقالت كلام الليل يمحوه النهار

فقال له الرشيد قاتلك الله كأنك كنت حاضرا وأمر لكل واحد بخمسة آلاف درهم ولأبى نواس بعشرة آلاف درهم وخلعة سنية.

وهذه حكاية مشهورة أوردها أبو سعيد السمعانى فى تذيله على تاريخ بغداد تأليف الخطيب الحافظ أبى بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى ونسبها إلى الرشيد كما ذكرنا، ثم قال آخرها وذكر أن محمد بن زبيدة المسمى بالأمين اتفق له نظير هذه الحكاية انتهى. ورأيناها أيضًا منسوبة فى بعض التعاليق إلى المزمون والله أعلم قال جامعه وقد ضمت هذا المثل وأبرزته فى قالب حسن بزيادة التورية فقلت فى مليح معذر:

بدى ليل العـــذار فلمت قلبى وقلت سلوت إذا طلع العـــذار

فـأشـــرق صـبح غـرتـه ينادى كـــلام الليل يمحـــوه النهـــار

ثم وقفت بعد ذلك على تضمين للشيخ بدر الدين الدماميني وهو:

تحـــدث ليل عـــارضـــه بـأنى ســـأسلوه وينصـــرم المزار

فـــقـــال جـــبـينه لما تبـــدى حـديث الليل يمحـوه النهـار

فأردت الرجوع عنهما خوفا من أن تنسب إلى السرقة ثم رأيت المقر المحمدى فضل الله ابن مكانس سقى الله ثراه ضمنه أيضًا فقال:

يقول سواد شعرى سوف أبقى على حـــال وإن بعـــد المزار

فقـال بياض شيبى إذ تبدى كـــلام الليل يمحـــوه النهـــار

فهان الأمر على قليلا ثم وقفت أيضًا على تضمين آخر قديم لبعض المغاربة المتقدمين كما نسبه إليه العميان فى شرح يديعيتهما وهو:

وفـــرع كـــان يوعـــدنى بأســـر وكـــان القلب ليس لهـــقـــرار

فنادى وجهه لا خـوف فاسكن كـــلام الليل يمحـــوه النهـــار

فزال ما كنت أخشاه وكان لى بغيرى أسوة وأما حسن التركيب والتفضيل بين الأبيات فهو راجع إلى أهل الذوق من أبناء الأدب.

ويقال أن الرشيد حصل له قلق بعض الليالى فوقع فى نفسه أن يفتح حجر الجوارى ويتفرج فيهن ثم قام إلى مقصورة من بعض المقاصير ففتحها فوقع نظره على جارية حسنة الوجه بديعة الشكل فأعجبته ووجدها نائمة مغطاة بشعرها فأيقظها فلما انتبهت فأعلمت أن الرشيد فأنشدت:

يا أمين الله ما هذا الخبر فأجابها مسرعا
هو ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفين لى وقت السحر

فأجابته مسرعة:

بسرور سيدى أخدمه إن رضى بى وبسمعى والبصر

فنام عندها تلك الليلة فلما أصبح الصباح قال من بالباب من الشعراء فدخل أبو نواس فقال أجز «يا أمين الله ما هذا الخبر» فأطرق أبو نواس ساعة وقال:

طال ليلى حين وافانى السهر فتفكرت فأحسنت الفكر
قمت أمشى فى مجالى ساعة ثم أجرى فى مقاصير الحجر
وإذا وجه جميل حسن زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موقظا فرنت نحوى ومدت لى البصر
وأشارت وهى لى قائلة يا أمين الله ما هذا الخبر
قلت ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفين إلى وقت السحر
فأجابت بسرور سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

قال فنظر إليه أمير المؤمنين وقال له قاتلك الله هل كنت معنا. قال لا وحياتك يا أمير المؤمنين ومن أين لى وصول إلى ذلك وإنما صناعة الشعر ألجأتنى إلى ذلك فتعجب منه وأحسن صلته.

ويحكى عن الرشيد أنه عمل يوما نصف بيت من الشعر وهو قوله «الملك لله وحده» ثم ارتج عليه فقال استدعوا من بالباب فدخل عليه جماعة

منهم الجماز فقال الرشيد أجيزوا «الملك لله وحده» فقال الجماز: وللخليفة بعده، فقال الرشيد زد، فقال الجماز:

وللمحب إذا ما حبيبه بات عنده

فقال له الرشيد: أحسنت لم تعد ما فى نفسى وأمر له بعشرة آلاف درهم. وقال أبو المظفر الأعمى دخلت على الملك الكامل فقال أجز نصف هذا البيت وهو:

قد بلغ العشق منتهاه فقلت: وما درى العاشقون ما هو فقال:

وإنما غرهم دخولى فقلت: فيه فهاموا به وتاهو فقال:

ولى حبيب يرى هوانى فقلت: وما تغيرت عن هواه فقال:

رياضة الخلق فى احتمالى فقلت: وروضة الحسن فى حلاه فقال:

أسمر لدن القوام ألما فقلت: يعشقه كل من يراه فقال:

ريقته كلها مدام فقلت: ختامها المسك من لماه فقال:

ليلة كلها رقاد فقلت: وليلتى كلها انتباه

ثم إن أبو المظفر أتمها كلها مدحا فى الملك الكامل والله أعلم.

وقال بعضهم رأيت خالد الكاتب واقفا على صبى فى غاية الحسن وهو يقول له:

ما آن أن يرحمنى قلبك قال الغلام: لا فقال خالد:

حتى متى يلعب بى لبك قال الغلام: إلى آخر الدهر قال خالد:

لا أعدم الله فؤادى الهوى قال الغلام: آمين قال خالد:

يوما ولا جربه قلبك قال الغلام: قد تقبل الله ذلك قال خالد:

إن كان ربى قد قضى بالضنا قال الغلام: ماذا يكون قال خالد:

وشدة الحب فما ذنيك قال الغلام: سل نفسك.

قال فقلت للغلام مثل خالد وجلالته يخاطبك بمثل هذا الخطاب وأنت تقاطعه بمثل هذه المقاطعة فقال إن عشق خالد فى لسانه ولو علمت أن عشقه فى قلبه لساعدته ولكنه يخاطبنى بهذا ويخاطب غيرى بأكثر منه.

وحكى عن بعض الشعراء أنه دخل على بعض الخلفاء فوجده جالسا وإلى جانبه جارية سوداء تدعى خالصة وعليها من الحلى وأنواع الجواهر واللآلى ما لا يوصف وهو يلاعبها فصار الشاعر يمتدحه وهو يلاهى بملاعبة الجارية فلما خرج كتب على الباب:

لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع در على خالصه

فقرأه بعض حاشية الخليفة وأخبره به فغضب لذلك وأمره بإحضار الشاعر فلما وصل إلى الباب مسح العينين اللتين فى لفظة ضاع وحضر بين يديه فقال له ما كتبت على الباب قال كتبت:

لقد ضاء شعرى على بابكم كما ضاء در على خالصه

فأعجبه ذلك وأنعم عليه وخرج الشاعر وهو يقول لله درك من شعر قلعت عيناه فأبصر انتهى.

وهذا نوع جليل يسمى المواربة ونظير ذلك ما اتفق لأبى عبد الله أحمد ابن محمد صدقة المعروف بابن الخياط الدمشقى فإنه قصد فخر الدولة عمار ابن عمار فأعد فخر الدولة لصلته ألف دينار فلما استحضره واستنشده كان أول ما أنشد:

لم يبق لى شيء يبـــاع بدرهم تغنيك رؤية منظرى عن مخبرى

إلا صبابة مـاء وجـه صنتهـا عن أن تبـاع وأين أين المشـترى

فغضب فخر الدولة وأعرض عنه وحجبه حتى أشفع له إليه فاعتذر وقال إنما قلت وأنت أنت المشترى فأعجبه ورضى عنه ودفع إليه ما كان أعده له.

وحكى الشيخ جمال الدين ابن نباتة أن بعض عمال عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال شعرا منه:

أسقنى شربة ألذ عليها واسق بالله مثلها ابن هاشم

قال فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأنكر عليه وعزله فلما جاء قال يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت ثانيا وأنشد بديها:

عسلا باردا بماء سحاب إننى لا أحب شرب الدمام

فأعجب أمير المؤمنين ورده إلى عمله.

وقصد أعرابى المأمون فقال له قد قلت فيك شعرا قال أنشده فقال:

حيـاك رب الناس حيـاكـا إذ بجـمـال الوجـه رقـاكـا

بغـداد من نورك قـد أشـرقت وأورق العـود بجـدواكـا

فأطرق المأمون ساعة وقال يا أعرابى وأنا قد قلت فيك شعرا وهو:

حيـاك رب الناس حيـاكـا إن الـذى أملت أخطـاكـا

أتيت شـخصـا قـد خـلا كيسـه ولو حـوى شيء لأعطـاكـا

فقال يا أمير المؤمنين إن بيع الشعر بالشعر ربا فاجعل بينهما شيئًا يستطاب فضحك وأمر له بمال.

ويحكى عن الحريرى أنه كان بشع المنظر رث الهيئة فجلس غلامه يوما فى خلوة وأراد أن يتعلم النظم فأول ما نظم نصف بيت وهو:

وجه الحريرى وجه قرد

فسمعه الحريرى فقال:

والضرورة أحوجتنا إليه

فخجل الغلام من سيده وسكت، ثم اجتمع الحريرى مع الخليفة وأخبره بذلك فقال له لأى شىء ما صبرت حتى يكمله فقال رأيته افتتحنى بقرد فخشيب أن يكلمنى بكلب فكملته له.

ومن بشاعة منظره ما يحكى عن بعض اطلبة أنه وفد إليه من بلاد بعيدة ليأخذ عنه العلم والأدب فسأل عن منزله إلى أن جاء إليه فطرق الباب فخرج إليه الحريرى فقال له ما تريد قال أريد الحريرى قال أنا فما حاجتك فلما رآه استقبحه عينه وقال أنت الحريرى وجعل يكررها عليه فأنشده الحريرى فى الحال يقول:

ما أنت أول سار غزه قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن

رحل قلوصك عنى إننى رجل ... مثل المعيدى اسمع بى ولا ترنى

ويحكى عن ابن البقولى الشاعر أنه كان فى أول أمره نديما حسنا شاعرا أديبًا يمدح الرؤساء بالقصائد البليغة ويأخذ الجزائر السنية إلى أن حصلت له ثروة ورياسة وصار الناس يمتدحونه بالقصائد وكان من أمره ما ان وكان لا يعطى أحدا شيئًا، بل يجيب من امتدحه بأبيات أبلغ منها وأزيد، ومن تمام بخله أن يكتب الجواب فى ظهر الورقة التى أتت إليه فعجز الناس فيه، ولم يقدر أحد أ يأخذ منه شيئًا فقال بعض اللطفاء أنا أغلبه فانطلق إلى منزله فطرق الباب فقالت الجارية من فقال انزلى اخرى وبولى فسمعها سيدها فقال

من الذى تخاطبينه فقالت رجل طرق الباب فـقلت له من فقال كذا وكذا فقال أعيدى عليه الكلام فقالت ما تريد فقال ولطخينى بطولى فقالت يا سيدى تجنن أكثر وأكثر وقال ادفعيه له ففعلت فأخذه وانصرف فقالت زوجة ابن البقولى له يمتدحك الناس بالقصائد الـبليغة فما تسمح لهم بشيء رجل يخبط ويتـمسخر تعطيه هذا القدر فقال أيما خير ذلك أو تقول له الجارية من فيقول:

ولطخينى بقبضة من لحية ابن البقولى

فأنا رأيت النكتة قد وقعت على وحكمت على القافـية فاشتريت لحيتى بخمسمائة درهم.

وحكى صاحب بديع الهداية أن تاجرا سافر بعبدين من مصر فأرادا قتله فى الطريق فلما علم أنه مـقتول لا محالة قال لهـما إذا وصلتما مصـر فقولا لبنتى قال لكما أبوكما:

من مبلغ بنتى عنى أننى لله دركما ودر أبيكما

فقتلاه ورجـعا إلى مصر تذكرا وصيـته وجاء إلى بنتيه فقـالا لهما ذلك فقالتا والله إن أبانا لمقتول وتعلقتا بالعبدين فـأخذا وضربا فاعترفا بالقتل فقتلا وقيل للبنتين كيف علمتما ذلك فقالتا إنه أشار إلى قول الشاعر:

مـن مـــــبلـغ بنـتـى عنـى إننـى أصـبحت مـقـتول الـفلاة مـجندلا

لله دركـــــمـــــا ودر أبـيكـمـــــا لا يبـــرح العبـدان حـتى يقـتـلا

ومن ألطف ما اتفق أن بعض الخلفـاء كان يحفظ الشعـر من مرة وعنده مملوك يحـفظه من مرتين وجـارية من ثلاث مـرات وكان بخـيلا جـدا فكان الشاعـر إذا أتاه بقصيدة قـال له إن كانت مطروقة بأن يكون أحد منا يحـفظها نعلم أنها ليست لك فلا نعطيك لهـا جائزة وإن لم نكن نحفظها فنعطيك وزن ما هى فيه مكتـوبة فيقرأ الشاعر القـصيدة فيحفظها الخـليفة من أول مرة ولو كانت ألف بيت، ويقول للشاعر اسمعهـا على فإنى أحفظها وينشدها بكمالها

ثم يقول وهذا المملوك أيضًا يحفظها وقد سمعها المملوك مرتين مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فيحفظها ويقرأها ثم يقول الخليفة وهذه الجارية التى وراء الستر تحفظها أيضًا وقد سمعتها ثلاث مرات مرة من الشاعر ومرة من الخليفة ومرة المملوك فتقرؤها بحروفها وينزل الشاعر بغير شيء وكان الأصمعى من جلسائه وندمائه فنظم أبياتا مستصعبة ونقشها فى أسطوانة ولفها فى ملاءة وجعلها على ظهر بعير ولبس جوخة بدوية مفرجة من وراء ومن قدام وضرب له لثاما لم يبين منه غير عينيه وجاء إلى الخليفة وقال إنى امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة فقال يا أخا العرب إن كانت لغيرك فلا نعطيك لها جائزة وإن كانت لك نعطيه زنة ما هى مكتوبة فيه قال قد رضيت وأنشد:

صوت صفير البلبل هيج قلبى الشمل
الماء والزهر معا من غنج لحظ المل
وأنت حقا سيدى وسوددى وموللى
وكم كم تيمنى غزيل عقنقلى
قطفت من وجنته بالوهم ورد الخجل
وقلت بسبسبستنى فلم يجل بالقبل
وقال لالالا للا وقد غدا مهرولى
وفتية سقيتنى قهيوة كالعسل
شممتها فى انفف أذكى من القرنفل
فى بستان حسن بالزهر والسروللى
والعود دندن دندن والطبل طبطب طبلى
والرقص ارطب طبطب والسقف سقف سعسلى

شـــوشـــووا شـــوشـــووا　　مـن ورق الســـفـــرجـل

وغـــرد الـقـــمـــر يـصح　　مـن مـــل مـن مـــلـــلـــى

فـلو تـرانى راكـــبـــا　　على حـــمـــار أعـــزل

أمـــــشى على ثـلاثـة　　كـــمـــشـــيـــة الـعـــرنجل

والنـاس قـــد تـرجـــمنى　　فى الســـوق بـالبـــقـلـلى

والكـل كـــعـلـع كـــعـكع　　خـلفـى ومـن حـــويـللى

لكـن مـــشـــيت هـاربا　　من خـــشـــيـــة فى عـقـللى

إلـى لـقـــــاء مـلـك　　مـــعظـم مـــبـــجـل

يـأمـــر لى بـخلـعـــة　　حـمـــراء كـــالدمـــامل

أجـــر فـــيـــهـــا مـــأربا　　ببـــغـــدد كـــالـدلدل

قال فلما فرغ من إنشـادها بهت الملك فيها ولم يحفظها لصـعوبتها، ثم نظر إلى المملوك فأشـار إليه أنه ما حفظ منها شـيئًا وفهم من الجـارية أنها ما حفظت منها شـيئًا فقال الخليفة يا أخـا العرب إنك صادق وهى لك بلا شك فإنى ما سـمعتها قبل ذلك فـهات الرقعة التى هى مكتوبة فيـها حتى نعطيك زنتها فقال يا مولاى إنى لم أجد ورقا أكتب فيه وكان عندى قطعة عمود رخام من عهد أبى وهى ملقاة فى الـدار ليس لى بها حاجة فنقشتهـا فيها فلم يسع الخليفة إلا أن أعطاه زنتها ذهبا، فنفذ جميع ما فى خزانة الملك من المال فأخذ الأصمعى ذلك وانصرف فلمـا ولى قال يغلب على ظنى أن هذا الأعرابى هو الأصمعى فأحضـره وكشف عن وجهه فإذا هو الأصمعى فتـعجب من صنيعه ورجع عن مـا كان يعـامل به الشعـراء وأجراهم على عـوائد الملوك، وله فى

منادمات الخلفاء وغيرهم نكت عجيبة غريبة، منها أنه قال دعتنى العرب الكرام إلى قرى الطعام فقمت معهم مهرولا ودخلت بيت الضيافة مؤهلا فلم يطب لى القعود إلا وجماعة من العرب وفود ومعهم شاب قد أقبل وهو من البعير أنبل فجلس على أعلا منسف وجعل يأكل بالخمسة والكف ثم وثب إلى الطعام بذراعه والدسم ينقط من كراعه وكان عليه فروة مقلوبة فجعل يمسح فى صوفها فقلت يا أخا العرب:

كأنك مثلة فى أرض هش أتاها رابل من بعد رش

قال فنظر إلى بعين مبجلقة وقال السؤال أنث والجواب ذكر ثم قال:

كأنك بعرة فى أست كبش مدلدلة وذاك الكبش يمشى

قال الأصمعى فأردت أن أضحك العرب عليه فأضحكهم على فقلت له يا أخا العرب هل تعرف شيئًا من الشعر وتدربه قال كيف لا وأنا كأمه وأبيه فقلت له سمعت بيتا من الشعر هل تعرف له ثانى قال فى أى المعانى قال ففتشت الأشعار فلم أجد قافية أصعب من الواو المجزوم لعله يولى عنى وهو مهزوم فقلت له:

قوم بجنان عهدناهم سقاهم الله من النوم

أتدرى نو ماذا فقال:

نو تلألأ دجى ليلة مظلمة حالكة لو

فقلت له لو ماذا فقال:

لو سار فيها فارس لانثنى على بساط الأرض منطو

فقلت له منطو ماذا فقال:

منطو كالشح هضيم الحشا كالباز ينقض من الجو

فقلت له جو ماذا فقال:

جو السما والريح تهوى به اشتم ريح الأرض فاعلو

فقلت له اعلو ماذا فقال:

اعلو لما عيل من صبره وسار نحو القوم ينعو

فقلت له ينعو ماذا فقال:

ينعو رجالا للقنا شرعت كفيت ما لاقو ويلقو

فقلت له يلقو ماذا فقال:

يلقو بأسياف يانية وعن قليل سوف يفنو

قال الأصمعى فعلمت أنه لا شيء بعد الفناء ولكن أردت أن أثقل عليه فقلت له يفنو ماذل فقال:

إن كنت ما تفهم ما قلته فأنت عندى رجل بو

فقلت له بوماذا فقال:

البوسلخ قد حشى جلده بألف قرنان تقم أو

فقلت له أوماذا تقال:

أو أضرب الرأس بصوانة تقول فى ضرتها قو

قال الأصمعى: فشخيبت أن أقول له قو ماذا فيضربنى بصوانة ويتمها بيتا من الشعر ويجعل صوت الضربة قافية فقلت له يا أخا العرب هل لك أن تضيفنى وأردت أن أنكيه فقال ما يأبى الكرامة إلا لئيم، فأخذته وجئت به إلى

منزلى وقلت لزوجتى اصنعى لنا دجاجة واحدة فصنعتها وجئت بها، جلست أنا وابناى وابنتاى وزوجتى وقلت له اقسم علينا هذه الدجاجة، فاحتز رأس الدجاجة ودفعه إلى وقال الرأس للرأس، ثم خلع الجناحين وقال الجناحان للولدين، ثم اقتلع الفخذين وقال الفخذان للبنتين، ثم فك العجز وقال العجز للعجوز، ثم قطع الأوراك والزور وقال لازور للزائر فأكلها ولم يطعمنا منها إلا القليل.

فقلت لزوجتى اصنعى لنا فى العشاء خمس دجاجات فصنعتا وجئت بها وحضرنا جميعًا وقلت فى نفسى لعلى أغلبه فقلت له اقسم علينا، فقال تريدون شفعًا أو وترًا، فقلت له إن الله وتر يحب الوتر، فقال أنت وزوجتك ودجاجة وتر، وابناك ودجاجة وتر، وابنتاك ودجاجة وتر، وأنا ودجاجتان وتر. فقلت لا أرضى بهذه القسمة، فقال كأنك تريد شفعًا، فقلت نعم، فقال أنت وابناك ودجاجة شفع، وزوجتك وابنتاها ودجاجة شفع، وأنا وثلاث دجاجات شفع، ووالله لا أحول عن هذه القسمة. قال الأصمعى فغلبنى فى الشعر وأكل الدجاج.

ومنها أنه مر يوما بأعرابى ملقى على الأرض ممرغ فى التراب وقد امتلأ وجهه وشعر لحيته ترابًا وعليه فروة مقلوبة صوفها شاهر وجلدها باطن ونصفه فى الشمس ونصفه فى الظل، والذباب يعف عليه وهو لا يتحرك من مكانه، فقال له الأصمعى يا أخا العرب ما هذه الحالة التى أنت فيها ولم أر أحدًا مثلك فانتقل من الشمس إلى الظل، أو من الظل إلى الشمس فإن الأطباء ينهون عن مثل ذلك، واغسل وجهك ونظف ثوبك وبدنك وأمط عنك الأذى الذى أنت فيه، فقال له الأعرابى خلنى فإنى عاشق قال ومثلك يعشق قال نعم قال فهل تغزلت فى محبوبتك بشىء قال نعم. قال فما قلت فأنشد الأعرابى:

سألت الله يجمعنى بسلمى ... أليس الله يفعل ما يشاء

ويسطحها ويطرحنى عليها ... شبيه الزق تحمله السقاء

ويأتى من يحركنى رفق ... وينزل لى من الأعضاء ماء

ويمطر بعد ذا مطرا عظيما ... يظهرنا وليس بنا عناء

قال الأصمعى فوالله لا أدرى أيهما أكسل أهو أم شعره، ولم يمر بى أكسل منه.

ومن اللطائف الرقيقة قصة الهذلى مع المنصور العباسى فإنه روى أن المنصور وعد الهذلى بجائزة ونسى فحجا معا ومرا فى المدينة النبوية ببيت عاتكة وكان من عادة الهذلى أنه لا يكلم الخليفة إلا جوابا فقال يا أمير المؤمنين هذا بيت عائكة التى يقول فيها الأخوص:

يا بيت عاتكة الذى أتعزل ... حذر العدا وبه الفؤاد موكل

فأنكر عليه أمير المؤمنين ذلك لأنه خالف عادته وتكلم من غير أن يسأله، فلما رجع الخليفة استدعى بديوان الأخص ونظر فى القصيدة إلى آخرها ليعلم ما أراد الهذلى فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم أه أشار إلى هذا البيت فتذكر ما وعده به فأنجزه له واعتذر إليه من النسيان انتهى.

وهذا نوع من أنواع البديع يسمى التلميح وربما سماه بعضهم التمليح بتقديم الميم ولا بد من إيراد طرف منه لأنه نوع لطيف دقيق يحتاج فى فهمه

إلى زيادة فطنة وقوة ذكاء فمن ذلك وهى نظرية الأولى ما حكى أن أبا العلاء المعرى كان يتعصب للمتنبى فحضر يوما مجلس الشريف الرضى فجرى ذكر أبى الطيب فهضم الرضى جانبه فقال أبو العلاء لو لم يكن له من الشعر إلا القصيدة التى أولها: لك يا منازل فى القلوب منازل لكفاه فغضب الرضى وأمر به فسحب وأخرج فعوتب الرضى فى ذلك فقال أتدرون ما عنى بالبيت قالوا لا قال أراد قول أبى الطيب فى القصيدة:

وإذ أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

ومن هذا القبيل قصة السرى الرفا مع صيف الدولة وقد جرى يوما فى مجلس سيف الدولة ذكر أبى الطيب فبالغ سيف الدولة فى الثناء عليه فقال السرى أشتهى أن الأمير ينتخب لى قصيدة من غرر قصائده ويرسم لى بمعارضتها ليتحقق بذلك أنه أركب المتنبى فى غير سرجه، فقال له سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التى مطلعها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى وللحب ما لم يبق منى وما بقى

قال السرى فكتبت القصيدة واعتبرتها تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبى الطيب فعلمت أن سيف الدولة إنما قال ذلك لنكتة ورأيت المتنبى يقول فى آخرها عند ممدوحه سيف الدولة:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال لى الحق

فقلت والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت فخجلت وأعرضت عن المعارضة.

ويعجبنى تلميح ولادة لابن زيدون، وما ذاك إلا أنه كان بقرطبة امرأة ظريفة متأدبة من بنات خلفاء المغرب المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل فى بنى عبد الملك بن مروان تسمى ولادة بنت المستكفى بالله ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وصارت تجلس للشعراء والكتاب وتناظرهم وتطارحهم، وكانت ذات جمال بارع وأدب غض ودماثة أخلاق، وكان لها ميل إلى الوزير أبى الوليد ابن زيدون المخزومى الأندلسى دون غيره من أهل العصر، فما كتبت به إليه وهى راضية عنه:

ترقب إذا جن الظلام زيارتى ... فإنى رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك ما لو كان بالبدر لم ينر ... وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

ومما كتبت إليه وهى غضبانة عليه:

إن ابن زيدون على فضله ... يلهج بى شتما ولا ذنب لى

يلحظنى شزرا إذا جئته ... كأنما جئت لأخصى على

تشير فى هذا التلميح اللطيف إلى غلام كان متهما به.

ومن أظرف ما سمعته فى نوع التمليح أن امرأة من أهل الحذق والظرافة مرت على بعض اللطفاء وهى ملتفة بكساء فقال لها من أنت فقال أنا السادس فى السابع، أشارت إلى السادس والسابع من قول ابن سكرة:

جاء الشتاء وعندى من حوائجه ... سبع إذا الغيث عن جاجاتنا حبسا

كن وكيس وكانون وكاس طلا ... مع الكباب وكس ناعم وكسا

فكأنها قالت أنا الكس الناعم فى الكساء، ونظم بعضهم هذا المعنى فى بيتين:

رأيتـهـا ملفـوفـة فى كـسـاء خـوفـا من الـكاشح والطـامع

قـلت لـهـا مـن أنـت يا هـذه قـالت أنا الـسـادس فـى السـابع

وألطف منه مـا حكاه ابن الجوزى فى كـتاب الأذكـياء فإنه مـن غرائب التمليح قـال قعد رجل على جسر بغـداد فأقبلت امرأة بارعـة فى الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربى فاستقبلها شاب فقال رحم الله على بن الجهم فقالت له المرأة رحم الله أبا العلاء المعرى وما وقفا با سارا مشرقا ومغربا. قال الرجل فـتبـعت المرأة وقلت لهـا: والله إن لم تقـولى لى ما أراد ومـا أردت لأفضحتك قالت أراد بعلى بن الجهم قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وأردت بأبى العلاء قوله:

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

ومن الإشارات الدقـيقـة أن الكساءى كـان يعلم ولد الخليفـة وكان من عادته أنه إذا غلط لا يرد عليه وإنما يضرب بعصاه على الأرض فـيتنبه الصغير ويراجع فكره فيقرأ صوابا فقرأ عليه ذات يوم قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تـفعلون كبر مقـتا عند الله أن تقولوا ما لا تفـعلون» فضرب الكسـاءى على الأرض فـسكت الصـبى وراجع فكره فلم يظهـر له غلط ولا نسيان فاستمر فى قراءته، ولما فرغ ذهب إلى أبيه وقال له هل وعدت الكساءى بشىء ولم تف له، قـال نعم ومن أعلمك بذلك، قال اتفق لى كـيت وكيت فاستحسن فهمه وأنجز للكساءى ما وعده.

ومن أرق ما رأيته وأخـفا إشارة ما حكى أن المتنبى امـتدح بعض أعداء

صاحب مملكته، فبلغه ذلك فتواعد المتنبى بالقتل فخر هاربا، ثم اختفى مدة فأخبر الملك أنه ببلدة كذا فقال الملك لكاتبه اكتب للمتنبى كتابا ولطف له العبارة واستعطف خطره وأخبره أنى رضيت عنه وأمره بالرجوع إلينا، فإذا جاء إلينا فعلنا به ما نريد وكان بين الكاتب وبين المتنبى مصادقة فى السر، فلم يسع الكاتب إلا الامتثال فكتب كتابا ولم يقدر أن يدس فيه شيئًا خوفًا من الملك؛ لأنه يقرؤه قبل ختمه غير أنه لما انتهى إلى آخره وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون وقرأه السلطان وختمه وبعث به إلى المتنبى، فلما وصل إليه وقرأه ورأى تشديد النون ارتحل من تلك البلدة على الفور، فقيل له فى ذلك فقال أشار الكاتب بتشديد النون إلى قوله تعالى: «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين» فانظر إلى بلوغ الغرض بألطف عبارة وأدنى إشارة، وعندى أن ملكة القارئ تزيد فى هذا النوع على ملكة الكاتب.

ويحكى أن المتنبى كتب الجواب وزاد ألفًا فى آخر لفظة إن إشارة إلى قوله تعالى: «إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها»، وقد آن أن أحبس عنان القلم ففى هذا القدر بلوغ المرام ولم نأت بحمد الله تعالى إلا بما يليق بالمقام فذلك مما لا يستغنى عنه النديم ومن ذوقه ألطف من النسيم.

* * *

الباب التاسع
فى المغرمين بشربها والمصرين عليها

منهم أبو محجن الثقفى الأسدى كان مولعا بالشراب ممتحنا به وهو القائل:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى فى الممات عروقها

ولا تدفننى فى الفلاة فإننى أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

حكى من رأى قبر أبى محجن المذكور أنه بأرمينية بين شجرات كرم وفتيان أرمينية يخرجون بطعامهم وشرابهم فيتنزهون عنده وكلما شربوا كأسا صبوا له كأسا فى قبره.

وحكى فى قطب السرور نظير ذلك عن الأعشى، وكان مدمنا للخمر أيضًا فخرج يريد الإسلام وامتدح النبى ﷺ بقصيدة أولها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

فلما كان بمكة لقيه أبو سفيان فسأه عن سبب قدومه فقال أريد محمدا ﷺ قال إنه يحرم عليك الزنا والقمار والخمر، قال أما الزنا فقد تركنى، وأما القمار فلعلى أصيب منه خلفًا، وأما الخمر فوالله لا تطاوعنى نفسى على تركها ولكن أنصرف فأتزود منها عامى ثم آتيه وأسلم، وانصرف فلما كان بقرية من قرى اليمامة رمى به بعيره فدق عنقه فمات. قال على بن سليمان النوفلى عن أبيه قال أتيت اليمامة واليًا فمرتت بقرية يقال لها مفرجة وبها قبر الأعشى فرأيته رطبا فسألت عن ذلك فقالوا إن الفتيان ينادمونه ويجعلونه كواحد منهم فيصبون كأسه على قبره، ومنهم بكر بن خارجة وهو القائل:

غسلونى إن مت فى ماء كرمة إن روحى تحيى بماء الكروم
حنطونى بتربها ثم رشوا كفنى من رحيقها المختوم
وادفنونى بحانة عند دن بفنا عسكر الدنان مقيم

ومنهم أبو الهندى وكان مولعًا بالشراب مسرفا فيه وهو القائل:

إذا حانت وفاتى فادفنونى بكرم واجعلوا زقا وسادى
وإبريقا إلى جنبى وطاسا يروى هامتى ويكون زادى

وفى معناه قول الآخر وأجاد فى التلطف:

فأمزجاها واسقيانى واشربا ودعا العاذل يهدى كيف شا
وأفشيا السر فما يهنينا شربها إلا إذا السر فشا
وإذا مت اسطحانى وافرشا من عصير الخمر تحتى فرشا
واقطعا لى كفنا من زقها وانضحا منه عليه وارششا
وادفنانى يا نديمى إلى أصل كرم فرعه قد عرشا
ليظل الفرع منى ظاهرا ويروى الأصل منه العطشا
وكلانى بعد ما قلت إلى راحم يفعل فينا ما يشا

ومنهم يزيد بن معاوية كان مجاهرا بالشراب متهتكا فيه وله فى وصفه بدائع وغرائب لم يسبق إليها ونهاه والده عنها مرارا فلم يلتفت إليه وغضب معاوية عليه بسبب ذلك فأنشد يزيد يخاطبه ونسبها الأصمعى إلى غيره وهو:

أمن شربة من ماء كرم شربتها غضبت على الآن طاب لى السكر
سأشرب فأغضب لا رضيت كلاهما حبيب إلى قلبى عقوقك والخمر

فصبر والده لذلك وتغافل عنه مدة ثم لاطفه وعاتبه وكتب إليه يا بنى ما أقدرك أن تصير إلى حاجتك من غير تهتك يذهب مروءتك وقدرك وإنى منشدك أبياتا فى المعنى:

انصب نهارا فى طلاب العلا ... واصبر على بعد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا داجيا ... واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فبادر الليل بما تشتهى ... فإنما الليل نهار الأديب
كم فاسق تحسبه ناسكا ... يستقبل الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أثوابه ... فبات فى أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كل عدو مريب

قال فاتعظ يزيد بذلك وحلف أن لا يشربها نهارا وله فيها مطولات ومقاطيع كالسحر الحلال وأعذب من ليالى الوصال ولكنه بالغ فى وصفها وخرج عن حيز الاعتدال وسأذكر إن شاء الله تعالى منها ما يطيب ويعطب واجتنب ما يعاب ويصعب.

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان متهتكا مجاهر بالمعاصى متلاعبا بالدين، يحكى عنه أنه كان يأمر بالبركة فتملأ خمرا ثم ينزع ثيابه وينغمس فيها ولا يزال يكرع منها بغيه وهى تتناقص إلى أن يذهب منها قدر كثير وكان يلقب بالفاسق ومن كلامه:

قد جعلنا طوافنا بالدنان ... حين طاف الورى بركن يمانى
سجد الساجدون لله حقا ... وجعلنا سجودنا للقنانى

حكى الزبير بن بكار عن عمه أن الوليد لما انهمك فى لذاته ولم يفكر فى عاقبة أمره اجتمع وجوه بنى أمية ولاموه فأنشد قول:

أشهد الله والملائكة الأبـ ـرار والعابدين أهل الصلاح
أننى أشتهى السماع وشرب الـ ـراح والبعض فى خدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الـ ـفاره يسعى على بالأقداح
وظريف الحديث والكاعب الـ ـطفلة تختال فى سموط الوشاح

فلما سمعوا ذلك منه يئسوا وانصرفوا وفكروا فى فساد مملكته وكان يطرب بالعود ويوقع بالطبل وينقر بالدف على مذهب أهل الحاجز ولما خلع أنشد يقول:

خذو ملككم لا ثبت الله ملككم ثباتا يساوى ما حييت عقالا
أبا الملك أرجو أن أعمر بينكم ألا رب ملك قد أزيل فزالا
دعوا لى سليما والنبيذ وقنينة وعودا ألا حسبى بذلك مالا

ومنهم أبو دلامة واسمه زيد بن الحرث كان ظريفا فصيحا كثير النوادر ماجنا خليعا مدمنا للشراب متلفا لما له فيه وكان راوية الأخبار والأشعار وكان أبو العباس السفاح يستظرف شعره ويأنس بحديثه ويجزل له صلاته، فإذا أفلت من عنده لم يوجد إلا فى بيوت الخمارين فلما كثر ذلك منه أراد أبو العباس أن يضبطه عنده فأمره بالتزامه مسجده بالقصر ليكن أمامه فى الصلوات الخمس فلم يسعه إلا الطاعة وأقام بعض أيام فضاق ذرعه وضجر وكتب إلى بعض أصحابه يشكو ما يجد ويقول:

ألم تعلموا أن الخليفة لزنى بمسجده والقصر ما لى وللقصر
أصلى به الأولى مع العصر دائما فويلى من الأولى وويلى من العصر
ووالله مالى نية فى صلاتهم ولا البر والإحسان والخير من أمرى
وما ضره والله يحسن أمره لو أن ذنوب العالمين على ظهرى

فلما بلغت الأبيات الخليفة قال خلوا سبيله فوالله لا يفلح أبدا، ودخلت أمه على أبى العباس السفاح تستغيث منه وتشكو من إتلافه ماله ولزومه بيوت الخمارين فأمر بطلبه فأتى به وهو سكران لا يعقل فأمر بتحريق طيلسانه وحبسه فى بيت الدجاج فلما أفاق من سكره أمر بإحضاره فأنشد يقول:

لقد كانت تخيرنى ذنوبى بأنى من عقابك غير ناج
أقاد إلى الحبوس بغير جرم كأنى بعض عمال الخراج
فلو معهم حبست لهان عندى ولكنى حبست مع الدجاج
أمير المؤمنين فدتك نفسى علام حبستنى وحرقت تاجى

فضحك أبو العباس وأطلقه.

ومنهم يحيى بن أكثم كان قاضيًا معتبرًا مغرمًا يحب الشراب، قتيلا فى الطيبة والانشراح وله حكايات مع المأمون مشهورة منها أن المأمون اصطبح يوما وعنده عبد الله بن طاهر ويحيى بن أكثم فعزم الخليفة وعبد الله بن طاهر على إسكار يحيى فغمزا عليه الساقى فسقاه حتى تلف وبين أيديهم ردم من ورد وريحان فشق له فيه لحدا ودفن فيه ونظم المأمون بيتين ودعا بجارية فجلست عند رأسه وحركت العود وغنت تقول:

ناديتـه وهـو مـيت لا حـيـاة له مكـفن فـى ثيـــاب من ريـاحين

وقلت قم قـال رجلـى لا تطاوعنى وقلت خــذ قـال كـفى لا تـواتينى

وجعلت تردد الصوت بهذين البيتين عند رأسه وهما يشربان فانتبه يحيى وأنشأ يقول مجاوبا لها:

يا سـيـدى وأمـيـر النـاس كلهم قد جار فى حكمه من كان يسقينى

إنى غـفلت عن الساقى فـصيـرنى كـمـا ترانى سليب العـقل والدين

لا أستطـيع نهوضا قـد وهى بدنى ولا أجـيب المنادى حـين يدعـونى

فـاختـر لأرضك قـاض إننى رجل الراح تقـتـلنى والريح تحـيـينى

والمغرمـون بها من الخلفـاء والوزراء والكتاب كـثيرون حـتى حكى عن عروة بـن الورد أنه أنفق فى حب الخمـر جمـيع ما يملكه حـتى رهن زوجـته سلمى الغفارية فى ثمن الخمر مع ما كان عليه من زيـادة محبتها وشدة الغيرة عليها ولكن فى هذا القدر كفاية والله أعلم.

الباب العاشر
فى استهدائها واستدعآت الأدباء نظما ونثرا

ذكر الثعالبى أن أبا الفضل بن العميد كان قد بالغ من تأديب ولده أبى الفتح وتهذيبه وجعل عليه عيونا لينظر ما يصدر عنه فى مكاتباته فأعلم أنه استهدا شرابا من صديق له ليلة أنس فوجه والده لذلك الشخص واستدعا منه تلك الرقعة فإذا فيها قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاءك رقدة من عين الدهر وانتهزت فرصة من فرص العمر وانتظمت مع أصحابى فى سلك الثريا فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المدام عدنا كبنات نعش والسلام فاستطار والده فرحا وإعجابا بهذه الرقعة وقال الآن ظهرت براعته ووثقت بجريه على طريقتى ووقع له بألفى دينار وتلطف القائل:

يا من غدت أجيادنا ... بندا يديه مطوقه

ابعث لعبدك نقطة ... وعسى تكون مروقه

وقال حجلة البرمكى:

قد زارنى اليوم نور عينى ... وكان بالأمس صدعنى

وليس عندى له مدام ... وليس يرضى بذاك منى

فجد علينا بنصف دن ... بثلث دن بربع دن

لا تنكرن كذبتى وشحتى ... فاتتنى شاعر مغنى

حالان لو حالفا مليكا ... وافتنا ينادى بكل فن

وقال الصاحب فخر الدين بن مكانس:

براح ورمـــان بعـــثت إليكم وبسـر وتفـاح تضـوع كـالند

كما جلبت بكر على الشرب ناهد مقمعة الأطراف قانية الخد

وقال الصاحب بن عباد وهو تلميذ أبى الفضل بن العميد ولكنه فاقه وفضله قمن استدعائه قوله نحن سيدى بمجلس غنى إلا عنك غير شاكر منك قد تفتحت فيه عيون النرجس وتوردت فيه خدود البنفسج وفاحت مجامر الرج وفتقت فارات النارنج وانطلقت ألسن العيدان وقامت خطباء الأطيار وهبت رياح الأقدام ونفقت سوق الأنس وقام منادى الطرب وطلعت كواكب الندمان فبحياتى عليك إلا ما حضرت لنحصل بك فى جنة الخلد وتتصل الواسطة بالعقد.

وقوله من أخرى مجلسنا يا سيدى مفتقر إليك معول فى شوقه عليك وقد أبت راحته أن تصفو إلا أن تناولها يمناك واقسم غناؤه لا يطيب حتى تعيه أذناك فأما خدود نارنجه فقد احمرت خجلا لإبطائك وعيون نرجسه قد أحدقت قصدا للقائك، ونحن لغيبتك كعقد ذهبت واسطته وشباب قد أخذت جدته وإذ غابت شمس السماء عنا فلا بد أن تدنو شمس الأرض منا فإن رأيت أن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد ونحصل بك فى جنة الخلد فكن إلينا أسرع من السهم فى ممره والماء إلى مقره لئلا يخبث من يومى ما طاب ويعود من نومى ما طار والله أعلم.

وقال أبو نصر العتبى كاتب السلطان محمود هذا يوم قد رقت غلائل صحوه وحجبت شمائل خيره وضحكت ثغور رياضه وأطردت ورود النسيم فوق حياضه وفاحت مجامر الأزهار وانتثرت قلائد الأغصان من فرائد الأنوار وقام خطباء الأطيار على منابر الأشجار ودارت أفلاك الأيدى بشموس الراح

فى بروج الأقداح وسبينا العقل فى مرج الجنون وخلعنا لعذار بأيدى المجون فبحق الفتوة التى زان الله بها طبعك والمروأة التى قصر عليها أصلك وفرعك إلا ما تفضلت علينا بالحضور ونظمت لنا عقود السرور.

وقال نجم الدين القوصى وزير صاحب حماة من بلغاء مصر فى المائة السابعة ولما نزلنا بساحة الرياض نثرت علينا أغصانها درر الأزاهر من قرا ومدت مقطعاتها سبائك فضة ينثر كف النسيم بها جواهرا والأطيار تتخاصم فى إكرامنا بكل فن وتهز من كل قد سيفا تتذكر به سيف بن ذى يزن والكئوس تدور كأنها شموس فى بدور والخدود على غمزتها شاهدة أن أمست الألسن جاحدة.

وقال أبو العباس الغسانى كاتب صاحب أفريقية سر إلى مجلس يكاد يسير شوقا إليك ويطير بأجنحة من جواه حتى يحل بين يديك فلله در كماله إن طلعت بدرا بأعلاه وجماله إن ظهرت غرة بمحياه فهو أفق قد حوى نجوما تتشوق إلى طلوع بدرها لتقتبس منه وقطر قد اشتمل على أنهار تتشوق إلى بحرها لتستمد منه وتأخذ الزيادة عنه فإن مننت بالحضور وإلا فيا خيبه السرور.

وقال أبو الوليد بن الجبان الشاطبى نحن فى روض مجلس أغصانه الندماء وغمامة الصهباء فبالله إلا ما كنت لروض مجلسنا نسيما ولزهر حديثنا شميما وللجسم روحا وللطيب ريحا وبيننا عذراء حاجبها خدرا وحبابها ثغرها بل هى شقيقة حوتها كمامة وشمس حجبتها غمامة إذا طاف بها معصم الساقى فوردة على غصنها أو شربها النديم مقهقهة فحمامة على فننها طافت علينا طوفان القمر على منازل الحلول وأنت وحياتك أكليلنا وقد حان حلولها فى الأكليل.

وكتب القاضى العسيد بن عناء الملك إلى صـاح له يستدعيه وقد انتظمنا انتظام الجمان واجتمعنا علـى رغم أنف الزمان وعندنا فلان وما أدراك ما فلان تارة ينظر فيملأ علينا البيت سحرا وتارة يبتسم فيفرق علينا دررا.

وتلطف محمد بن القرناص كـاتب سيف الدولة فقال وقد أجلتنا يومين وهذا الثالث وأعطيتـنا عهدين وكنت الناكث فهل ابتدعـت ما أتيت أوكان لنا عليك باعث فـياقـسيم روحى ويا نسـيم صبوحـى ها قد أتى الغـبوق إلا أنه بقرقف مـرشفيك وكـاس عينيك ووالله لا شـربت إلا على آس عذارك وورد خديك فبالله بر قسمى ورد الجواب من فمك إلى فمى.

وكـتب الشيخ بدر الدين بن الصـاحب إلى الصـاحب فخـر الدين بن مكانس هل لك بسط الله آمالك وضاعف نعيـمك ودلالك فى عذراء مصونة كالدرة المكنونة فـتانة مفـتونة كأن على خدها وردة يـاسمينية مـخدرة تدهش العقـول بمجتلاها وتغشى العـيون بضوء سناها مظلومة الـبريق مغشيـة العرف وفى أنيابهـا شنب لها من ذاتها طرب تغنى عن المزامـير بلقيـسية الجمـال لها صرح ممـرد من قوارير ضـرة الشمس تلبس سـامى البدور ليلين ويرطب بـها عيش السرور ليلها من نور حسنها نهار وضوء وجهها ليد لامسها سوار عجوز فى الاسم صبـية فى الاستـماع بكر تسـتخف الحكيم بكشف القناع تعـصبت بالدجى وتلثمت بالصباح وتلطفت حتى مازجت الرياح كريمة الأصل والفعال لطيفة المعانى حسنة الخصال أديمها كلما عتق يغلو ووردها كلما مر يحلو يخلع الوقور فى حبها العذار ويكاد يصفـها بالسعى فلك الهوا الدوار عليه المعاطف تقهقه كقـهقهة الرعونة كأنما خلقت نشوانة من الطينة يزداد نشـرها طيبا ساعة السحر، وتعرف عينها المخفية بحسن الأثر حديثها السحر الحلال وعشقها خلع الدلال أيامهـا أعياد وأوقـاتها أقوات للقـلوب والأكباد تطيب عـيش الجلاس

وتعرك بها أذن الوسواس من القاصرات الطرف فى كل قصر وهى فى الحقيقة مليحة العصر نديمها يحسب أنه جـالس على السحاب وأنه أمير على كل أمير مهاب كأن الشمس والقمر فى يديه بل كـأنهما دينار ودرهم لإنفاق يعود عليه شعر:

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

رومية لهـا بالكيمياء مـعرفة مع أنها بأدب المطـالب متصفة فـتارة تقلب الأحزان أفـراحا ومـرة تكتال لك من الذهب أقـداحا نديمهـا يجد فى نفـسه مخايل المملـكة ويكاد من شهامته يمد علـى الدنيا من لؤلؤها شبكة فتـية كأنما غنت اللك فنقطها بالنجوم قارية تخلقت بعد أن تقمصت ببياض الفيوم شعر:

ليت الحبيب غداة البين ودعنى فارقت روحى سريعا حين فارقنى

غيره:

ثوب تحت ليل الغار خمسين حجة تراءى مهورا غاليات وخطبا

تجمع شمل الأحـباب وتهذب أخلاق الكتاب لو خـالطها جبل الماس أو قارنها جـماد لقيل له كأس لو قتلت عـشاقها لما نسـبت إلى باس ولقال لسان حالها وفيها منافع للناس تلطفـت حتى كان رائيها سامع يطيب ويطرب وتكاد تؤكل بالضمير وتشري تغايرت الاستقاصاءت على شكلها النورانى وتأنقت فى خلقهـا الجسمانى الروحـانى فلم يجد الطين له فيـها مدخـلا، لكن قنع منها بالتلطخ تطفلا على أنه وارثـها بالتعصـيب بل جدها للام بلا تثريب أنفـاسها مسكية وطباعها برمكية ومكارمها حاتمية وأسابها قيصرية بكر بخاتم ربها وهى ترضع أبناءها من حلبها فـتعيد الشيخ صبـيا والمشغول خليا فكأنهـا استعادت الإرضاع من أمـها التى لها ندى كـالنجوم عده وتعلمـت منها المكارم لما رأت

أنفهـا بالنداء ممتـدة غانيـة طعم الحيـاة فى ريقهـا وضيق الموت فى مـباينتـها وتطليقها لا تنزل الحوادث بساحتها ولا يعرف التعب من صافح راحتها حمراء تخلع ثوبها على الندمـان بل تكاد تطبق عينها عـلى الإنسان لا ينهض البليغ بوصفها فالعجز عن إدراك لطفها إدراك لطفها، فأجابه القاضى فخر الدين بن مكانس بجواب نكت فـيه عليه وأشـار إلى سرقاته ولا يليق ذكره بهـذا المقام فاستظرفه لذلك وتلطف بعضهم بقوله:

نجـوم الـراح قـد طلعت نـهـارا ... ونـحن مـن المسـرة فـى ورود
ومـاء النيـل زوج بالحـمـيـا ... فـهـل لك أن تكون من الشـهـود

وقال أبو الحسن بن الوراق:

ألا بادر فـلا ثان سـوى مـا ... عـهـدت الكاس والـبـدر التـمـام
فـإن الروض مـلتـثـم إلى أن ... توا فـيـه ويتـحط اللثـام

وقال الصاحب فخر الدين بن مكانس:

بعـدك شـمس الـدين ياما جـرى ... من أدمع الـطل بخـد الشـقـيق
والنرجس الفـض غـدا شـاخـصـا ... فـلا تـخلى عـينه لـلطـريق

وقال ابن الزين لبيكم

قـامت لغـيبـتك الدنيـا على سـاق ... والكاس أصبح غضـبانا على الساقى
والراح قد أصـمت أن لا تطيب لنا ... حتى ترى وجـهك الزاهى بإشراق
وأعين الزهـر نحـو البـاب ناظرة ... وقد صـفت أذن السوسـان للطاق
وناح حـزنا عليك العـود حين بكا الـ ... ـراووق والجنك ذو وجـد وإطراق
والدف يزعق والموصول ناح جوى ... والزمر يصـرخ من شجـو وأشواق

والشمع أصحى بنار لوجد ملتهبا يذرى مدامعه من فيض أحداق
والند أحرق أحشاه وفاح لنا بعرفه بشذا مسك بإعباق
وساقى الراح غنانا نوى فشجى من طيب لذة ألحان بعشاق
والنهر جن جاء الريح سلسله وبات فى الروض صبا ماله راق
والريح أصبح معتلا على فرش الأ زهار فى الحب ملقى غير خفاق
والورد قد فكك الأزراد من شغف وشمر النرجس الوسنان عن ساق
وانشق قلب شقيق الروض من كمد وناظر الروض قد أغفى بأحداق
وازرق فى الروض من غيظ بنفسجه والزهر يزور من محمر آماق
والآس قد مس والمنثور منتشر والجلنار شكا نارا بإحراق
والورق للروض تملى من صبابتها والغيث يكتب أشواقا بأوراق
فاسمح بجودك فضلا بالحضور لنا مادام شمل مسرات الهنا باق
ولا تدع طيب أيام السرور إلى غد ولا تتناسى حفظ ميثاق
فلو دعيت إلى هذا سعيت له يا حبذاك على رأسى وأحداقى

وقال شهاب الدين العزارى من موشحة أولها:

كأس رويه جلا علينا النديم أم سنا مصباح أم حسن شمس توجتها النجوم
فى سما الأقداح أم حباب الراح
لنا خليل نراه منذ ليالى غائبا عنا
وماء الشمول لديه وهو سالى ليس هو منا

قل يا رسول بأننا فى ظلال ودوحة عنا

زبرجديه وثم شادوريم وبقايا راح ويوم دجن وقد دعاك النديم فأجب يا صاح

وتلطف من قال:

جعلت فداك قد حضر الطعام وضجت من تأخرك المدام

فإما جئتنا عجلا وإلا أخذنا فى اغتيابك والسلام

وقال شمس الدين الحكيم بن دانيال مداعبا:

فلأن الدين قد أبطأت عنا لأمر قل لنا ماذا الجفاء

وقلت اليوم بعد العصر تأتى وبعد العصر يأتينا الخراء

ابن كميل مداعبا:

بستانا زاه بهى لذاته الآن لن تفوتا

هل لك تأتى له سريعا تنظر وردا به وتوتا

وهو مأخوذ من كلام ابن الخطيب حيث قال:

أقول له إذا ابتعنا عصيرا وجاورنا المنازل والبيوتا

لعلك يا حبيب القلب تأتى وتأكل عندنا عنبا وتوتا

أخذه جامعه شمس الدين النواحى فقال بزيادة نكتتين:

بالله يا صاح قم وباكر بستان لهو حوى نعوتا

تشبع تخلا به وكرما مزبيا يانعا وتوتا

وله أيضًا:

هل لك فى روضة شذاها تهيم فيه الأيام عشقا
أبصرت بانا بها ووردا نعيش فى ظله ونبقا

الصاحب فخر الدين بن مكانس يستدعى سراج الدين الإسكندرانى ويداعبه:

يا ذا الذى فكره مثل اسمه يقد فغدت عنا وما من شأنك الفند
بم اعتذارك عن هذا الصدود لنا هذا وقد ضنا بالجيرة البلد
عافاك ربك من داء القطيعة بل شفاك من داء أمر كله نكد
فيم التوانى وشهر الصوم مقتبل عن خمرة ضوءها فى الكاس يتقد
وفتية مخلصين الود قد جبلوا على المحبة لا حقد ولا حسد
إن طاع وصفك فى تأديبهم طربوا أو جال ذكرك فيما بينهم سجدوا
إن لم تشرف بناديهم فما شرفوا أو لم تفرق لهم آدابهم كسدوا
إذا هجرت بنى الآداب فأبدلنا بم اعتذارك لا أهل ولا ولد
قد صرت توجشهم بعدا وإن قربوا وكنت تؤنسهم قربا وإ بعدوا
تركت عشرتهم لما رغبت إلى جاه طويل عريض زانه مدد
ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها فالناس بالاس والإخوان تنتقد
وبعد فاحضر وذنب البعد مغتفر وإن تطاول من هجرانك الأمد
أولا فعصبه فسق كلهم شبق سود غلاظ شداد ما لهم عدد
لهم أيور قيام طول دهرهم من حين إدراكهم بالحس ما رقدوا
كأنهم من حديد جمعوا زيرا يستوثبون فلا يقواهم الأسد

من كل هام تحك السحر هامته يهيج كالبحر إذ يبدو له زبد
مثقل مكفهر مغضب شرس فى ظهره جملونات بها عقد
مسكرج الرأس فى عرنينه شمم معشر الدور فى حلقومه غدد
تلك الأيور تراهم فى بكورهم كأنهم تحت فسطاط السما عمد
وكلهم طاعن بالإير أست فتى ألهاه عن صحبه أخلاقه الجدد
ومن رأى وقعتى هذى وليس يرى عقيبها حاضرا لم ينبه أحد
مولاى إن يمحب فاتخذ كلمى نصيحة فعليها الخل يعتمد
بادر لنا فبنوا الآداب كلهم من فجاج الأرض واحتشدوا
وأوعدوك فإن لم تأت نحوهم وكلهم منجز فى الحمال ما يعد
وأنت أدرى بقوم إن بلوا سلقوا بألسن ما لقتلى حربها قور
لا زلت ترقى على زهر النجوم علا ما هبت الريح أقواما وما رصدوا

وما أحسن قول الشيخ بدر الدين بن الوردى:

ووعدت أمس بأن تزور فلم تزر فغدوت مسلوب الفؤاد مشتتا
لى مهجة فى النازعات وعبرة فى المرسلات وفكرة فى هل أتى

وما ألطف اعتذار محيى الدين بن عبد الظاهر لمن استدعاه:

أنا فى منزلى وقد وهب الله لى صديقا وقينة وعقارا
فابسطوا العذر فى التأخر عنكم شغل الحلى أهله أن يعارا

وللظرفاء فى استدعاءات أحبابهم إشارات ألطف من النسيم وأرق من

سلاف الراح ممزوجة بماء التسنيم، منها أنهم يتهادون ويتراسلون بأنواع من الفواكه والرياحصين وغيرهما فيفهم ذلك أهل الذوق ويعبر بنفحاتها الزكية عن حال مهديها وما عنده من الصبابة والشوق ولكن لم أقف على ألطف مما اتفق لبعض الظرفاء أنه بعث إلى محبوبته بمروحة وباقة نرجس وسكر نبات وشرابة وعود ففهمت مراده وأرسلت له خيطا أحمر وقطعة من صبارة وثلاثة كمونات سود وزر غاسول ففهم مقصودها.

فأما مراده بالمروحة فنروح وبالزهر البستان وبالسكر النبات نبيت وبالشرابة نشرب وبالعود نسمع الغنا، ومقصودها بالخيط الأحمر أنها حائض وبالصبارة اصبر وبالثلاث كمونات السود ثلاث ليال وبالغاسول حتى أغتسل وبالزر أزورك.

وأظرف منه أن بعض القينات أهدت إلى الملك العزيز بن الملك لناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كرة من العنبر وكانا يكتمان أمرهما خوفا من السلطان فكسرها فإذا فيها ذر من ذهب فلم يفهم معناه فأرسل إلى القاضى الفاضل يسأله عنه فكتب إليه الجواب:

أهدت لك العنبر فى وسطه زر من التبر دقيق للحام

فالزر والعنبر معناهما زر هكذا مختفيا فى الظلام

* * *

الباب الحادى عشر

فى وصفها بجميع أنواعها وما وقع فيها من المعنى البليغ والتشبيه البليغ

قال الصاحب بن عباد:

رق الزجـــاج وراقت الخـــمـــر وتشـــابهـــا فـتـشـاكل الأمـر

فكـأنما خـــمـــر ولا قـــدح وكـــأنما قـــدح ولا خـــمـــر

وقال أبو عبادة البحترى:

وبهـا رياض كـالنسيم تنـفست فـى أوجـــــه الأدواح والأنـداء

وفـواقع مـثـل الجـوم تحـدرت فى صحن خد الكاعب الحسناء

تخفى الزجاجة لونها فكأنها فى الكف قـائمـة بغـيـر إناء

وفى معناه قول أبى الحسن بن جعفر بن عثمان:

خفيت على شرابها فكأنهم يجدون ربا من إناء فارغ

وقال الصورى:

رقـــت فـــكـــادت لا تـــرى فى كـاســـهـا إلا التـمـاسـا

لـولا الجنـان لخـــــالهـــــا شـرابـهـا فى الـكاس كـاسـا

وقال أمين الدين بن جوابات القومى:

ومن شهب الكاسات بـالنجم يهتدى إذا ضل سارى العقل فى لجة الفكر

نصـون الحـميـا فى الفـتـانى وإنما نصـون الفـتـانـى بالميا ومـا ندرى

وقال الناشى:

وصفت فأحدق نورها بزجاجها فكأنما جعلت إناء إنائها
وتكاد إن مزجت لرقة لونها تمتاز عند مزاجها من مائها

وقال الصورى فى خمر أبيض:

جابها بيضاء فى حلة من حلل الأقداح بيضاء
فقلت لما جد فى مزجها لا تمزجن الماء بالماء

وقال أبو عثمان الخالدى وقيل كشاجم:

هتف الديك بالدجا فاسقنيها خمرة تترك الحليم سفيها
لست أدرى من رقة وصفاء هى فى الكاس أم الكاس فيها

وما ألطف قول ابن المعتز فى هذا النوع:

معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل درما لمنظومها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر خلصه السبك
وأدرك منها الفائزون بقية من الروح فى جسم أضربه النهك
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك

وما ألطف قول أبى نواس:

وندمان سقين الراح صرفا وستر الليل نسدل السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دق فى ذهن لطيف

وقال منصور بن وكيع:

يدير من كفه مداما ألذ من غفلة الرقيب
كأنها إذ صفت وراقت شكوى محب إلى حبيب

وقال الماهر:

هو يوم حلو الشمائل فأجمع بكؤوس الشمول شمل السرور
من مدام أرق من نفس الصب وأصفى من دمعة المهجور
رق جلبابها فلم تر إلا روح قار يحل فى جسم نور

وقال شيخ الشيوخ الأنصارى:

هزم الهم عن ندمان راح حظيت من أسماعهم بوصول
لم تكد فى النفوس تظهر لطفا فبدت من خدودهم فى النحول

ودخل أبو الطيب المتنبى على على بن إبراهيم التنوخى وفى يده كأس خمر أسود فعرضه عليه فأنشد:

أغار من الزجاجة وهى تجرى على شفة الأمير أبى الحسين
كان بياضها والراح فيها بياض محدق بسواد عين

وقال السماك ونسبه صاحب رسالة الطيف إلى ابن أويس:

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا حتى إذا مليت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسوم تخف بالأرواح

وقال يحيى بن أسلم الصقلى:

قلت إن الخمر مخبئة قال حاشاها من الخبث
قلت منها القىء قال نعم شرفت عن مخرج الحدث

وقال الناجى:

قـــال هل أعـــددت شـــيـئًـــا للشـــتـــا قـــد جـــا بعنف
قـلـت ثـوبـا مـن مـــــــدام كـلمـــــا مـــــدت تـدفى

وقال البغدادى:

مـعتـقة قـد طال فى الدن حبسهـا فلم يدعـيها شـارب بنت عـامهـا
وقـد أشـبـهت نار الخليـل لأنهـا حكتـهـا لنـا فى بردها وسـلامـهـا

وقال أيضًا عفا الله عنه:

استقنيهـا كـالورد فى زمن الورد مـدامـــا وفى الليل ذات اتـقـاد
ثـم ضـــــــمخ إنـاءهـا بـزبـاد فلقـــد طاب شـــربهـــا بـالزبادى

وقال ابن الوردى:

وســـقى بـالكاس مـــتـــرعـــة كـــــضـــرام الـنار تـلتـــهب
ولـهـــــا من ذاتـهـــــا طـرب فـلهـــــذا يـرقص الحـــــبـب

وقال فضل الدولة:

صـبـــهـــا فى الكاس صـــرفـا غـلبـت ضـــــوء الســـــراج
ظـنـهـــــا فـى الـكـاس نـارا فـطـفـــــــــاهـا بـالمـزاج

وقال القاضى الفاضل:

تدور عـلـيـنا خـــجلـة إذا أدارها فمن عرق يبـدو الحباب لدى المزج
أتانى بهـا والصبح من تحت ذيلهـا كما سل سيف أو كـما ابتسم الزنجى
حـبيب كـأنى كـاسه مـن صبـابتى فـظاهـرهـا در يلـوح عـلى وهـج

وقال أبو نواس:

أزكى سراجا سواقى القوم يمزجها فصار من ضوئها فى البيت مصباح

كدنا على علمنا بالشك نسأله أراحنا نارنا أم نارنا الراح

وتلطف الصلاح الصفدى فى قوله:

جلبناها مشعشعة تلالا وثوب الليل فضفاض الذيول

فتحسبنا إذا الساقى جلاها نفتش بالسراج على العقول

وقال الصنوبرى:

وأمطر الكاس ماء من أبارقه فأنبت الدر فى أرض من الذهب

فسبح القوم لما أن رأوا عجبا نور من الما فى نار من العنب

وقال ابن النبيه:

اشرب ثلاثا يا ندمى واسقنى واطرب لعجمة نطقه وبيانى

كأسا إذا صافحتها أثرت يدى من فضة ملئت من العقيان

حمراء رصعها الحباب بجوهر كالزهر فى مرج من المرجان

والله لو عقل المجوس لكاسها جعلوه بيت عبادة النيران

وقال آخر:

يرى حيثما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت معربا

وقال أبو نواس:

لا ينزل الليل حيث حلت قد هز شرابها نهار

وروى عن أبى عمر والشيبانى قال دخلت على المأمون فقال من أشعر الناس فقلت اختلف الناس فى هذا فقيل امرئ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرب فقال دعنى من هذا من الذى يقول:

لا ينزل الليل حين حلت فدهر شرابها نهار

فقلت أبو نواس فقال من الذى يقول:

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى اسقم

فقلت أبو العلك قال من الذى يقول:

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل

فقلت أبو نواس يقول ذلك قال حسبك هذا هو أشعر الأولين والآخرين وقال ابن نباتة:

حبذا الليل وكاسات الطلا مشرقات كالليالى الزاهرة

يا له من جنح ليل قد بدت فيه ساعات نهار زائدة

وقال أبو نواس:

قامت ترينى وأمر الليل معتكر صبحا تولد بين الماء والعنب

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

قلت وهذا التشبيه البديع فى غاية الحسن وقد اعترض عليه فى قوله صغرى وكبرى بما هو معلوم عند من يرغب فى جداله ولا يحتمل هذا المجموع الخوض فى ذلك وأمثاله وقال سعيد الخالدى:

ومدامة حمراء فى قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء

فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطب والإناء سماء

وقال ابن الصائغ:

سقيا لأيامنا ما كان أطيبها وإن نسيت فما أنسى لياليا

حيث الكئوس على ادنمان دائرة مثل الكواكب والأبراج أيدينا

تبدو فتحرق شيطان الهموم وما زال الكواكب يحرقن الشياطينا

وقال ابن نباتة السعدى:

نعمت بمن يجلو على كؤوسه أغر الثنا يا واضح الجيد عبدر

فوالله ما أدرى أكانت مدامة من الكرم تجنى أم من الشمس تقصر

إذا صبها جنح الظلام وغبها رأيت رداء الليل يطوى وينشر

وقال عبد الملك التميمى:

قم إلى كيمياء شرب كرام لا ترى فيهم ندميا خسيسا

خذ بدور الكؤوس والق عليها من أكاسيرها تجدها شموس

وقال ابن الوكيل:

وليست الكيميا فى غيرها وجدت وكلما قيل فى أبوابها كذب

قيراط خمر على قنطار من كدر يعود فى الحال أفراحا وينقلب

وقال ابن المعتز:

قد أظلم الليل يا نديم فاقدح لنا النار بالمدام

كأننا والورى رقود نقابل الشمس بالظلام

وقال أبو نواس:

عتقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفم
لا جليت فى القوم قاتلة ... ثم قصت قصة الأمم
قرعتها بالمزج يد ... خلقت للسيف والقلم
مع ندامى سادة زهر ... أخذوا اللذات عن أمم
فتشمت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت إذ مزجت ... مثل فعل النار فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها ... كاهتداء السفن بالعلم

وقال حسين بن الضحاك:

الراح تفاح غدا ذائبا ... كذلك التفاح خمر جمد
فاشرب على جامد ذا ذوب ذا ... ولا تدع لذة يوم لغد

وقال السراج الوراق:

وصلت غبوقى بالصباح وإنما ... حياتى غبوق مسعد وصبوح
ونبهت ندمانى فلم يبعث الصبا ... بعود ولم ينطق عليه صدوح
كأنى سلبت الديك فى الكاس عينه ... فقام مروعا من كراه يصيح

وقال القيراطى وأجاد إلى الغاية:

قهوة فى الكاس منها ... ذوب تبر فى لجين
فإذا الديك رآها ... قال أفديك بعينى

وقال ابن النبيه:

الروح روحى فكيف أهجرها ... منظرها طيب ومخبرها

راح إذا ما الفقير صافحها ... أغناه ياقوتها وجوهرها

وقال نصر الدين الحمامى:

أصبحت من أغنى الورى ... وطائرا بالفرح

الخمر عندى ذهب ... أكتاله بالقدح

وقال ابن المعتز:

قم يا خليلى إلى اللذات والطرب ... لا صبر لى عن بنات الكرم والعنب

أما ترى اليل قد ولت عساكره ... مهزومة وجيوش الصبح فى الطلب

كأنما كاسنا من قشر لؤلؤة ... والماء من فضة والراح من ذهب

وله أيضًا:

وخمارة من بنات المجوس ... ترى الزق فى بيتها سائلا

وزنا لها ذهبا جامدا ... فكالت لنا ذهبا سايلا

وقال المهذب:

زودونى فإنى قد خلعت عذارا ... وجعلت سرى فى المجون جهارا

أفرغ كيسى فى الكؤوس واغتدى ... أبيع على شرب العقار عقارا

وقد عملت هذا المعنى ولكن زدته بديعا:

ومذ قيل إنى أديب أحب الطبا ... ق وأهوى بديع الجناس

شربت العقار وبعت العقار ... وفرغت كيسى فى ملئ كاسى

ويعجبنى قول بعضهم:

يا من يحاول شرب الراح مغتنما ... ولا يفك لما يلقاه قرطاسا

الكاس والكيس لا يقضى اجتماعهما ... ففرغ الكيس حتى تملأ الكاسا

وقال ابن نباتة:

سقيا لدهرى إذا غص الملام وإذ ... ألقى المدام بتكسير وتقليس

وأبذر التبر فى صفراء صافية ... كان فى الكاس ما قد كان فى الكاس

وقال أبو الفضل بن أبى الوفا رضى الله عنه:

يسعى إلى بكاسات قد استبقت ... لمهجتى من فمى تسعى على الروس

وللكؤوس ابتسام حال قهقهة ... وللغيوم بكاء حال تعبيس

قد استحال طلا تبرى المصون وقد ... أذبت فى الكاس ما جمدت فى الكيس

وقال ابن نباتة:

كان لى مال وكيس ... قبل تهيامى وسكرى

فسبكت المال طاسا ... وصبغت الكيس خمرى

وقال ابن تميم:

لو كنت شاهدنا وقد جليت لنا ... فى كاسها لما انتشا الندماء

لرأيت أحسن ما يرى بزجاجة ... سال النضار بها وقام الماء

وقال غيره:

قم واسقنى بنت العنب ... مدامة لها حبب

كأنما باذلها ... مد شريطا من ذهب

وقال ابن حجة:

خلت كأس الراح لما أن بدا حبب من فوقه قد كلله
معصم قد خضبته غادة ومن الدر عليه سلسله

وقال جامعه مضمنا مع زيادة التورية واللف والنشر:

نزه لحاظك فى عذراء قد جليت وزانها من حباب الدر إكليل
وانظر إلى الكاس فوق الثغر مبتسما كأنه منهل بالراح معلول

وقال الخالدى:

وكأن كاس لما ضحكت تحت الحباب
وجنة حمراء لاحت لك من دون النقاب

وقال السرى الرفا:

وكان كاس مدامها لما ارتدى بحبابها
توريد خديها إذا ما لاح تحت نقابها

وقال أبو بكر الخالدى:

فأدر لذاذة عيشنا بمدامة زادت على هرم الزمان شبابا
سفرت فعاد حبابها من لحظنا فعلى محاسنها وصار نقابا

وقال الحمامى:

صب فى الكاس عقيقا فجرى وطفى الدر عليه فسبح
نصب الساقى على حافاتها شبك الفضة فاصطاد الفرح

وقال ابن حجة:

أرى طيـــر أفـراحنـا سـانحـا ... يحـوم على ورد عـذب القـدح

فـقلت لدر الحـبـاب اجـتـهـد ... ومـد الشبـاك وصـد من سـبح

وقال صدر الدين بن عتوم:

قم نقـتـرح بـكر المدامـة بكرة ... فى روضـة حـسنت وراقت منظرا

فـالـراح سـيف قـاطع لهـمـومنا ... أو مـا تراه بالحـبـاب مـجـوهر

وقال الحلى:

أعـجـب شـىء رأته عـيـنى ... مـا بين عـود وخـفق مـاء

زحـف سـرور لجـيش هـم ... وقـتـل حـمـرا بسـيف مـاء

وقال آخر:

جـمـرات همك فـارمـهـا بمدامـة ... وادى العـقـيق بلونهـا مـوصـوف

فـالعـود زمـزم والمقـام صـفـا لنا ... والكاس يسـعى والحـبـاب يطوف

وقال أبو نواس:

ومشـمولة فى الكاس تحـسب أنها ... سـماه عـقـيق رصـعت بالكواكب

بنت كعـبة اللذات فى حرم الصـفا ... فـحج إليـها اللهـو من كل جـانب

وقال الشريف على بن عقيل:

قم فـانحـر الراح يـوم النحـر بالماء ... ولا تصلى ضـحى إلا بصـهـبـاء

أدرك حجـيج الندامى قبل نـفرهم ... إلى منى وصـفـهم مع كل هيـفـاء

وعج على مكـة الدوحـاء مـبـتكرا ... وطف بهـا بين كـن العـود والناء

وألطف منه قول بعضهم فى الساقى:

قد زمزم الساقى الذى لم يزل ... يدير للأحباب كاس المدام

وقد فهمناه وهمنا به ... بأحسن ما زمزم وسط المقام

ويعجبنى قول غيره:

إذا العشرون من شعبان ولت ... فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار ... فإن الوقت ضاق على الصغار

وقال جامعه:

ليالى الوصل يا صاح استقلت ... وأيام العبادة قد أطلت

فلا تشرب بأقداح صغار ... فإن النفس قد سئمت وملت

ألم تسمع بما قد قيل قدما ... إذ العشرون من شعبان ولت

وقال ابن حجاج:

ويحكم يا كهول ويا شيوخ العشـ ... ـق أو يا معشر الفتيان

اشربوها حمراء مما اقتناها ... أهل دين الفسوق والعصيان

بكؤوس كأنها ورق النسـ ... ـرين فيها شقايق النعمان

اشربوها وكل إثم عليكم ... إن شربتم بالرطل فى ميزانى

فى ليال لو أنها دفعتنى ... وسط ظهرى وقعت فى رمضان

وقال ابن قلاقس:

هاتيك شمس الراح يسطع نورها ... من بين سحب أبارق وقنانى

وهلال شوال يقول مصدقا ... بيدى غصبت النون من رمضان

وقال ابن زيدون:

قالوا غدا رمضان فاستعد له ... وتب إلى الله واهجر لذة الكاس
إن الهلال يرى حتما فقلت لهم ... حتمتموا بشتات بين جلاس
فقال لى الغيم لا تحفل بقولهم ... على سترته فاشرب بلا باس
فقمت أعثر فى ذيل المجون إلى ... جمع المسرة بين الطاس والكاس

وتلطف إبراهيم المعمار بقوله:

قالوا هلال الصوم ليس يرى ... قلت لهم فارتضوا بقول ثقة
فباطلونى وحققوا فرأوا ... وكل هذا من قوة الحدقة

وقال مؤيد الدين الطغرائى:

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ... ونبهوا العود وصفوا المدام
هذا هلال الفطر قد جاءنا ... بمنجل يحصد شهر الصيام

وقال الأديب النابلسى:

هلال شوال ما زالت مطالعه ... ترنو إليها الورى من شدة الفرح
كإصبعى كف ندمان تشير إلى ... سق لطيف يريد الأخذ للقدح

وقال أبو الحسن الجزار:

إن هلال الفطر لما غدا ... مستحسنا فى أعين الناس
وددت أن ألثمه عندما ... راح يحاكى شفة الكاس

وقال أبو الحسن القيراطى ضمنى أنا ويحيى الكاتب مجلس أنس فتذاكرنا ما قيل فى معاقرة الشراب فى المشيب فأنشدنى لنفسه:

لاموا على شرب الصبا والكاس لما بدا زهر المشيب برأسى
والكاس أحوج ما يكون لشربه أيام يبدو بالأزاهر كأسى

وقال هل سمعت فى هذا المعنى شيئًا لغيرى فقلت لا ثم أعملت خاطرى فظفرت بمعنى غريب وهو قول القائل:

يلومننى إن شئت فى الخمر خلة وإنى إذا وافى المشيب بها أحق
إذا شا رأس الليل بالفجر قربت له أكؤس الصهباء فى حمرة الشفق

وتلطف الصفدى بقوله:

أدير بلحيتى البيضاء كاسى بكيس زائد منى وفطنة
ألم ترنى وعفو الله راج ومن شر هى أصفيها بقطنة

وقال أبو نواس:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

نادرة: يحكى أن أبا نواس مر يوما على مكتب فسمع صبيا يقول لمعلمه يا سيدى أتدرى ما أراد أبو نواس بقوله:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر

وما الفائدة فى ذلك فقال له لا فقال الصغير أراد أن تكمل له لذة الحواس الخمس فإنه إذا شربها حصلت له حاسة البصر واللمس والشم والذوق وذلك مستفاد من قوله ألا فاسقنى خمرا وتعطلت حاسة السمع فلما قال وقل لى هى الخمر شنف سمعه بوصفها فملت له الحواس الخمس فقال أبو نواس للصبى والله لقد أفهمتنى من شعرى ما لم أقصده ولهذا قال الصفى الحلى من قصيدة له:

صفها إذا جليت بأحسن وصفها كى نشرك الأسماع فى لذاتها

وصرح القيراطي بها فى بيت واحد من قصيدة وهو:

فشممتها ورأيتها ولمستها وشربتها وسمعت حسن صفاتها

وقال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

قم هات صرفا وممزوجا طلاك فقد جلت معانيه بل دقت بدائعه

مدامة من يعاطينى يدا بيد فيها فإنى على هذا أبايعه

فالمس وذق وارء واسمع واتشق أبدا تجد دواك فقد عمت منافعه

ونظير حكاية أبى نواس مع هذا الصغير ما اتفق أن صبيًا فى المكتب قال لأبى العلاء المعرى ألست القائل:

وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

قال بلى. قال الصغير فإن الأوائل قد أتوا بحروف هجائية ثمانية وعشرين حرفا أو تسعة وعشرين حرفا كل حرف لابد للكلام منه ويختل الكلام بدونه، فهل يمكنك أن تزيد فيها حرفا يحتاج الكلام إليه كاحتياجه إلى بقية الحروف ولا ينتظم الكلام إلا به ويختل الكلام بزواله فتكون قد أتيت بما لم تأت به الأوائل فسكت أبو العلاء وسأل عن والده فقالوا لهوالده فلان، فقال قولوا لأبيه يحتفظ به فعن قليل يموت فما كان إلا أيام حتى توفى الصغير إلى رحمة الله تعالى فقال أبو العلاء قتله ذكاؤه وقال أبو بكر الثقفى:

عاطيته والليل يسحب ذيله صهباء كالمسك العبيق لناشق

وضممته ضم الكمى لسيفه وذوابتاه جمائ فى عاتقى

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته عنى وكان معانقى

باعدته عن أضلع تشتاقه كيلا ينام على وساد خافق

ويعجبنى قول بعضهم:

أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة إلى كل نفس

وقال أبو نواس:

عتقت فى الدنان حتى استفادت نور شمس الضحى وبرد الظلال

ولعمر المدام إن قلت فيها إن فيها لموضعا للمقال

وقال الأديب بن حيدرة:

ومستهام بشرب الراح باكرها عذراء فى جيدها طوق من الذهب

فغادرته صريعا لا انقياد له كأنما أخذت بالنار للعنب

واستأثرت عقله حينا كما أسرت فى دنها حقبا من غير ما سبب

وقال أبو تمام الطائى:

راح إذا ما الراح كن مطيها كانت مطايا الشوق للأحشاء

صفيت وراضى المزج سىء خلقها فتعلمت من حسن خلق الماء

عذراء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء

وضعيفة فإذا أصابت فرصة فتكت كذلك قدرة الضعفاء

وقال آخر:

ما زال يشربها وتشرب عقله صرفا وتؤذن روحه بواح

حتى انتهى متوسدا ليمينه تملا وأسلم روحه للراح

وقال ابن نباتة وهو مطلع قصيدة:

أهوى بمرشفه إلى وقال ها ... ويلاه من رشأ أطاع وقالها

وأمالت الكاسات معطف قده ... بقصاص ما قد كان قبل أمالها

وقال الصفى الحلى من أبيات:

أمست تحاول منا ثار والدها ... ودوسه تحت أقدام المعاصيرى

فحين لم يبق عقل غير معتقل ... من العقار وذنب غير مغفور

أجلت فى الصحب ألحاظى فكم نظرت ... ليثا تعفره ألحاظ يعفور

وقال ابن نباتة من قصيدة

ويصبح الشرب صرعى دون مجلسها ... وهى الحياة كأن الشرب أموات

تذكرت عند قوم دوس أرجلها ... فاسترجعت من رؤوس القوم ثارات

وقال الأخطل:

شربنا فمتنا موتة جاهلية ... خلا أننا فى موتنا ليس نلحد

ثلاثة أيام فلما تنبهت ... حشاشة أرواح لدينا تردد

حيينا حياة لم تكن من قيامة ... علينا ولا حشر أتى فيه موعد

وقال ابن نباتة:

يا غائبين تعللنا لغيبتهم ... بطيب عيش لا والله لم يطب

ذكرت والكاس فى كفى ليالكم ... فالكاس فى روحة والقلب فى تعب

وقال تقى الدين بن حجة:

فى حب كاسى لا منى ... من ليس يدرى حالتى

فقل دعنى إننى ... وجدت فيها راحتى

وأحسن منه قول بعضهم:

أحسن الأشعار عندى ... أنف بالخمر الخمارا

وألذ آلائى عندى ... وترى الناس سكارى

وألطف منه قول بعضهم:

كأننى ثمل مر النسيم ضحى ... عنه بأقداحه من بعد ميثاق

فكل شىء رآه ظنه قدحا ... وكل شخص رآه ظنه الساقى

وقال غيره:

شيئان لم يبلغهما واصف ... فيما مضى بالنظم والنثر

مدح ابنة العنقود فى كاسها ... وذم أفعال بنى الدهر

وقال الخطيب البغدادى:

للخمر والورد حق لست أجحده ... يدريهما كل صب داؤه داءى

فالخمر من طيب ريق الحب قد سرقت ... والورد أضحى يحاكى خد مولاءى

وقال المعوج الشامى:

يعاطيك كأسا غير ملأى كأنها ... إذا مزجت أحداق درع مور

كأن أعاليها بياض سوالف ... تلوح على توريد خد مورد

وقال ابن وكيع:

حملت كفه إلى شفتيه ... كأسه والظلام مرخى الإزار

فالتقى لؤلؤ الحباب وثغر ... وعقيقان من فم وعقار

وقال غيره:

اسقنى خمرة كرقة عقلى ... أو كدينى ولا أقول كحالى

حذرا أن يقول شخص لئيم ... قال هذا معرضا لسؤالى

وقال خليل بن الفرس:

خليلى ابسطا لى الأنس إنى ... فقير مت فى حب الغوانى

وإن تجدوا مداما أو قيانا ... خذانى للمدامة والقيانى

وقال شيخنا قاضى القضاة ابن حجر:

لقد تعطشنا فرد جوابنا ... تروى وهذا الوقت وقت الرواء

وإن ناءى لساقى فنوحوا معى ... شوقا فإنى لا أطيق النواء

وقال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

أطيل الملام لمن لامنى ... وأملأ فى الروض كأس الطلا

وأهوى الملاهى وطيب الملاذ ... وها أنا منهمك فى الملا

وقال القاضى أبو الفضل:

لها منن تصفو على الشرب أربع ... وواحدة لولا سماحتها تكفى

سرور إلى قلبى وتبر إلى يدى ... ونور إلى عينى وعطر إلى أنفى

ولما رأينا ياسمين حبابها ... مددنا يمين القطف قبل فم الرشف

وقال الحاجبى:

يا صاح عللنى بكاس مدامة ... عن ذكره إن المحب يعلل

صهباء إن جن الفتى بخمارها ... فيها الشفاء وفى شذاها المندل

وقال صلاح الدين الصفدى:

أدرها سلافا ما ألمت بمنزل ... وما نزلت إلا لتسعد طالعه

وما اجتمعت والهم يوما لأنها ... بكاساتها صفراء للهم فاقعه

وله أيضًا:

قم هاتها فى الظلام صافية ... تورث جسمى وقبضى بسطة

أضحت عليها الأفراح دائرة ... يا صدق من قال إنها نقطة

وقال ابن تميم:

صفراء لو لاحت لشمس الضحى ... من قبل أن تطلع لم تطلع

أحسن ما فى وصفها أنها ... لم تجتمع واللهم فى موضع

وقال ابن المعتز:

أما ترى الدهر لا تفنى عجائبه ... والدهر يمزج معسورا بميسور

وليس للهم إلا شرب صافية ... كأنها دمعة من عين مهجور

وله أيضًا:

شربنا بالصغير وبالكبير ... ولم نحفل بأحداث الدهور

وقد ركضت بنا خيل الملاهى ... وقد طرنا بأجنحة السرور

وله أيضًا:

طاب شرب الراح مضطجعا ... لا تدع من كفك القدحا

إنما عمر الفتى فرح ... فاغتنم من عمرك الفرحا

وله أيضًا:

لو لم يكن فى شربها فرج ... إلا التخلص من بدى الهم

وإذا علمت بأنها فرج ... وتركتها لم تخل من ذم

وله أيضًا:

إذا كان يومى ليس يوم مدامة ... ولا يوم فتيان فما هو من عمرى

وإن كان معمورا بعود وقهوة ... فذلك مسروق لعمرى من الدهر

وقال يزيد بن معاوية:

إذا ما طفى فيها الحباب حسبتها ... كواكب در فى سماء عقيق

تدب دبيب البرء فى كل مفصل ... وتكسو وجوه الشرب ثوب شقيق

هما ما هما لم يبق شىء سواهما ... حديث صديق أو عتيق رحيق

وإنى من اللذات دهرى لقانع ... يجلو حديث أو بمر عتيق

وقال شمس الدين الواعظ:

وما الدهر إلا صورة دمها الطلا ... فتحرم إذ شرب الدماء محرم

وما زالت الأيام حتى أتت بها ... عتيقا فناديت العتيق المقدم

وقال ابن الرومى:

وأحل العاقى النبيذ وشربه ... وقال حرامان المدامة والسكر

وقال الحجازى الشرابان واحد ... فحلت لنا بين اختلافهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما ... حلالا بلا إثم وللوازر الوزر

وأخذه ابن مطروح فقال:

وقد جعلوا قول العراقى حجة ولم يرجعوا فيها إلى مذهب المكى

والعراق هو أبو حنيفة والمكى هو الشافعى رحمهما الله تعالى وما ألطف قول بعضهم:

من ذا يحرم ماء المزن خالصة فى جوف حاثية ماء العناقيد

إنى لأكره تشديد الرواة لها فيها ويعجبنى قول ابن مسعود

وسيأتى قول يزيد بن معاوية وهو:

فإن حرمت يوما على دين أحمد فخذها على دين المسيح ابن مريم

وقال أبو نواس:

إنما العيش سماع وغلام ومدام

فإذا فاتك هذا فعلى العيش بسلام

وقال ابن وكيع:

لا تقبلن من الرشيد كلامه وإذا دعاك أخو الغواية فاسمع

ودع التزهد والتجمل للورى فالعيش ليس يطيب للمتورع

وقال صفى الدين الحلى:

وليلة زارنى فقيه فى رشده ليس بالفقيه

رآى بيمناى كاس خمر فظل ناءى ويتقيه

فقلت هلا فقال كلا فقلت لم لا فقال إيه

ما ذاك فنى فقلت إنى أنزه الكاس عن سفيه

وقال ابن شراعة:

لا خير فى العيش فاسمع قول ذى نصح ... إذ أنت لم تغد سكرانا ولم ترح
من خمرة كشعاع الشمس صافية ... تنفى الهموم بأقداح من الفرح
ما زلت أشربها والليل معتكر ... حتى أكب الكرى رأسى على قدحى

وقال ابن المعتز:

خل الزمان إذا تقاعس أو جمح ... واشك الهموم إلى المدامة والقدح
واحفظ فؤادك إن شربت ثلاثة ... حذرا عليه بأن يطير من الفرح
هذا دواء للهموم مجرب ... فاسمع مقالة ناصح لك قد نصح
ودع الزمان فكم رقيق صالح ... قد رام إصلاح الزمان فما صلح

وقال كمال الدين بن النبيه:

قم يا غلام ودع مقالة من نصح ... فالديك قد صدع الدجا لما صدح
خفيت تباشير الصباح فشاقنى ... ما ضل فى الظلماء من قدح القدح
صهباء ما لمعت بكف مديرها ... لمقطب إلا تهلل انشرح
هى صفوة الكرم الكريم فما سرت ... بسرورها فى باخل إلا سمح
من كف فتان القوام بوجهه ... عذرا لمن خلع العذار أو افتضح

وقال ابن المعتز:

خليلى اتركا قول النصوح ... وقوما وامزجا راحا بروح
فقد نشر الصباح رداء نور ... وهبت بالصبا أنفاس ريح

وحـــان ركـــوع إبـريق لـكاس ونادى الديك حى عـلى الصبـوح
وحن الـنـاى مـن طرب وشـــوق إلى وتـر يجـــاوبه فـــصـــيح
هل الـدنيـــا ســـوى هـذا وهذا وســـاق لا يخـــالـفنا مليح

ويعجبنى قول القائل:

أدام الله أيـام الصـــــبـــــوح وأبقى نـغـمـة الـوتر الفـصـيح
ولا بـرحـت بـات الـكـرم تجـلـى مكـرمـــة عـلى وجـــه مليح
فـخـذها واسـقـنيـهـا مع ندامى أعـــز علـى من قـلبى وروحى
أزيد بقـــربهـا فـرحـا وأنسـا علـى رغم المفند والنصـــوح

وقال ابن نباتة:

وتيـــاه ســـمـــحت له بـروحى يرى أن الـســـمـــاح من الـرياح
حـمـر وجـهـه الكاسـات زهوا ويضحك فى الـرياض على الأقاح
وكـاسـات أشـد يدى عليـهـا مـخـافـة أن تطيـر من المزاح
ومـذ نادى الـنديم بهـا صـبـاحـا علـمنا أنه داعـى الســـمـــاح
بكف من رقى الأصـداغ تهـوى لقـــبلتـــه الوجـوه من الملاح
عـشـوت لـكاســه لا للثـريا ونســر الليل خـفـاق الجناح
كـأنى قـد سلبت الديك عـينا فـثـار من المنام إلى الـصـيـاح
كـأنى قـد حـملت على همـوم بهـــا رايات لـهـــو وانشـــراح
إذا أبصـــرت جـدا من زمـانى فـخـالـطه بشىء من مـزاح

وألطف منه قول بعضهم:

معـــاطات الكؤوس مع الملاح ... بمطرب مقـــهـــقـــهـــة وراح
ومن أهوى ينادمنى بأحلى ... رضـــــاب منه ممزوجـــــا براح
وســـاق من بنى الأتراك حلو الـ ... ـشـمـايل أهيف قلق الوشـاح
يدير مـدامـة صفـراء صرفـا ... لهـا أرج الخـزامـة والأقـاح
مـشـعـشـعـة تكاد من القنانى ... تطيـــر بما حـــوته من المزاح
فقم نتتاهب اللطات سعيا ... بقصف واغتباق واصطباح

وقال ابن مقبل المخزومى:

خليلى اعلم بأن العمر فان ... فلا نصغى إلى واش ولاح

وقال الأمير حسام الدين بن منقذ:

خل اغتنم فرص المدامة دائمًا ... ما دمت تلقى العيش غير منكد
نار إذا ســـرنا بليل لم تلح ... فيه نضل وإن تبدت نهتدى
حمراء فى الوجنات إلا أنها ... فى كاسها تبدو كلون العسجد
ما كدت أدركها لرقة جسمها ... لولا أشعة نورها المتوقد
إنى أشح بدرهم متصدقا ... وأجرد فى قدح بما ملكت يدى
فانهض إلى داعى الصبوح مباكرا ... وأسرع وخالف قول كل مفند
فالمرء أهنى ما تصرم عمره ... بالراح ما بين الحسان الخرد
من كل مائة القوام إذا انثت ... أزرت بغصن البانة المتأود
هيفاء إن جادت تبدت أو شدت ... أغنت بطيب غنائها عن معبد
لا تحفلن بعد وما يأتى به ... فالله أعلم ما ينوبك فى غد

وقال عفيف الدين التلمسانى:

باكـر إلى داعى الصبـوح صـباحـا ... واجـعل زمـانك كـله أفـراحـا
واجل التى تجلى همـومك فى الدجـا ... حـتى ترى إظـامـه لصـبـاحـا
يا طالـب الراحـات ليس يـنالهـا ... إلا الذى فى الـراح يجلو الـراحـا
أو مـغـرم أعطى الصـبابـة حقـهـا ... تدعـوه صـبـوته إلـيـه كـفـاحـا
نشـوان من طرب الصـبـا فكأنه ... غـصـن يميل به الصـبـا مـرتـاحـا
أو مـا ترى عـجم الحـمـائم لحنهـا ... قد راح يفصح فى الهـوى إفصاحا
والروض من حلل الجـداول مشـبه ... حللاتجـرد فـوقـهن صـفـاحـا
والريح بالأنفـاس تقـصـد أنفـسـا ... مـوتى فـتـبـعث فـيـهم الأرواحـا
فـإذا تحاكى فـى البروق وشـيـمهـا ... لاح وخلت الـكاس برقـا لاحـا
فاخفض جناحك للمدير وغض عن ... لا تجـد من حـالتـيك فـلاحـا
لو لم يكن فى السكـر إلا فرقـة الـ ... ـسلاحى وحـسبك قـهوة ومـلاحا
فاجعل مكان الصـحو سكرا واجتلى ... من خـمـرك الأقـداح والأفـراحـا
أنا مـذ تجـرت إلى المدام مـجـربا ... فـوجـدت كل تجـارتى أرباحـا
ورأيتنى غـنيت من طرب الهـوى ... وأخـو الـتسلى بالـتشكى بـاحـا
وغدوت نشـوان المعاطف أمـلأ الـ ... ـأكـوان من طرب الوصـال نواحـا

وقال أبو نواس:

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حزن مسته سراء

من كف ذات حرفى زى ذى ذكر ... لها محبان لوطى وزناء

قامت بإبريقها والليل معتكر ... فلا من ضوئها فى البيت لألاء

وأرسلت من فم الإبريق صافية ... كأنما أخذها للعقل إغفاء

رقت عن الماء حتى لا يلائمها ... لطافة وخفى عن شكلها الماء

فلو مزجت بها نور المازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء

دارت على فتية ذل الزمان لهم ... فلا تصيبهم إلا بما شاءوا

فقل لمن يدعى سحرا وفلسفة ... حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء

وما أحلى قول الصدر بن الوكيل:

واصل كؤوسك لا أريد فراقها ... فلقد رأت عينى المدام فراقها

إن الذى جعل الهموم عقاربا ... جعل السلاف حقيقة درياقها

لم يصلب الراووق إلا عندما ... قطع الطريق على الهموم وعاقها

ومعنف فى الخمر لو قد ذاقها ... ما لامنى لكنه ما ذاقها

قال اطرح الصفراء يطفى جمرها ... نار القلوب إذا اشتكت إحراقها

أعطت على صرف الزمان بصرفها ... عهدا فأكد مزجها ميثاقها

فأجبته ذقها وخذ من بعد ذا ... فى طرق عذلك إن أردت فراقها

وله عفا الله عنه:

ما فى الوجود سوى المدامة يطلب ... فعلى م قلبك حيرة يتقلب
راح براحات القلوب تكفلت ... فعلى م تفكر فى الهموم وتتعب
راح هى الدرياق إن لسعتك من ... أنكاد دنياك الدنية عقرب
تصرفها صرف الهموم ومحوها ... باب صحيح فى القياس مجرب
وإذا شيطاين الهموم تمردت ... فمن الحباب لكل هم كوكب
أزكون فى عهد الصبابة ناشئًا ... وتمائمى من فوق صدرى تلعب
وأزيغ عنها بعد شيب مفارقى ... لا أم لى إن كان ذاك ولا أب

ويعجبنى قول من قال:

ليذهبوا فى ملامى أية ذهبوا ... فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
والمال أجمل وجه فيه تصرفه ... وجه مليح وراح فى الدجا لهب
لا تأسفن على مال تمزقه ... أيدى سقاة الطلا والخرد العرب
فما كسوا راحتى من راحها حللا ... إلا وعروا فؤادى الحزن واستلبوا
من كل مشتمل حلو شمايله ... يسقيك مشمولة من دونها الطرب
إن فاتنى الذهب المصكوك وانقرضت ... عقود در عليها عذلى عتبوا
فالخمر تبر ترينى الدر من حبب ... ترد ما فاتنى وانقاد لى الطرب
راح بها راحتى فى راحتى حصلت ... فتم عجبى بها انقاد لى العجب
إذ يتبع الدر من حلو مذاقتها ... والتبر منسبك فى الكاس منسكب

فالخمر بحر سرورى والحباب به ... در طفى ولآلى البحر قد رسبوا

وما ترى غيرها نارا يمازجها ... ماء وأنوارها تقوى وتلتهب

ولا جحيم نعيم غيرها أبدا ... دع عنك ما قيل فى الحمام قد كذبوا

وليست الكيميا فى غيرها وجدت ... وكلما قيل فى أبوابها كذب

قيراط خمر على قنطار من حزن ... يعود فى الحال أفراحا وينقلب

عناصر أربع فى الكاس قد جمعت ... وفوقها الفلك السيار والشهب

ماء ونار هواء أرضها قدح ... وطوقها فلك والأنجم الحبب

صفراء فاقعة فى الكاس صافية ... كالتبر لامعة كاساتها سحب

راووق خمر الثريا عند مطلعها ... وعند مغربها عنقودها العنب

لو لم تكن من نجوم الأفق قد عصرت ... ما اطلعت أنجما فى الثغر قد غربوا

مزجتها شفقا بالصبح فانبجست ... أنوار نور نهار فى الدجا سلبوا

ما الكاس عندى بأطراف الأنامل بل ... بالخمس تقبض لا يخلو لها الهرب

شججت بالماء منها الرأس موضحة ... فحين أعقلها بالخمس لا عجب

وما تركت بها الخمس التى وجبت ... وإن رأوا تركها من بعض ما يجب

وكيف أتركها والكاس ما تركت ... هما بقلبى وأحيت ميتا ندبوا

وأن أقطب وجهى حين تبسم لى ... فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

عاطيتها من بنات الترك عاطية ... لحاظها الأسود الغاب قد غلبوا

هيفاء جارية للراح ساقية ... من فوق ساقية تجرى وتنسكب

والنهر سيف يد الآصال تذهبه ... إلى معصم ذات الحال مختصب

ما لم تقلبه الأغصان ثم أتى ... وفد النسيم فمالت حوله القضب

من مائة مزجت لى الكاس غانية ... كالبدران أسفرت فالشمس تحتجب

من وجهه وتثنيها وناظرها ... تخشى الأهلة والغزلان والقضب

يا قلب أردافها مهما مررت بها ... قف بى عليها وقل لى هذه الكثب

وإن أقمت بثغر فوق قامتها ... بالله قل لى كيف البان والعذب

تريك وجنتها ما فى زجاجتها ... لكن مذاقته للريق تنتسب

تحكى الثنايا التى أبدته من حبب ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

وقال بعضهم:

يا مشتكى الهم والأحزان والنوب ... أنف الهموم بأم اللهو والطرب

فقد يباكرنى الساقى فأشربها ... راح ريح من الأحزان والكرب

وأمطر الكاس ماء من أبارقه ... فأنبت الدر فى أرض من الذهب

فسبح القوم لما أن رأوا عجبا ... نور م الماء فى أرض من اللهب

لله ليلة زار الحب مختفيا ... لولا الخمار لظنوه من الشهب

يا ليلة من شتات الدهر فزت بها ... فليت مفرقها بالصبح لم يشب

كم للملاح علينا والمدام به ... تستغرق السكر منها آخر الحقب

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة:

عوض بكاسك ما أتلفت من نشب ... فالكاس من فضة والراح من ذهب

واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسبت ... أخت المسرة واللهو ابنة العنب

عذراء تنجز ميعاد السرور فما ... تومى إليك بكف غير مختضب

مصونة تجعل الأسرار ظاهرة ... وجنة تتلقى العين باللهب

خفت فلو لم تدرها كف حاملها ... دارت بلا حامل فى مجلس الطرب

يا حبذا الراح للأفواه سائرة ... تقضى بسعد سراها أنجب الحبب

من كف أغيد يروى عن شمايله ... عن خده المجتلى من ثغره الشنب

علقته من بنى الأتراك مقتربا ... من خاطرى وهو منى غير مقترب

حمالة الحلى والديباج قامته ... تبت غصون الربا حمالة الحطب

إن كان جسمى أباذر به سقما ... فإن قلبى كخديه أبو اللهب

يا تالى العذل كتبا فى لواحظه ... السيف أصدق إنباء من الكتب

وقال صفى الدين الحلى والتزم حرف الباء أول كل بيت وآخره:

بدت لنا الراح فى تاج من الحبب ... فمزقت حلة الشمآن باللهب

بكر إذا زوجت بالماء أولدها ... أطفال در على مهد من الذهب

بعيدة العهد بالعصار لو نطقت ... لحدثتنا بما فى سالف الحقب

باكرتها فى رفاق قد زهدت بهم ... قبل السلاف سلاف العلم والأدب

بكل شيخ أتى بالفضل منتشرا ... كأنى فى لفظه ضربا من الضرب

بل رب ليل عـذار فى الأهاب غدت تفيض فيه كـؤوس الراح كالشهب
بذلت عـقلـى صـداقـا حين بت به أزوج ابن سـحـاب بابنة الـعنب
بتنا بـكاسـاتهـا جـرعى ومـطربنا يعـيـد أرواحنا مـن مـبـدأ الطرب
بعث أتـانا فلم نـعلم لفـرحـتـنا من نفخة الصـور أم من نفخة العنب

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى:

إن أنشـبت فيـك الهمـوم مـخالبـا فاخـفض برفع الكاس هما ناصـبا
مـا قطبـت منهـا الـندامى ليـلة إلا وباتـوا بالمسـرة قـاطبـا
كـالعين مـا أدرى أهل راووقـهـا فى الحـال أمسى سـاكبـا أو سالبا
كـالتبـر يفـرغ فى لجين دجـاجـة فـتـعـيـد جـامـدها نضـارا ذائبـا
كـالنـار إن هـم تمـر دليـلـة أتبـعـتـه منهـا شـهـابـا ثاقـبـا
أمـعطل الكاسـات عن عـشـاقـهـا يكفـيك بالـتـعطيل عـيـبـا عـائبـا
ذهب كـؤوسك بـالمدام فـقـد أرى للناس فـيـمـا يعـشـقـون مـذاهبـا
وأذن إلى الراح المبـيح بشـربهـا لنرى بهـا المكروه فـرضـا اجـبـا
فمـتى سلكت من الهموم مـسالكا صـادقت مـن فـتح الجنان مطـالبـا
ومتى استطبت من الكؤوس كميتها أمـسيت تمشـى فى المسـرة راكـبـا
ومـتى طرقت عـشى أنـس ديرها لم تـلق إلا راغـبـا أو راهبـا
وإذا نظرت نظرت شخصا حاضرا لعبت به الصـخبـا وعـقـلا غائبـا
سكرا فلـو حـدثتـه عن بـعض مـا فـعل المدام بـه لظـنك كـاذبا
يا حـبـذا رشف الحبـاب فـإن بدى نظر الحـبـيب إلـيـه كـان مـعـاتبـا

وما ألطف قول بعضهم:

ورب راهـب ديـر زرتـه ولـه ... فى حندس الليل بالناقوس أصوات

طرقتـه ومـعى شـرب تـخـالطهم ... بـدور تم لهـا بـالأفق هـالات

قلت اسـقنا بنت كرم قـد أضربهـا ... من سالـف الدهر أعوام وسـاعات

فـقـام يخـطر فى ذيل المجـون له ... شـمـايل لم تزل عنهـا المسـرات

وجاء يسـعى بها راحـا مشـعشـعة ... لهـا تراح النـفـوس الأرحـبـيـات

ظبى من الـروم مـا زالت تطـالعنى ... لشـقـوتى مـن مـحـيـاه خـيـالات

مـزنر الخـصـر تبـدوا من لواحظه ... إلى الورى نـفـحـات بابـليـات

يدير من يـده حـمـرا ومن فـمـه ... شـهـدا به لنـفـوس القـوم لذات

فظل صـحـبى على خـيـر وبت به ... ثم اثطبـحنا فظلوا مـثـل مـا باتوا

وقال تاج الدين بن عبد المنعم الدمشقى رحمه الله تعالى:

مـضت لنا بالحـمـا والبـان أوقـات ... صفـت لنا وصفت فـيها المـسرات

أيام تخـتال فى ثوب الصـبا فـرحا ... وللصـبـا وزمـان اللهـو لذات

وللأمـانى إشـارات تريحـنى ... يا حـبـذا حـبـذا تلك الإشـارات

أحـبـابنا هل لأوقـات لنـا سلفت ... بقـربكم والتـئـام الشـمل عـودات

وهل نعـود كـمـا كنا ويجـمـعنا ... دار وتقـضى لنا مـنكم لبـانات

بنتـم فـلا البـان مـيـال يرنحـه ... مر النسيم ولا الروضات روضات

وكم قـطعنـا لويلات بـقـربكم ... طـابت فـلـله هـاتيـك الـلويـلات

ورب دير طرقنا بابه سحرا ... وللنواقيس فى أعلاه أصوات

فى فتية كالنجوم الزهر أوجههم ... منيرة أشرقت منها لدجنات

فقال راهبه من ذا فقلت له ... قوم أتوك لهم فى الدير حاجات

فقام يسعى إلى إكرامنا عجلا ... وقال بشرى لكم عندى المسرات

هبوا فما العيش إلا أن يطوف على الـ ... ـندمان فى الدير كاسات وطاسات

هذى المدام التى كانت معتقة ... من قبل ما سمت الأرض السموات

صلوا لها فلقد صلت لها أمم ... أضحوا عكوفا عليها مثل ما باتوا

فيا عذولى إلى كم ذا تلوم على ... شرب المدام وما تجد الملامات

بادر إلى اللهو وللذات واغتنم الـ ... ـأوقات إن صفاء الدهر ساعات

واشرب على وجه من تهوى معتقة ... بنورها تتدى الزهر المنيرات

راح تريك من الأفراح سلطنة ... لها من الهم والأحزان غارات

كأنها الشمس نورا والمدير لها ... بدر الدجنة والأقداح هالات

صفت فقلت صلاح الدين شاربها ... أخلاقه فصفت منها الزجاجات

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

قضى وما قضيت منكم لبانات ... متيم عبثت فيه الصبابات

ما فاض من جفنه يوم الرحيل دم ... إلا وفى قلبه منكم جراحات

أحبابنا كل عضو فى محبتكم ... كليم وجد فهل للوصل ميقات

غبتم فغابت مسرات القلوب فلا ... أنتم بقلبى ولا تلك المسرات

يا حبذا فى الصبا منكم حديث جوى ... وفى بروق الفضا منكم إشارات

وحبذا زمن اللهو الذى انقرضت ... أوقاته الغر والأعوام ساعات

أيام ما شعر البين المشيب بنا ... ولا خلت من معانى الأنس آيات

حيث الشباب قضيناه بمنتزه ... ولى على ثغر من أهوى ولايات

حيث المنازل روضات مدبجة ... وحيث جاراتها غيد وقينات

وحيث أسعى لأوطار الصبا مرحا ... ولى على حكم أيامى ولايات

ورب حانة خمار طرقت وما ... حانت ولا طرقت للعضو حانات

سبقت قاصد معناها وكنت فتى ... إلى المدام له بالسبق عادات

أعشو إلى ديرها الأقصى وقد لمعت ... تحت الدجا وكأن الدير مشكات

وأكشف الحجب عنها وهى صافية ... لم يبق فى دنها إلا صبابات

راح زحفت على جيش الهموم بها ... حتى كأن سنا الأكواب رايات

وبت أجلو على الندمان رونقها ... حتى لقد أصبحوا من بعد ما باتوا

تحول بين أوانيها أشعتها ... كأنما هى فى الكاسات كاسات

ويصبح الشرب صرعى حول مجلسها ... وهى الحياة كان الشرب أموات

تذكرت عند قوم دوس أرجلهم ... فاسترجعت من رؤوس القوم ثارات

واستضحكت فلها فى كل ناحية ... هبات حسن وفى الآفاق هبات

كأنها فى أكف الطائفين بها ... نار يطوف بها فى الأرض جنات

من كل أغيد فى ديناره وجنته ... توزعت فى قلوب الناس حبات

مبلبل الصدغ طوع الوصل منعطف ... كان أصدافه للعطف واوات
ترنحت وهى فى كفيه من طرب ... حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
وقمت أشرب من فيه وخمرته ... شربا تشن به فى العقل غارات
وينزل اللثم خديه فينشدها ... هى المنازل لى فيها علامات
سقيها لتلك الليلات التى سلفت ... فإنما العمر هاتك الليلات

وقال أبو تمام الطائى:

ظبى من الترك من هندى ناظره ... فى كل جارحة منا جراحات
رشاقة الرمح من أعطافه وله ... بأسهم اللحظ فى العشاق رشقات
أبدى التباله لما أن أصاب بها ... قلبى ولبله فى الدنيا إصابات
أفدى من الترك أقمارا يحيط بها ... من الجواسيس فى الأسماط هالات
وإن أغاب بدور التم كان لها ... من الأسود إذا صالوا إغرات
من كل فاتكة فينالوا حظه ... سود وللبيض فى يمناه فتكات
صفا فأبصرت وجهى فى محاسنه ... والمرء للمرء فيما قيل مرآت
وطال إعراضه عنى فقلت له ... ما فيك يا ظبى للعبد لتفاتات
أشكوا لى ردفه المرتج لو سمعت ... شكوى الغريق من الأرداف موجات
وذا عذر له فى خده زرد ... منه فلله لام وهى لامات
سبا العذارى به لما بداه فلم ... تبتل الأرض منهن الذوابات
ومذ بدا عقرب الأصداغ ما جسرت ... تبدوا لنا منه على الوجنات حيات

إن خفت أجفان عينيه وكسرتها ... لها على أخذها الأرواح نصات

عجبت من خمر فيه مع حلاوته ... إن كرر اللفظ فى شىء مرارات

ففى البروق إشارات لمبسمه ... وفى عبير الصفا عنه عبارات

أشتاق شامات مسكى بمبسمه ... حباتها لنفوس الناس أقوات

يا حسنها حسنات لم تزل أبدا ... تمحى بها من تجنبه أسات

مخبأ تحت أصداغ معقربة ... وفى الزوايا كما قالوا خبيات

أسائل الصدغ عما قد تفرط فى ... عنقوده تحت صحن الخد حبات

فى صفحة الخد نصبات مصرحة ... وللمدامع فيها ماء جريات

وله أيضًا عفى الله عنه:

تشوقنى ألفات الروض مائلة ... من النسيم سكارى وهى دالات

ولى من الورق فى أوراقها طرب ... كأنما هى بالعينات قينات

إذا النهايات دارت من سلافتها ... على ذوى الهم يوما بالهنا باتوا

وللرياض أزاهير مزررة ... وللحباب ثياب سدسيات

روض تمسكت فيه بالصبا وله ... من الصبا نفحات عنتريات

ما قارنت فيه أقمارى شموس طلا ... إلا قضت بالمنا تلك القرانات

وقال برهان الدين القيراطى عفا الله عنه:

أفدى ليالى أنس قد ظفرت بها ... من الزمان وللأيام غفلات

لياليا نسخت ما كان فى زمنى ... كأنها فى حواشى الدهر غلطات

ما قارنت فيه أقمار شموس طلا ... إلا قضت بالمنا تلك القرانات

يطوف بالشمس فيما بيننا قمر ... نيران خديه للعشاق جنات

جلا الحميا عروسا فى الكؤوس لها ... من الحباب عقود لؤلؤيات

طابت فإن تاه عنها ذهن شاربها ... هداه من نشرها المسكى نفحات

صهباء جيا بها فى الدير راهبها ... قوما لهم فى ارتشاف الراح رغبات

إذا الأباريق دارت من سلافتها ... على ذوى الهم يوما بالهنا باتوا

ولله در صفى الدين الحلى فى قوله:

خذ فرصة اللذات قبل فواتها ... وإذا دعتك إلى المدام فواتها

وإذ ذكرت التأبين عن الطلا ... لا تنس حسرتهم على أوقاتها

يدنون بالألحاظ شذرا كلما ... صبغت أشعتها أكف سقاتها

كأس كساها النور لما أن بدا ... مصباح جرم الكاس من مشكاتها

صفها إذا جليت بأحسن وصفها ... كى تشرك الأسماع فى لذاتها

لولا التذاذ السامعين بذكرها ... لغنيت عن أسمائها بسماتها

وإذا سمعت بأن شخصا مظهر ... عنها النفار فتلك من آياتها

ذنب إذ عدوا الذنوب رأيته ... من حسنه كالخال فى وجناتها

راح حكت ثغر الحبيب وخده ... بحبابها وصفائها وصفاتها

فكأنما فى الكاس قابل صفوها ... ثغر الحبيب فلاح من مرآتها

فلئن نهى عنها المشيب فطالما ... نشأت لى الأفراح من نشآتها

وتبرجت لى فى الزجاجة بكرها ... بين الرياض فكنت بعض زناتها

وقال برهان الدين القيراطى رحمه الله تعالى:

قسما بروضة خده ونباتها ... وبآسها المخضر فى جناتها

وبسودة الحسن التى فى خده ... كتب العذار بخطه آياتها

وبقامة كالغصن إلا أننى ... لم أجن غير الصد من ثمراتها

لا عززن غصون بان زودت ... أعطافه بالقطع من عذباتها

وأباكرن رياض وجنته التى ... ما زهرة الدنيا سوى زهراتها

ولأصبحن للذتى متيقظًا ... ما دامت الأيام فى غفلاتها

كم ليلة نادمت بدر سمائها ... والشمس تشرق فى أكف سقاتها

والبدر يستر بالغمام وينجلى ... كتنفس الحسناء فى مرآتها

وجرت تنادمه الليالى للصبا ... وكؤوسها غرر على جبهاتها

فصرفت دينارى على دينارها ... وقضيت أعوامى على ساعاتها

خالفت فى الصهبا كل مفند ... وسعيت مجتهدا إلى جاناتها

فتحير الخمار أين دنانها ... حتى اعتدى بالطيب من نفحاتها

فشممتها ورأيتها ولمستها ... وشربتها وسمعت حسن صفاتها

وتبعت كل مطاوع لا يختشى ... عند ارتكاب ذنوبه تبعاتها

يأتى إلى اللذات من أبوابها ... ويحج للصهباء من ميقاتها

عرف المدام بحسنها وبنوعها ... وبفضلها وصفاتها وذواتها

يا صاح قد نطق الهزار مؤذنا ... أيليق بالأوتار طول سكاتها

فخذ ارتفاع الشمس من كاساتها ... وأقم صلاة اللهو فى أوقاتها

إن كان عندك يا شراب بقية ... مما تزيل به العقول فهاتها

فالخمر من أسمائها والدر من ... تيجانها والمسك من نفحاتها

وإذا العقود من الحباب تنظمت ... إياك والتفريط فى حباتها

أمحرك الأوتار إن نفوسنا ... سكناتها وقف على حركاتها

دار العذار بحسن وجهك منشدا ... لا تخرج الأقمار عن هالاتها

كسرات قلبك كلمت قلبى فلم ... تأ الصحاح لنا بمثل لغاتها

جرح الجفون فحمر الوجنات والشـ ... ـامات من دمها ومن حباتها

كم ليلة صارت نهارا عند ما ... أطلعت شمس الراح من مشكاتها

وتلى نسيم الروض فيها ناطقا ... فأمال من أعطافها ألفاتها

ومليحة أرغمت فيها عاذلى ... فأتت إلى وصلى برغم وشاتها

لا مال وجهى عن مطالع حسنها ... وحبات طلعة وجهها وحياتها

ما الغصن مياسا سوى أعطافها ... ما الورد محمرا سوى وجناتها

وغدت بأوقات الوصال كأنها ... ضمت سلامتنا إلى أوقاتها

ومن محاسن كمال الدين بن النبيه قوله:

طاب الصبوح لنا فهاك وهات ... واشب هنيئًا يا أخا اللذات

كم ذا التوانى والشباب مطاوع ... والدهر سمح والحبيب مواتى

قم وأصبح من شمس كاسك واعتبق ... بكواكب طلعت من الكاسات

صفراء صافية توقد بردها ... فعجبت للنيران فى الجنات

ينسل من قار الظروف حبابها ... والدر مجتلب من الظلمات

وتريك خيط الصبح مفتولا إذا ... مرقت من الراووق فى الطاسات

عذراء واقعها المزاج أما ترى ... منديل عذرتها بكف سقات

يسعى بها عبل الروادف أهيف ... خنث الشمائل شاطر الحركات

يهوى فتسبقه ذوائب شعره ... ملتفة كأساور الحبات

تدرى منازل نيران كويسته ... ما بين شرقى وغربيات

ومن بديع مقاله عفا الله عنه:

باكر صبوحك أهنى العيش أكره ... فقد ترنم فوق الأيام طائره

والليل تجرى الدرارى فى مجرته ... كالروض يطفو على نهر أزاهره

وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلق تملأ الدنيا بشائره

فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب ... تنوب عن ثغر من تهوى جواهره

حمراء فى وجنة الساقى لها شبه ... فهل جناها مع العنقود عاصره

ساق تكون من صبح ومن غسق ... فابيض خداه واسودت عذائره

بيض سوالفه لعس مراشفه ... نعس نواظره خرس أساوره

مفلج الشعر معسول اللما غنج ... مؤنث الجفن فحل اللحظ شاطره

مهفهف القد يبدى وجهه ظرفا ... مخصر الخصر عبل الردف وافره

تعلمت بانة الوادى شمائله ... وزورت سحر عينيه جازره

كـأنـه بسـواد السـحـر مكتـحل ... وركـبت فـوق خـديـه مـحـاجـره
نبـى حـسـن أظـلتـه ذوائـبـه ... وقـام فى فطرة الأجـفـان ناظره
فلو رأت مـقلتـا هـاروت آيه الكـ ... ـبرى لآمن بعـد الكفر ساحره
قـامت أدلة صـدغـيـة لعـاشـقـه ... على عـذول أتى فـيـه بنـاظره
يا جـامـعـا للعطايا شـمل عـزته ... كـالقلب لولاه مـا صـحت دوائره
خذ من زمـانك ما أعطـاك مغتنـما ... وأنت نـاه بهـذا الـدهر آمـره
فالعـمر كـالكاس تستـحلى أوائله ... لكـنه ربـمـا مـسـجت أواخـره
وأجسر على فرص اللذات محتقرا ... عظـيم ذنـبك إن الله غـافـره

ومن المعانى البديعة قول الصاحب فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس:

خليـلى هيـا لـلصـبـوح وبكرا ... وحـثـا مطايا عـزمـة تحـمـد السـرا
ولا تركـبـا الليل البـهـيم بل اركبـا ... مـدام كـميت أمم الـصبح أسـفـرا
وصيدا بنات الكرم من جوف دنها ... فـإن أوانى راحـهـا عندى الفـرا
مـعـتقـة أفنت قـرونا وأصـبـحت ... تذكـرنا الضـحـاك والإسـكندرا
إذا ما أديـرت فى الحشـا عسجـدية ... لهـا كل ذى تاج وقـصـر قـصـورا
فحسـبك حظا فى السعادة أن ترى ... نديمك فى الكاسات كسـرى وقيصرا
مدام حوت حـسن السرور وأفرطت ... فـمنهـا سـرا فـيـهـا السـرور وأثرا
لذاك غـدت تزهو بثـوب مـخلق ... وجللهـا ثـوب السـرور مـزعـفـرا
وقـابس منهـا نا أنس عـج بهـا ... ولا يك منهـا حظ سـعـدك لن ترا

إذا درجتها الريح تحت حبابها تخال بها فى الكاس سيفا مجوهرا
وبرهانه زيح الهموم ألم يكن على جانبيه ذلك الدم أحمرا
هى الخمر بوحا باسمها واتركا الكنا على مذهب الشرع النواسى واجهرا
وحجا إلى الكاس العتيق بعرفة وطوفا به لكى على انشرب تؤجرا

ومن لطائف جلال الدين عبد الرحمن ابن خطيب داريا قوله:

هات اسقنى الصهباء يا مؤنسى على بساط الورد والنرجس
فالوقت قد راق ورق الهوى وجاد بالوصل الزمان المسى
والروض قدوا فابأزهاره تتيه فى زاه من الملبس
كأنما الأشجار غيد وقد لبسن أثوابا من الأطلس
كأنما شحرورها راهب يردد الإنجيل فى برنس
كأنما عصفورها عاشق صب بأثواب الضنى قد كسى
كأنما الخبلات نار زكت لكن بغير الطرف لم تقبس
كأن غصن البان قد الذى أهواه فى ثوب من السندس
كأن بدر التم تحت الدجى جبينه الباهر فى حندس
فعاطينها غير ممزوجة عذراء تجلى من صدا الأنفس
وإن يكن لابد من مزجها فمن رضاب الشادن الألعس
واملأ وناولنى إلى أن ترى طلق لسانى اد كالأخرس
ولا تكن منى بذا قانعا حتى ترانى ضحكة المجلس

واغـد عـن من لام فى شـربـهـا ... فـمـا درى مـا لـذة الأكـؤس
لو عـلم المسكين مـقـدارها ... مـا راح فى حـاناتهـا مكتسى
مـالى أجـر الذيل من فـرحـتى ... ومـشـيـتى كـالخـائف المبلس
وطيـلسـانـى حين أغـدو به ... كـأننى فى دير مارينوس أو جرجس
وكـمـى المسـبـول مما به ... من كـتب غـالـبـهـا قـد نسى
حـرام على النحـو حـتى مـتى ... أدرسـه يـا ليـت لـم أدرس
هـذا هو الـعـيش ومـن لى بـه ... فى ديـر مـار إلـيـاس لم أدرس
رهبـان دير طـيب أخـلاقـهم ... أصـفى من الـراح لمسـتـأنس
أكـثـر ألفـاظـهم أشـرب فـلا ... تسـمع لقـول أقـرأ ولا درس
مـالـى وللفـقـه وأصـحـابه ... يا نـفس منهـم آن أن تيـأسـى
يا ويح عـقلى مـا الذى قلتـه ... فـضـول إثم أو بـنى فـقـعـسى
وفى سـبـيل الله عـمـرى مـضى ... فـى نجـس المـاء ولـم يـنـجس
قم يا نـديمى واسـقـنيـهـا فـلا ... تلام إن حـبـيت ذا المجلس
وإن يكن قـد نجـسـوا عـينهـا ... فـعـاطـينهـا ويك واسـتنجس
وقـل لمـن راح مـن جـهـلـه ... من رحـمـة الله بهـا مـؤنسى
إن الـذى أنشـأنـى فـضـلـه ... من شـأنه البـر إلى من يـسى

وما ألطف قوله:

أدر الكؤوس واسقنيها قرقفا ... فالهم داء والمدام له شفا

جد أيها الساقى بملاء كؤوسها ... واحذر بأن تضع الإناء منصفا

فالدهر صاف والحبيب مواصل ... والعيش عندى بالأحبة قد صفا

والعذر فى ترك التستر واضح ... طاب التهتك لى وقد برح الخفا

والأرض قدمت وأهدت فوقها ... طرفا من الزهر البديع مطرفا

والروض يبدى زهره متبسما ... فكأنه ببكا الغمام قد اشتفا

قم فاسقنى كاساتها متداركا ... رمقى فقلبى بالهموم على شفا

من كف فتاك اللواحظ مارنا ... إلا وأضنى عاشقيه وأتلفا

يبدو بها فتخاله شمس الضحى ... قد صاحبت بدرا وغصنا أهيفا

وقال محمد بن العفيف عفا الله عنه:

سهر العيون يلذ للمشتاق ... والسقم خير ملابس العشاق

فاختر سهادك فى الهوى عوض الكرى ... واختر فناءك فى جمال الباقى

وصل المدامة والنديم ومنزل الـ ... ـحانات واخضع ساجدا للساقى

واسكن جنان الخلد بالنار التى ... لم ترم غير الهم بالإحراق

صهباء ترمق من جفون حبابها ... من غير ما هدب ولا آماق

يسعى بها لدن القوام مهفهف ... كالغصن ماس مرونق الأوراق

أحداقه ملئت من الأقداح أم ... أقداحه ملئت من الأحداق

ومن مخترعات القاضى محيى الدين عبد الظاهر قوله:

خمرة للشقيق أمست شقيقه ... بنت كرم بالمكرمات خليقة

قال قوم من لطفها هى فى الكا ... س مجاز والكاس فيها حقيقة

كيف تبدو عتيقة لدنان ... وهى فى قبضة الندامى رقيقة

أنتجت فرحة وجاءت بكاس ... صبغت حمرة فنعم العقيقة

هى مخلوقة من الماء فاعجب ... كيف نار من مزنة مخلوقة

كم تبدت بها معانى سرور ... بسوى الماء لم تكن مطروقة

سلبتنا من العقول وقالت ... يتولى الحباب كتب الوثيقة

حملت همها فشكرا وحمدا ... لعجوز كانت علينا شفوقة

كم بكت بالدموع فى الكاس صبا ... وأنشأت جيوشها مسبوقة

أترانى أعصى الهوى أنا فيها ... ثم أخشى مما يقول الخليقة

وقال سيدى محمد بن وفا قدس الله روحه:

قدحان شرب سلاف الراح فاستبق ... راح تريحك من فوق ومن أرق

فراحة خفية بالراح ما برحت ... تريك صبح الهدى فى حندس الغسق

خذها بيمناك فى أمن وفى دعة ... مع كل مصطبح فيها ومفتبق

ختامها المسك بالتسنيم قد مزجت ... طوبى لمرتشف منها ومنتشق

راقت ورقت فأرقت شان شاربها ... إلى العلا عن حضيض الحظ والحمق

قد فاق من لم يفق من سكرها نفسا ... نفسا خلت عنه فى خلق وفى خلق

حبابها الحى عين الجمع مبتسما ... شمس يدورها شمس بلا شفق

عـاينتـه والهـوى لم يبق لى رمـقـا فـعـاد لى عند مـا عـاينتـه رمـقى
يقـول من عـاينـت عـيناه صـورته سبحـان من خلق الإنسان من علق

وقال جمال الدين بن مطروح غفر الله له:

وشـرب أراقـوا بينهم دم كـرمـة فبـاتت عليها عـين راووقهم تبكى
وبـاتـت أبـاريـق المـدام لـديـهـم يقـهـقـهـا فـرط المسـرة والضـحك
وقـد جـعلوا قول الـعراقى حـجـة ولم يرجعوا فيها إلى مذهب المكى
وغناهـمـا وأسـاق أغن فـزادهم سـرورا بشعـر رائق حسن السـبك
تلاعب فـيـهم بالكلام تـلاعـبـا كما تفعل الأمـواج فى البحر بالفلك
فـقم ننـهب اللذات قـبل فـواتهـا ودعنى من قول ابن حجـر قفا نبك

وقال يزيد بن معاوية:

وشـمسـة كـرم برجهـا قـعر دنهـا فمـطلعهـا الساقى ومـغربها فـمى
مـدام كـثيـر فى إناء كـفـضـة وسـاق كـبـدر مع ندامى كـأنجم
إذا أفـرغت من دنهـا فى زجـاجـة حكت نـفـرا بـين الحطيم وزمـزم
تشـيـر إليـهـا بالبنان كـأنما نشـير إلى البـيت العـتيق المحـرم
لهـا حـبب فـوق الـكؤوس كلؤلؤ كنـقـشـة دينار علـى دور درهم
فمـا برحت حتى استرقت عـقولنا وحـتى بقـينا بين صـرعى ونوم
فإن حـرمت يوما على دين أحـمد فـدرها على دين المسيح ابن مـريم

وقال آخر:

أقول لصحب ضمت الكاس شملهم ... وداعى صبابات الهوى يترنم

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكل وإن طال المدا بتصرم

ولا تتركوا يوم السرور إلى غد ... فرب غد يأتى بما ليس يعلم

فقد كادت الدنيا تقول لأهلها ... خذوا لذة لو أنها تتكلم

ألا إن أهنأ العيش ما سمحت به ... صروف الليالى والحوادث نوم

وسيارة ضلوا عن الركب بعدما ... تداركهم جنح من الليل مظلم

أناخوا على قوم ونحن عصابة ... وفينا أناس سكرهم يتوهم

أصاب لهم شهم من الشرب قهوة ... وكان بنادينا ضيا النار يضرم

إذا ما شربناها أناخوا مطيهم ... وإن جليت حثوا الركاب ويمموا

وقال أبو نواس:

وخمار تحن عليه ليلا ... قلائص قد تعين على السفار

فترجم والكرى فى مقلتيه ... كمخمور شكى ألم الخمار

أين لى كيف سرت إلى نديمى ... وجفن الليل مكتحل بقار

فقلت له ترفق بى فإنى ... رأيت الصبح فى خلل الديار

فكان جوابه أن قال كلا ... وهل صبح سوى درر العقار

فقام إلى الدنان وسد فاها ... فعاد الليل مستدل الأزار

وقال ابن صاحب تكريت عفا الله عنه:

أرخ لراح غدت في الكاس تبتسم ... وأغنم سلافاتها فالراح تغتنم

وعاطني واعط للكاسات راحتها ... في غاية أنت فيها الخصم والحكم

قالوا هي النار قلت الماء يلهبها ... والنار ليست مع الأموات تلتئم

فقيل روح بلا جسم فقلت لهم ... أني تقطب أحيانا وتبتسم

فقيل بل جوهر فرد فقلت لهم ... الجوهر الفرد شيء ليس ينقسم

ماء سماء هواء شهبها حبب ... نور ونور ونار حين تضطرم

مدامة قرقف راح معتقة ... سلف سلاف عروس ريقها شيم

عذراء بكر عجوز تاجها حبب ... شمطاء يجلو سنا لألائها الظلم

حمراء طالعة صفاء فاقعة ... بيضاء ساطعة تدنوا لها الأمم

أقداحها ذهب مصباحها لهب ... في حانها طرب أفراحها شيم

تحى بها أمم ينشا بها كرم ... تجلى بها ظلم يبرى بها سقم

في سخطها نقم في بسطها نعم ... ما شأنها قدم بل زانها قدم

قد هام طالبها قد سام خاطبها ... لو رام كاتبها وصفها أبى القلم

بكر إذا جليت زفت بماشطة ... من الزجاجة في أطرافها نعم

تسبى فتحمر عند السبى من خجل ... وتكتسى الحبب الصافى وتبتسم

وتكتسى حمرة خوفا إذا مزجت ... بالماء والبكر عند الوطئ تحتشم

تخال أن حباب الكاس أجنحة ... للنمل فوق عيون النحل تزدحم

ظنت سليمانها الساقى فمذ مزجت قرأ الحباب ادخلوا لا يحطمنكم

ما ألبست زردا يوما طلائعها إلا ولت جيوش الهم تنهزم

ما زلت أنفق أموالى وأشربها حتى استغاث لدى الكرم والكرم

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله روحه:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

لها البدر كاس وهى شمس يديرها هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصورها الوهم

ولم يبق منها الدهر غير حشاشة كأن خفاها فى صدور النهى كتم

فأين ذكرت فى الحى أصبح أهله نشاوى ولا عار عليهم ولا إثم

ومن بين أحشاء الدنان تصاعدت ولم يبق منها فى الحقيقة إلا اسم

وإن خطرت يوما على خاطر أمره أقامت به الأفراح وارتحل الهم

ولو نظر الندمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختم

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

ولو طرحوا فى ظل حائط كرمها عليلا وقد أشفى لفارقه السقم

ولو قربوا من حانها مقعدا مشا وينطق من ذكرى ذاقتها البكم

ولو عبقت فى الشرق أنفاس طيبها وفى الغرب مزكوم لعادله الشم

ولو خضبت من كاسها كف لامس لما ضل فى ليل فى يده النجم

ولو جليت يوما على أكمه غدا بصيرا ومن راووقها تسمع الصم

ولو أن ركبا يموا ترب أرضها ... وفى الركب ملسوع لما ضره السم

ولو رسم الراقى حروف اسمها على ... جبين مصاب جن أبرأه الرسم

وفوق لواه الجيش لو رقم اسمها ... لأسكر من تحت اللوا ذلك الرقم

تهذب أخلاق الندامى فيتهدى ... بها لسبيل العزم من عزم

ويكرم من لم يعرف الجود كفه ... ويحلم عند الغيظ من لإله حلم

ولو نال قدم القوم لثم قدامها ... لا كسبه معنى شامئلها اللثم

يقولون لى صفها فأنت بوصفها ... خبير أجل عندى بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار وروح ولا جسم

أقامت بها الأشياء ثم بحكمة ... بها احتجبت عن كل من لإله فهم

وهانت بها روحى بحيث تمازحا ... اتحاد أولا جرم يخلله جرم

فخمر ولا كرم وآدم لى أب ... وكرم ولا خمر ولى أمها أم

وقد وقع التفريق والكل واحد ... فأرواحنا خمر وأشباحنا كرم

ولطف الأوانى فى الحقيقة تابع ... للطف المعانى والمعانى بها تسموا

فلا قبلها قبل ولا بعد بعدها ... وقبلية الأبعاد فهى لها ختم

وحص المدا من قبله كان عصرها ... وعهد أبينا بعدها ولها اليتم

تقدم كل الكائنات حديثها ... قديم ولا شكل هناك ولا رسم

محاسن تهدى المادحين لوصفها ... فيحسن فيها منهم النثر والنظم

ويطرب من لم يدرها عند ذكرها ... كمشتاق نعم كلما ذكرت نعم

وقـالوا شـربت الإثم كـلا وإنما ... شربت التى فى تركـها عندى الإثم
هنيـئًا لأهل الدير كم سكروا بهـا ... ومـا شـربـوا منهـا ولكنهـم همـوا
فـعندى منهـا نـشـوة قـبل نشـأتى ... مـعى أبدا تبـقى وإن بلى الـعظم
عليك بها صرفا وإن شـئت مزجها ... فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم
ودونكهـا فى ألحان واستجلهـا به ... على نغـم الألحـان فـهى بهـا غنم
فـمـا سكت والهم يومـا بموضع ... كـذلك لم يسـكن مع النغـم الغم
وفى سكرة منهـا ولو عـمـر ساعـة ... ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم
فلا عيش فى الدنيا لمن عـاش صاحيا ... ومن لم يمت سكرا بهـا فاته الحـزم
على نفسـه فليبك من ضاع عـمره ... وليس له فـيـهـا نصيب ولا سـهم

وقال ابن المعتز:

وحـمراء قـبل المزج صـفراء بعـده ... أتت بين ثـوبى نرجس وشـقـائق
حكت وجنة المعشوق صـرفا فسلطوا ... عليهـا مزاجا فاكتـسـت لون عاشق
فقم واغتنم واشـرب على كل روضة ... وفى كل بـسـتـان وبين الحـدائق
فـمـا العمـر إلا صـحـة وشـبيبـة ... وكـاس وقرب من حـبيب مـوافق
ومن عـرف الأيام لم يـغـتـرر بهـا ... وبادر بـاللذات قـبل الـعـوائق

وقال تميم بن معبد:

إذا وجـدت زمـانا لم تسـر به ... فكم أتى سـهل أمـر بعد مـصـعبه
فاقـبل من الدهر ما أعطاك ممتـزجا ... لعـل مـرك يحلـو من تقـلبـه

خذها إليك ودع لومى مشعشعة ... من كف أقنى أسيل الخد مذهبه

من كل مقعد حسن فيه معترض ... عليه يحميه من أن يستبد به

فكحل عينيه محروس بخنجره ... وورد خديه محمى بعقر به

لا تترك القدح الملآن فى يده ... إنى أخاف عليه من تلهبه

وصنه عن سقينا إنى أغار له ... وأسقنى واسقه من فضل مشربه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

من عذيرى من الطلا والأغانى ... وليالى مرت على حلوان

ذهبت بالذى جمعت من الما ... ل كأنى سبكته فى القنانى

ونديم يسعى بكاسه سعى الـ ... ـقمر التم حوله الغرقدان

بين مزج وبين صرف كما ... يجمع بين اللحين والعقبان

فهما فى أواخر الليل فجرا ... ن وفى أولياته شفقان

أهيف قسمت لواحظه السو ... د زكاة الغنا على الغزلان

يتثنى وحيلة يتغنى ... هل سمعت الحمام فى الأغصان

وغوان أثرت بتبر خدود ... ولهذا تسمى الحسان غوانى

ضاربات الدفوف فى جيش لهو ... طاعنات الهموم بالعيدان

يا نديمى فى المدام دنا ... لكما فى الدمامة العاذلان

خلقا البيت بالكؤوس سرور ... واشرباها صفراء كالزعفران

واسقيانى إن تشكيت داء ... فاسقيانى إن شئتما تشفيانى

وإذا ما قتلت بالكاس سكرا ... فادفنانى فى بعض تلك الدنان

وانضحا من دمى عليه فقد كا ... ن دمى من نداه لو تعلمان

وقال سيدى أبو الفضل بن وفا رحمه الله:

آن الصواب لتعجيل السرو فقم فإن تأخير أوقات الهنا غلط

ما بالنا كحروف عطلت أبدا فما لنا من شراب يشتهى فقط

فلا ترى أبدا سكران ذا حزن ولا رأينا صحاة يفرحون قط

يعبس الجو إذ يبكى السحاب له ويبسم الكاس لما تضحك البطط

وقال الشيخ شهاب الدين العزارى موشحا:

يا ليلة الوصل وكاس العقار دون استتار علمانى كيف خلع العذار

اغتنم اللذات قبل الذهاب

وجرأ ذيال الصبا والشباب

واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

على خدود تنبت الجلنار ذات احمرار طرزها الحسن ياس العذار

الراح لا شك حياة النفوس

فخل عنها عاطلات الكؤوس

وافتضها بين الندامى عروس

تجلى على خطابها فى إزار من النضار حبابها قام مقام التتار

واجن من الوصل ثمار المنى

وواصل الكاس بما أمكان

مع طيب الريقة حلو الجنا

ذى مقلة أفتك من ذى الفقار ذات أجورار منصورة الأجفان بالانكسار

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

إلى بكاسك الأشها ليا ولا تبخل بعسجده عليا

معتقة تدار على النداما

كأن على ترائبها نظاما

من الراح التى محت الظلاما

أضاءت وهى صاعدة الحميا فقلت عصير عنقود الثريا

أدرها بين ألحان وزمر

وخذ بغياك من خمر وزهر

كأن حديثه فى كل قطر

حديث ندى المؤيد فى يديا يطيب رواية ويضوع ريا

وغانية تجن بها الجنان

يضيى إذا تبسمت المكان

خلوت بها وقد سمح الزمان

فألقيت الحيا عن منكبيها وغافلت الرقيب وقلت هيا

* * *

الباب الثانى عشر
فى وصف الساقى وآدابه

اعلم أن غـالب هـذا البـاب مـبنى على باب النـديم وأدبه وربما انفـرد بوصف واخـتص به بأن يكون بديع الجـمال زائدا فى الظرف والدلال يفـوق ببديع محاسنه الأتراب ويدهش بلطف شمائله عقول أولى الألباب تثب حبات القلوب إليه من شدة الأشواق وتسـير إليه الجوارح باللثم والعناق الورد يقطف أمن وجناته والظبى ينفـر من لحظاته إن نطق فـبأفـصح عبـارة وألطف مقـال وتلاطف كـان أعـذب من ليـالى الوصال أو تـهادى كـان أطيب من شـرب الشمول وألطف من نسمات الشمال كما قيل:

إذا الشمول زهت يوما برقتها فى مجلس ضحكت منه شمايله

جمع أشـتات المحبين فـما ترك ولا أبقى وسد عـلى محبـيه من السلو مسالكا وطرقا فاستحق قول القائل:

ظبى غدا فى الحسن منفردا وراح فيه وفى أوصافه جملا

قال حماد بن إسحاق كان أبى يوما عند إسحق بن إبراهيم الظاهرى وقد اصطبح فجـعل الغلمان يسـقون وجاء غلام قـبيح الوجـه إلى أبى بقدح فلم يأخذه منه فرآه إسحق فقال له لم لا تشربه فقال له هذه الأبيات:

أصـبح نديمك أقـداحـا يواصلهـا من الشمـول وأتبـعهـا بأقـداح

لا تشـرب الراح إلا من يدى رشـا تقبـيل راحـتـه أشـهى من الراح

من كف ريم مليـح الذات راحـتـه بعـد الهجـوع كمـسك أو كتـفاح

فضحك إسحق وقال والله صدقت ودعا بوصيفة تامة الحسن لطيفة الخصر فى زى غلام عليها أقبية ومنطقة وقال لها قومى اسق أبا محمد فما زالت تسقيه حتى سكر ثم أمر بتوجيهها معه مع كل مالها من داره إلى دار أبى فحملت إليه مع متاعها وقال بعضهم:

لا تشرب الراح إلا من يدى رشا ... تحكيه فى رقة المعنى ويحكيها

إن المدامة لا يلتذ شاربها ... حتى يكون نقى الخد ساقيها

وقال أبو نواس:

ما استكمل اللذات إلا فتى ... يشرب والمرد ندماه

هذا يغنيه وهذا إذا ... ناوله القهوة حياه

وكلما احتاج إلى قبلة ... من واحد ألثمه فاه

سقيا لدهر بت فيه لهم ... معاشرا ما كان أحلاه

نشربها صرفا وممزوجة ... وشرطنا من نام نكناه

وقال السرى الرفا الموصلى عفا الله عنه:

خذوا من العيش فالأعمار فانية ... والدهر منصرف والعيش منقرض

فى حامل الكاس عن بدر الدجا خلف ... وفى المدامة من شمس الضحى عوض

وقال آخر:

وأغيدوا فأنا بمشمولة ... لو ذاقها سكران هم صحا

فخلته والكاس فى كفه ... بدر الدجا قارن شمس الضحى

ولابن النبيه من قصيدة:

ساق سهى رضوان عن حفظه ... ففر من جملة حور الجنان

يدير كأس الراح شمس الضحى ... يا قوم ما أعجب هذا القرآن

وللشيخ ابن نباتة من قصيدة:

وافى إلى وكأس الراح فى يده ... فخلت من لطفه أن النسيم سرى

لا تدرك الراح معنى من شمائله ... والشمس لا ينبغى أن تدرك القمرا

وقال جامعه لطف الله بها:

ساق كبدر دجا يسعى بشمس ضحى ... بين الندا ما يفوق الغصن أن خطرا

فأعجب لشمس أضاءت فى يدى قمر ... والشمس لا ينبغى أن تدرك القمرا

وللشاب الظريف محمد بن العفيف عفا الله عنه:

جزت وقد لاح وفى كفه ... كأس لها أفعال عينيه

أن قسته بالشمس فى حسنه ... فالشمس فى قبضة كفيه

ويعجبنى قول بعضهم فى مليح ساق حيا بباقة نرجس:

ورب مهفهف وافى بكاس ... وباقة نرجس فسقا وحيا

فهل أبصرت فى الآفاق بدرا ... سقى شمسا وحيايا لثريا

وما ألطف قول بعضهم:

فكأنها وكان حامل كاسها ... إذا قام يجلوها على الندماء

شمس الضحى رقصت فنقط وجهها ... بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وقال سيف الدين المشد فى ساق معذر:

وقهوة كشعاع الشمس مشرقة مع شادن أشبه الأشياء بالفلك

جسبينه البدر والمريخ طلعته وفى عذاريه ما فى الجو من حبك

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

أدار الشمس بدرى وقال لى هيا عندى

اشرب شقيقة ريقى على شقيقة خدى

وقال آخر:

أدار شمس الحيا بدرى فأذهب همى

ودل ذلك عندى على سعادة نجمى

ولابن سناء الملك سقى الله ثراه:

أهواه كالظبى فى حسن وفى غيد لا بل هو الليث فى بأس وفى جلد

فلو تراه وكاس الراح فى يده رأيت كيف تحل الشمس فى الأسد

وقال أبو نواس عفا الله عنه:

يطوف بها ساق أغن ترى له على مستدار الأذن صدغا معقربا

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وللشريف المرادى:

وكان الكاس فى أنمله شفق أصبح يعلو فلقا

وإذا ما غربت فى فمه تركت فى الخد منه شفقا

وقال عبد الرحمن القرشى الطليق:

أصبحت شمسا وفاه مغربا ويد الساقى المحيى مشرقا

فإذا ما غربت فى فمه أطلعت فى الخد منه شفقا

وأحسن منه قول بعضهم:

حمرا إذا ما نديمى قام يشربها أخشى عليه من الآلاء يحترق

لو رام يحلف أن الشمس ما غربت فى فيه كذبه فى وجهه الشفق

وألطف منه قول القائل:

أهلا بشمس مدام فى يدى قمر تكامل الحسن فيه فهو تياه

كان خمرته إذ قام يمزجها من خده عصرت أو من ثناياه

النرجس الغض عيناه وطرته بنفسج وجنى الوردى خداه

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة:

أرشفنى من ريقه مبسما فهمت ما بين العذيب والنقا

وبعد ذا حيا بشمس راحة أبهجنى فى جنح ليل وسقا

وقال القاضى مجد الدين بن كانس:

يا حسن ساق أفتنت ألحاظه أهل النقا

أدار كاسات الطلا فى جنح ليل وسقا

وأجاد سيدى أبو الفضل بن أبى الوفا فى قوله:

ألا لا تلومونى فلست بمقلع إذا انحدرت من كاسها الخمر فى حلقى

سآوى إلى بحر من الراح مترع أحط المراسى عنده فاملالى واسقى

وقال يوسف بن يفيس الأربل أحسن الله مثواه:

جاءنى يسعى وفى يده ... قدح من لون وجنته

ونجوم الليل قد بزغت ... والثريا مثل قبضته

فشربنا من يديه على ... خده من ورد وجنته

وانثنى سكرا فما عبثت ... لى يد بتكته

وقال بعضهم وأجاد:

سقانى وحيانى بفيه وخده ... فلم ير ساق قصده مثل قصده

فأسكرنى من ريق خمرة خده ... وأنعشنى من نشر خالص برده

قد حثنى بالكاس ول فجره ... ساق علامة دينه فى خصره

فكأن حمرة لونها من خده ... وكأن طيب نسيمها من نشره

حتى إذا صب المزاج تبسمت ... نم ثغره فحسبته من ثغره

وقال ابن المعتز:

يا جازب الكؤوس من يده ... ننال ما نشتهيه من فمه

يا ليتنى نلت ما ظفرت به ... كؤوسه من لذيذ ملثمه

شرابه مثل لون وجنته ... حبابها مثل در مبسمه

ولابن الوليد هشام بن أحمد الميلى:

عجبا للمدام كيف استعارت ... من سجايا معذبى وصفاته

طيب أنفاسه وطعم ثنايا ... وسكر المدام من لحظاته

وقال أبو النصر محمد بن النحاس الحلبى أحسن الله مثواه:

أدر الكؤوس عن الحبيب فإن فى ... وجه الحبيب مدامة تكفيه
أفعالها من مقلتيه ولونها ... فى وجنتيه وطعمها فى فيه

وأخذه من قول ابن حيوس:

ومهفهف تحكى محاسن وجهه ... ماضيه فى الكاس من إبريقه
ففعالا من مقلتيه ولونها ... من وجنتيه وطعمها من ريقه

وقال الوزير أبو الصلت عبد العزيز:

ومهفهف يغنيك لحظ جفونه ... عن كاسه الملئا وعن إبريقه
طعم المدام ولونها وفعالها ... من مقلتيه ووجنتيه وريقه

وقال أبو الحسن الجزار:

ألقت أشعتها عليه الراح ... فازداد نورا وجهه الوضاح
فسكرت من أجفانه وكؤوسه ... فتساوت الأحداق والأقداح

ولابن نباتة عفا الله عنه:

سلبت عقلى بأحداق وأقداح ... يا ساجى الطرف بل يا ساقى الراح
سكران من مقلة الساقى وقهوته ... فاترك ملامك فى السكرين يا صاح
دعنى إذا صح نجمى فى الهوى قمرى ... ببيت أنسى مقرون بأفراح
وحامل الكاس تحت الدجن يعلنها ... كأنه مدلج يمشى بمصباح

وقال برهان الدين القيراطى:

شكوت لـه من خـده وحـريقـه فـأطفـأ نارى ثغـره برحـيـقـه
وللـصب منه سـكرتان إذا سـقى بإبـريقـه طورا وطـورا بريقـه

وقال حسام الدين الحاجرى عفا الله عنه:

بروحى وقلـبى شـادن غنج جـفنه يعلم هاروت الـكهـانة والسـحـرا
سـقـانى بعـينيـه المدم وكـاسـه فلم أدر أى الكاس أعـقـبنى سكرا

وقال السراج الوراق:

ولم أنس إذ حيا بهـا فوق معـصم يصـاغ عـليـه من شـعـاع سـواره
جـرى من ذلال الماء فـيـه لجـينه وذاب كلـون الخـد منه نضـارة
ولم أدر دون الشرب ما كان سكره أمـقلتـه أم ريقـه أم عـقـاره

وقال الصفى الحلى:

وليلـة عـاطانى المـدام ووجـهـه يرينا صـبوح الشـرب عند غـبوقـه
بكأس حكاهـا ثغـره فى ابتـسـامـه بما ضـمـه من دره وعـقـيـقـه
لقـد نلت ما قـد رسته من حديثـه من لسكر مـالا نـلتـه من عـتـيـقـه
فلـم أدر من أى الثـلاثة سكـرتى أمن لحظـه أم فظه أم رحـيـقـه
لقـد بعـتـه روحى بخلوة سـاعـة فـأصـبح حـقًا ثابـتًا من حـقـوقـه
وأصبحت ندمانا على خـسر صفقتى كذا من يبيع الشىء فى غـير سوقه

وما ألطف قول من قال:

أقـول له وقـد حـيـا بـكاس لهـا من طيب نـكهـتـه خـتـام
أمن خـديك تعـصـر قـال كـلا مـتى عـصـرت مـن الورد المدام

وقال ابن نباتة:

ولربما أهوى بكاس مدامة ... لولاه ما حملت يدى جريا لها

طبخت بنار خدوده فى كفه ... فقلبتها وشربت منه حلالها

وما أرق ديك الجن:

فقام تكاد الكاس تحرق كفه ... فتحسبه من وجنتيه استعارها

مشعشعة من كف ظبى كأنما ... تناولها من خده فأدارها

حكى أن أبا تمام لما قدم حمص وأراد الاجتماع بديك الجن واختفى منع فجاء إلى منزله وقال لأهله مروه يخرج قد فتن أهل العراق بقوله مشعشعة من كف ظبى (البيت) فخرج إليه واجتمع به وقال فى الحال:

وممشق الحركات تحسب نصفه ... لولا التمنطق مائلا عن نصفه

يسعى إلى بكأسه فكأنما ... يسعى إلى قده فى كفه

وقال السراج الرفا:

وساق بحب الكاس أصبح مغرما ... فلألاؤها أضحى كضوأ جبينه

سقانى بها صرف الحميا عشية ... وثنى بأخرى من رحيق جفونه

هضيم الحشا ذو وجنة عندمية ... يريك احمرا الورد فى غير حينه

فأشرب من يمناه ما فوق خده ... وألثم من خديه ما فى يمينه

وقال ابن النبيه:

ساق صحيفة خده ما سودت ... عيشا بلام عذاره أو نونه

جمد الذى بيمينه فى خده ... وجرى الذى فى خده بيمينه

موال:

ما فى صحيفة خدودك يا أجل الناس ... ما سودت قط إلا بالعذار والآس

جمد مدامو بخدوازهل الجلاس ... لما تكلم جرى ريقولنا فى الكاس

وقال ابن المعتز عفا الله عنه:

تدور علينا الكاس فى كف شادن ... له كف لحظ يشتكى السقم مدنف

كأن سلاف الخمر من ماء خده ... وعنقودها من شعره الجعد يقطف

ولابن نباتة رحمه الله:

رب عيش نصب كاس مدامه ... ومليح ضممته حسن قامة وسقانى

صب فى كاسه خمرة فيه ... قهوة كخمرة جامة

وقال أبو الفضل بن أبى الوفا:

والراح فى يد ساقيها مشعشعة ... كأن وجنة ساقيها بها نضجت

ساق إذا اغتبقت ندمان قهوته ... أضاء مبسمه كالصبح فاصطبحت

وقال أبو الحسن على بن عطية:

وخضبت كف ساقيها مشعشعة ... كأنها بالذى فى ضمنها نضحت

كفاه قد أشربت من ماء وجنته ... ووجنتاه بما فى كفه رشحت

وله غفر الله له:

وشادن طاف بالكؤوس ضحى ... يحثها وضيا المصباح قد وضحا

والروض أهدى لنا شقائقه ... وآسه العنبرى قد نفحا

قلنا وأين الأقاح قال لنا ... أودعته ثغر من سقى القدحا

فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افتضحا

وقال آخر:

وممشوق الشمايل قام يسعى وفى يده رحيق كالحريق
فأسقانى عتيقا حشو در ونقلنى بثغر كالشقيق

وقال آخر:

صبوت إلى مليح قام يسعى بكأسى من رحيق كالحريق
فناولنى عتيقا حشو در وقبلنى بثغر كالشقيق
وقال وقد رأى نظرى إليه وعظم تشوقى قولا حقيقى
تأمل وجنتى وفمى وكاسى عقيق فى عقيق فى عقيق

وقال ابن النبيه:

ألا عاطنى راحا كرائحة المسك معتقة كالتبر فى حالة السبك
يطوف بها ساق كأن حبابها ومبسمه در تنظم فى سلك

وقال عفا الله عنه:

يديرها من يديه وهى باسمة عن لؤلؤ مثل نظم الدر مشتبك
كأنما نسجت أيدى الحباب لها من اللجين أفانينا من الشبك

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة:

لما غدا حباب راحى شاعرا لنظم خمرياته مسطر
أوقفت ساقينا على نظامه فقال لى والله هذا جوهر

وقال كمال الدين بن النبيه:

حسبك ما تغنى سواك الديار ... فصرف الهم يصرف بالعقار

واستنطق العيدان إن كنت ذا ... لب فما تنطق صم الحجار

شعشعها الساقى فقلنا له ... هل جمد الماء وذاب النضار

وقال المعتمد بن عباد غفر الله له:

لله ساق مهفهف غنج ... قد قام يسعى فجاء بالعجب

أهدى لنا من لطيف حكمته ... من جامد الماء ذائب الذهب

وقال غيره:

وساق وجهه البدرى نقلى ... وبارد ريقه مثل الشراب

أعاطيه الزجاجة من لجين ... وآخذها من الذهب المذاب

فأكسب لا محالة فى التعاطى ... كأنى فى معاملتى أرابى

ولله در القائل:

يطوف بالكاس فيما بيننا رشأ ... محكم فى القلوب والمقل

أفرغ نورا فى قشر لؤلؤة ... فجل عن قيمة وعن مثل

يكاد لحظ العيون حين بدا ... يسفك من خده دم الخجل

وله عفا الله عنه:

لما اصطبحنا بها صفراء صافية ... كأنها لهب فى الكاس يتقد

فقام كالبدر مشدود قراطقه ... ظبى يكاد من التهييف ينعقد

لا تستخف بساقينا لعزته ... ولا يرد عليه حكمه أحد

وقال أبو نواس:

ومقرطق يسعى إلى الندماء ... بعقيقة فى درة بيضاء

والبدر فى أفق السماء كدرهم ... ملقى على ديباجة زرقاء

ومهفهف عقد الشراب لسانه ... فكلامه بالغمز والإيماء

حركته سحرا وقلت له انتبه ... يا فرحة الجلساء بالندماء

فأجابنى والسكر يعجم صوته ... بتلجلج كتلجلج الفأفاء

إنى لأفهم ما تقول وإنما ... غلبت على سلافة الصهباء

دعنى أفيق من الخمور إلى غد ... وأفعل بعبدك ما تشا مولاءى

لما رأيت منادمى قمر السما ... ومجالسى قمرا بغير سماء

فحمدت ربى ساعة الحظ التى ... جمعت لى القمرين فى الخضراء

وقال ابن الخطيب:

كيف أنتما على شرب ساق ... لحظه فى القلوب غير أمين

راح يسقى فصب فى الكاس نورا ... ثقة منه بالذى فى العيون

وللعماد الكاتب أحسن الله مثواه:

وابنة كرم فى الكؤوس زفافها ... على ابن كريم بالشباب تفرغا

مشعشعة لاحت كان مزاجها ... كسا كاسها بالمزج ثوبا مصبغا

يطوف بها ساق من السكر خلته ... وقد عرفت منه الفصاحة ألثغا

وما ألطف قول القائل:

أيهـــا الســـاقى بجـــفن وحـــســـام خـــســـروانى
لا تـــلـــمـــنـــى إن تـــلـــجـــ ـــلجت فلم تفـــهـم بيـــانى
ســـحـــر عـــينيك وسكرى أحكـمـــا عـــقـــد لســـانى

وقال ابن تمام فى هذا المعنى وأجاد:

ومـــدامـــة كـــاســـاتهـــا تعطى الأمـــان من الزمـــان
قـــد أحكمت علم النجـــو م وأتقنت ســـحـــر البـــيـــان
فـــإذا حـــســـاها الشـــاربو ن وأوقـــعـــتـــهم فى الأمـــان
بدأت بـإخـــراج الضـــمـــيـ ـر وبـعـــده عـــقـــد اللســـان

وقال ابن سناء الملك:

يا ساقى الراح بل يا ساقى القدح ويا نديمى بل كل مـقـتـرحى
لا تخش فى ليل لهوى من تقاصره أما ترانى شربت الصبح فى القدح

وقال القاضى التنوخى غفر الله له:

وراح من الـشـمس مـخلوقـة بدت لـك فى قـدح من نضـار
هـواء ولكـنـه جـــامـــد ومـــاء ولـكنه غـــيـــر جـار
كـــان المدير لهـــا بـاليـمـــيـ ـن إذا قـام لـلشـرب أو باليسار
تدرع ثـوبا من الـيـاســـمـــيـ ـن له فـــردكم من الجلنار

وقال السرى الرفا عفا الله عنه:

وبكر شـــربناهـا على الورد بكرة فكانت لنا وردا إلى ضحوة الغد
إذا قـام مـبيض الثيـاب يديرها توهمـتـه يـسعى بكم من الورد

وقال غيره وأجاد:

ألا ربما كاس سقانى سلافها ... رهيف التثنى واضح الثغر أشنب

إذا اختضبت أطرافه من ثيابها ... رأيت لجينا بالمدام يذهب

قال الصفى الحلى من أبيات:

وحامل الكاس ساحى الطرف ذو هيف ... صاحى اللواحظ يثنى عطف مخمور

كأنما صاغه الرحمن تذكرة ... لمن يشكك فى الولدان والحور

تظلمت وجنتاه وهى ظالمة ... وطرفه ساحر فى زى مسحور

يدير راحا يشب الماء جذوتها ... فما يزيد لظاها غير تسعير

راح بدت لكليم الوجد آنسها ... من جانب الكاس لا من جانب الطور

تشعشعت فى يد الساقى واتقدت ... بها زجاجاتها من لطف تأثير

كأنها وضياء الشمس يحجبها ... روح من النار فى جسم من النور

وقال السراج الوراق:

ولنا ساق جواد كفه ... وكفت بالراح سحبا بعد سحب

قال قوم فاق كعبا فى ندا ... ه قلت لا غرو لساق فوق كعب

وقال ابن قزل على بن عمر المشد:

ورب ساق كالبدر طلعته ... يحمل شمسا أفديه من ساقى

شمر عن ساق غلائله ... فقلت قصروا كفف عن الباقى

لما رآنى وقد فتنت به ... من فرط وجدى وعظم أشواقى

غنى وكأس المدام فى يده ... فقامت حروب الهوى على ساق

وقال صفى الدين الحلى:

وظبى من بنى الأتراك طفل ... أتيه به على جمع الرفاق
أملكه قيادى وهو رقى ... وأفديه بعينى وهو ساقى

وقال الشيخ علاء الدين الوداعى:

وذى دلال أهيف حور ... أصبح فى عقد الهوى شرطى
طاف على القوم بكاساته ... وقال ساقى قلت فى وسطى

وقال ابن الزين لبكيم:

لله ساق له ردف فتنت به ... لما بدا وبساق منه براق
فلا تسل فيه عن وجدى وعن ولهى ... فأصل ما بى من ردف ومن ساق

وله فيه:

لله ساق فاق بدر الدجا ... وجدى به زاد وأشواقى
شفيت منه القلب إذا زارنى ... وفزت بالأرداف والساق

ويعجبنى قول بعضهم:

بدا ليكشف عن ساق يعرضها ... على المحبين كيما يفهم الباقى
وركب الكاس فوق الساق يحجمها ... ما حير الناس غير الكاس والساق

وألطف منه قوله:

وحاجم فى الكاس أجرى دما ... من ساق ساقينا بإشفاق
لكنه خالف فى شرطه ... فحكم الكاس على الساق

وقال الصلاح الصفدى:

كلفى بساق كل وعد منه لى ... ما زال يخلفه على الإطلاق
حتى قطعت مطامعى من وعده ... ونسيت عرقوبا بهذا الساقى

وقال ابن العفيف:

أسكرنى باللطف والمقلة الـ ... ـكحلاء والوجنة والكاس
ساق يرينى قلبه قسوة ... وكل ساق قلبه قاس

وما ألطف قول القائل دوبيت:

ساق جمال وجهه الوضاح ... يحيى ويميتنا بصرف لاراح
بالسكر يميتنا وإن قال لنا ... عيشوا جرت الأرواح فى الأشباح

وقال ابن نباتة:

مقبل الخد أدار الطلا ... فقال لى فى شربها عاتبى
عن أحمر المشروب ما تنتهى ... قلت ولا عن أخضر الشارب

وقال القيراطى:

ساق صغيرا درأ فينا ... كأسا صغيرا على يديه
يا عائبا صغر ذا وهذا ... ما المرء إلا بأصغريه

وله عفا الله عنه:

وبدر تم قد سعى ... بكاس راح وانبسط
حيا بقط كأسه ... فهل رأيت البدر قط

وقال آخر :

بقلبى ساق رد طرفى ساهرا ... وقلبى من فرط الغرام معذبا
تبدى بكاس ورده فوق كفه ... فخلناه من إبرازها قد تخضبا
يطوف بها محمولة ببنانه ... فتحسب بدر التم قارن كوكبا
تثنى فمال الشرب من دهش له ... فأسكرنى منه وغنى فأطربا
أغن رقيق الوجنتين ترى له ... على مستدير الأذن صدغا معقربا
وسل سيوفا من جفون لحاظه ... كأن بها سحرا صحيحا مجربا

وقال الصفى الحلى :

أذاب التبر فى كاس اللجين ... رشا بالراح مخضوب اليدين
وقام على الصحاء بكاس راح ... فطافت مقلتاه بآخرين
رخيم من بنى الأتراك طفل ... يجاذب دربه جبلا حنين
يبدل نطقه صاد إبدال ... ويخلط عجمه فاء بمين
يطوف على الرفاق من الحميا ... شهدنا الجمع بين النيرين
وآخر من بنى الأتراك حفت ... جيوش الحسن منه بعارضين
إلى عينيه تنتسب المنايا ... كما انتسب الرماح إلى الردين
فأحفظ سوسنى الخد منه ... فيبدلها الحياء بوردتين
فمجلسنا الأنيق ينور منه ... أو أن الراح من ورق وعين
فأطلعنا فم الإبريق منه ... وبات الزق مغلول اليدين
وشمعتنا شبيه سنان بدر ... مركب من قنان من لجين

وقهوتنا شبيه شواظ نار ... توقد فى أكف الساقيين

إذا ملا الزجاج بها وطارت ... حواشى نورها فى المشرقين

عجبت لبدر كاس صار شمسا ... تحف من السقاة بكوكبين

توحد راحنا عن شرك ماء ... ويولع فى الهواء بمذهبين

وقد صاغت يد الأزهار ملكا ... على الأغصان فوق الجانبين

تورد كالمداهن فى عقيق ... وأقداح كأزرار اللجين

وقد جمعت لى اللذات لما ... دنت منها قطوف الجنتين

وقال الشهاب الحجازى:

قام يسقى الراح ساق كالرشا ... أهيف القامة مهضوم الحشا

جمع الحسن جميعا وجهه ... فإذا المرء رآه دهشا

يا له من بدر تم طالع ... من حميا الكاس شمسًا فى العشا

يقف الركب إذا ما فرغت ... كاسها وهو إن تملأ شا

فادفنانى بعد ما ذقت إلى ... أصل كرم فرعه قد عرشا

ليظل الفرع منى ظاهرا ... ويروى الأصل منى العطشا

فامزجاها واسقيانى ولها ... ودع العاذل يعذل كيف شا

وأفشيا السر فما يهنو لنا ... شربها إلا إذا السر فشا

فكأن المزج قد ألبسها ... حللا من صدر بدر أريشا

وإذا مت اضطجعانى وافرشا ... من عصير الخمر تحتى فرشا

واقطعا لى كفنا من ورقها وانضحا على منه وارششا
وكلانى بعد ما مت إلى حاكم يفعل فينا ما يشا

وقال أبو نواس:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
كاس إذا انحدرت من كف شاربها أعدته حمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة والكاس لؤلؤة من كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها درا ومن فمها خمرا فما لك من سكرين من بد
فى نشوتين وللندمان واحدة شىء خصصت به من دونهم وحدى

وقال ابن ريلاق الأندلسى:

سقتنى بيمناها وفيها فلم أزل يجاذبنى من ذا ومن هذه سكر
ترشفت فاها إذ ترشفت كاسها فلا والهوى لم أدر أيهما الخمر

وقال آخر:

سقتنى فى ليل شبيه بشعرها مداما كخديها بغير رقيب
فأمسيت فى ليلين شعر وظلمة وصبحين من كاس ووجه حبيب

وقال غيره:

لا شرب إلا من كف جارية ذات دلال فى طرفها مرض
كان فى الكاس حين تمزجها نجوم رجم تعلوا وتنخفض

وقال أبو نواس:

ومـدامـة تحـيى النفـوس بهـا جـلت مـــآثرها عـن الوصـف
من كف سـاقـيـة مـقـرطقـة نـاهـيـك مـن أدب ومـن ظـرف

وقال غيره فيها:

تأمـل من خـــلال الـشك وانـظر بعـينك مـا شـربت ومن سـقـانى
تجد شـمس الضحى تدنو لـشمس إلى من الـرحـيق الخـسـروانى

وقال ابن تميم:

وســاقـيـــة تدور على الـنداما وتنهرهم لـسرعـة شـرب خـمـر
سنشـكر يوم لهـو قـد تـقـضى بســاقـيـــة تـقـابلنا بـنهـر

وقال أيضًا:

وطب بحـديث عن نديم مساعـد وســاقـيـة سـن المراهق للـحلم
ضـعيـفـة كر الطـرف تحسب أنهـا قـريـبـة عـهـد بـالإفـاقـة من سـقم

وقال أبو الحسن الجزار فى ساق سكب كأسا على الأرض:

قـلـت لمـا سـكـب الســـــا قـى علـى الأرض الشـــرابا
غـــيـــرة منـى علـيـــه لـــيـــتن كـنـــت تـرابـــا

وقد أخذه القاضى بدر الدين بن البلقينى فقال:

مـذ أراقـــوا الخـمـر عـــمـدا وســـقـــوا الأرض شـــرابا
قـلـت والإســـــلام دينـى لـيـــــتنى كـنـت تـرابـا

وقال شهاب الدين بن حجة:

الخـــمـــــر قـــد بـددوه فـــســاح طـولا وعـــرضـــا
مـــا كـنت أرضـى بـهـــذا يـا ليـــتـنـى كنـت أرضـــا

وقيل فيمن يحبس الكاس:

أربعـــة لا عـــفـــو عـن ذنبـــهم يوم يقـوم النـاس ليـوم الحـساب
مـعـشـوقـة تكثـر طول الجـفـا وعـاشق يـكثـر طول اجـتناب
وحـابس الكاس على صـحـبـه ومـا زج يكثـر مـزج الشـراب

وقال محمد بن هشام الخالدى:

مـا عـذرنا فى حـبسنـا الأكـوابا سـقط النـدا وصـفـا الهـوا وطابا
سـفـرت فعـاد حـبـابهـا من لحظنا فـعلى مـحـاسنهـا وصـار نقـابا

وقال مجير الدين بن تميم:

حـبـيبى وعدت الكأس مـنك بقبلة وأعـقب ذاك الوعـد منك تفـار
ومـا كـان هـذا لونهـا غـيـر أنهـا عـلاها لطـول الانتظار صـفـار

وقد أخذه الشيخ بدر الدين بن الصاحب فقال:

يـا حـــابس الـكـاس لا تزدهـا من بعـد حـبس الدنان حـسـرة
واغنم مـــزاجـا لهـــا لطيـفـا أورثهـــا الانـتظار صـــفـــرة

وما أحسن اعتذار بعضهم عن من يحبس الكاس:

قـالوا الذى تهـواه يحـبس كـأسـه فى كـفـه من غـيـر ذنب مـوجب
فـأجبـتـهم كـفـوا الملام فـإنه قـمـر ينزه طـرفـه فى كـوكب

وقال القاضى السعيد بن سناء الملك:

الكاس لم تذنب فكيف حبستها ... أوحشتها من طول ما آنستها

لا بل هممت بشربها ورأيتها ... ألقت عليك شعاعها فلبستها

كم ذا الوقوف بها لقد أتعبتنى ... مما وقفت بها كما أتعبتها

عجل بشربك والقها فى مسمعى ... ماذا يضرك يا أخى لو قلتها

فتوق حكم النار واحذر كيده ... فلقد لمست النار حين لمستها

واكفف دخان الند عن أنفاسها ... فبنشرة المسكى قد دنستها

سبق الزمان وجودها موجودة ... لا تحسبنك يا زمان سبقتها

ومن العجائب أنه لا مبتدأ ... لزمانها وله بشربك منتهى

وألطف ما سمعت فى هذا المعنى قول الشيخ برهان الدين القيراطى:

وإذا العقود من الحباب تنظمت ... إياك والتفريط فى حباتها

وقال شرف الدين محمد بن موسى المقدسى فيمن يعبس عند شرب الكاس:

اليوم يوم سرور لا شرور به ... فزوج ابن سحاب بابنة العنب

ما أنصف الكاس من أيدى القطوب بها ... وثغرها باسم عن لؤلؤ الحبب

وما أبدع اعتذار الشيخ صدر الدين بن الوكيل عن ذلك بقوله من قصيدة:

وأن أقطب وجهى حين تبسم لى ... فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

وقال ابن قرباض:

ولقد أقول لمن يعبس عندما دارت عليه من المدام كؤوس

والله ما أنصفتها يا سيدى تأتيك باسمة وأنت عبوس

وما ألطف ما قيل دوبيت فيمن يبقى فى الكاس فضلة:

يا من شرب المدام بالله عليك لا تنس نصيب حاضر بين يديك

اشرب ودع الفضلة قسمى فلقد أرتاح لقرب عهدها من شفتيك

وقال ابن الزبير لبيكم فى مليح يعصر الخمر:

ناديت إذ عصر الحبيب مدامة والسقم خيم فى معاقد خصره

لله من عصار خمر فاتن زاهى البها ما مثله فى عصره

وقال فى مليح خمار:

تعشقت خمرا يا بديع ملاحة له طلعة تزهو على الشمس والبدر

على ورد خديه وآس عذاره سقانى بكأس الثغر من ريقه الخمرى

ومن آداب الساقى أن يجرى الكاس على اليمين ولم يزل ذلك معروفا عند العرب فقد قال شاعرها:

صرفت الكاس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

فإن أمر رب المجلس أن يدار يسارا امتثل له الساقى وأدارها يسارا وفيه يقول بعضهم:

أدر الكؤوس على اليسار ولا تخف عتبا وكن من مزجهن أمينا

فالشمس تجرى فى الحقيقة يسرة ويديرها الفلك المحيط يمينا

ومن آدابه أن يستأذن جلسائه وندمائه فى المزج وعدمه فإن منهم من لا يناسبه الراح إلا صرفا وهذا قليل فى هذه الأعصار كثير فى الأعصار المتقدمة، ومنهم من يختار الممزوج قليلا ومنهم من يختار الممزوج كثيرا فإن كان الساقى عارفًا بأخلاق الجماعة عامل كلا منه بما يلائم طباعه من غير سؤال، ولابد من إيراد ما قيل فى كل من الأقسام الثلاثة. قال بعض من يختار الصرف:

صرفا فإن الخمران ... مزجتها لم تطب
والماء يكسو رأسها الـ ... ـأهب شيب الحبب
خذها ولكن من يدى ... مهفهف القد صبى
وأنت إن أعفيتها ... من مزجها لم تشب
من الغوانى قد نشا ... فى لذة العيش ربى

وما أحسن قول ابن تميم موريا فيها:

نديمى لا تسقنى ... سوى الصرف فهو الهنى
ودع كأسها أطلسها ... ولا تسقنى مع دنى

وقال المعمار عفا الله عنه:

صرف الزبيب لصرف همى ... نص على نفعه طبيبى
آه على سكرة لعلى ... أخلط الهم بالزبيب

وقال الشيخ علاء الدين الوداعى:

يا نديمى والذى عاهدنى ... إنه عن شربها لن يقصرا
اسقنى صرفا ودع عذالنا ... يضربون الماء حتى

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال:

اسقنى الخمرة صرفا كى تحت الأرض حتا
ودع العذال فيها يضربون الماء حتى

وقال القاضى فخر الدين بن مكانس:

من شرطنا أن أسكرتنا الطلا صرفا تداوينا بصرف اللما
نعاف مزج الكاس من بابنا لا آخذ الله السكارى بما

وقال القاضى مجد الدين بن مكانس فيمن بالغ فى قلة المزج حتى اكتفى بالندا:

نزل الطل بكرة وتوالى تجددا
والندامى تجمعوا فاجل كاسى على الندا

وقال المولى الفاضل شهاب الدين الحجازى:

كاساتنا الطل صرفا جلبت بين الندامى
لم نجد ماء لمزج فقنعنا بالندامى

وما أحسن ما قاله بعضهم بزيادة التورية:

يا أيها الساقى البديع الصفات املا وحى الشرب واشرب وهات
وضم قطر النبت وامزج به كأسى فما أطيب قطر النبات

وقال محمد بن أبى بكر الإسكندرى:

قلل الماء ما استطعت فإنى أمزج الراح بالدموع ورودا
وأدرها فالوقت طاب ولكن قد رأينا من الحبيب صدودا

وما ألطف ما قاله الشريف الرضى:

عللانى بذكرهم واسقيانى وأمزجا مدمعى بكأس دهاق

وخذا النوم من جفونى فإنى قد خلعت الكرى على العشاق

ومن ألطف ما يحكى هنا أن ابن المطرزة الشاعر مر يوما على الشريف الرضى وفى رجليه نعل بالية يثير من خلفه غبارا لأنه كان ضيق العيش معانقا للفقر فقال له الشريف أنشدنى شيئًا من كلامك فأنشده قصيدته البائية فلما انتهى إلى قوله فيها:

إذا لم تبلغنى إليكم ركائبى فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

أشار الشريف إلى نعله البالية وقال هذه ركائبك التى تبلغك إلى أحبابك فقال له ابن المطرزة على الفور ما آلت ركائبى إلى هذه الحالة إلا يث صارت هبات مولانا وعطاياه من المستحيلات بقوله:

وخذوا النوم من جفونى فإنى قد خلعت الكرى على العشاق

فإن مولانا وهب ما لا يملك لمن لا يقبل فخجل الشريف منه وقال ابن حجة رحمه الله تعالى:

لما غدا راحى نحيلا باليا وكاد إن لم يك فى الزجاج

وجاز بالماء إلى بحراته ودق قالوا صنه بالعلاج

فجئته مستقصيا أغراضه وجدته معتدل المزاج

وقال جامعه عفا الله عنه:

حيا بها عذراء ممزوجة بفيه تجلى فى رقيق الزجاج

وقال قلب الكاس لى قد صفا قلت هنيئًا يا لطيف المزاج

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فيمن يختار كثرة المزج:

بروحى نديم تشـــهـــد الـراح أنه قـضى العمـر باللذات وهو خـبيـر
تذكـــر مـــزج الكاس عـند وفـــاته فـأوصى لهـا بالـثلث وهو كـثيـر

وأجاز بعضهم أكثر من ذلك فقال:

لا تشـــرب الـراح صـــرفـــا فـــالـصـــرف يورث حنـفـــا
واجـــعل من الـراح نصـــفـــا ومن مـــزاجـك نصـــفـــا

قال قـيصر لقيس بن سـاعدة أيما أحب إليك الصرف أم الممزوج فـقال الصرف سلطان جائر فيـخشى فساده والممزوج سلطان عادل فـيرجى صلاحه وأحسن عبد الله بن محمد العطار بقوله:

وكـاس ترينا آية الصبح فى الدجـا فـأولهـا شـمـس وآخـرها بدر
مـقـطبـة مـا لـم يزرها مـزاجـهـا فـإن زارها جـاء التـبـسم والبـشـر
فـيا عـجبـا للدهر لم تخل مـهجـة من العشق حتى الماء يعشـقه الخمر

وقال أبو نواس:

قـال أبتغـى المصبـاح قلت له أتئـد حسبى وحـسبك ضوءها مصـباحا
فـسكبت منها فى الزجـاجة شـربة كـانت له حتـى الصبـاح صـباحـا
من قـهـوة جـاءتك قبـل مزاجـهـا عطلا فـألـبـسـهـا المزاج وشـاحـا
عـمت بكاسـات الزمـان حديثـهـا حـتـى إذا بلغ الســآمـة نـاحـا

وما أبدع ما قاله أبو القمر محمد بن على بن الغمر الأستاذى:

عـذراء تفتـر عن در وعن حـبب إن صب الماء منهـا ترى ماء لى ذهب
وافى إليـهـا سنان الماء يـطعنهـا فاستلئمـت زردا من فضة الحـبب

وقال ابن النبيه من أبيات:

بكر إذا ابن سـمـاء مـسهـا لبـست ثوب الحبـاب حياء مـنه واتشحت
تشعشعت فى يد الساقى وقد مزجت كـأنهـا بنصـال المال قـد ذبحت

وقال الشيخ يحيى الخباز:

عاطنيها من عـهد كـسرى سـلافا تتـقـد فى الكؤوس كـالنيـران
وابن مـا أسـمـاء زوجـه راحـا أذكـرتنـا شـقـائق النـعـمـان

ويعجبنى قول بعضهم:

جلوها على الندمـان فاحمـر لونها لخـجلتـهـا عند البـروز من الخـدر
وصبـوا عليـها الماء فاصـفر لونـها ويحـسـن عن الملتـقى وجـل البكر

وقال صفى الدين الحلى:

شـقـيـقـته خـد السـرور مـضـرج لهـا ولوقع الماء فى خـدها خـدش
شـهـرنا عليـها لـلمزاج صـوارمـا إذا أعـملت ما لـلجراح بهـا أرش
شعـاع غدا طرف المسـرة شاخـصا إليـه وأحداق الهـمـوم بها عـمش
شـهـدنا زواج الراح بالماء فـالندى عليـهـا نثـار والرياض لهـا فـرش
شـربنا وقـد حـاك الـربيع مطارفـا حسانا كدمع الـطل من فوقها رش

وتلطف أبو محمد عبد الله ابن الفياض كاتب سيف الدولة فى قوله:

قم فاسقنى بين خفق الناى والعود واتبع طيب موجود بمفقرد
كاس إذا أبصرت فى القوم محتشما قال السرور له قم غير مطرود
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا نزوج ابن غمام بنت عنقود

وتقدم فى باب الاستدعاءات قول بعضهم:

نجوم الراح قد طلعت نهارا ونحن من المسرة فى ورود
وماء النيل زوج بالحميا فهل لك أن تكون من الشهود

وما ألطف قول بعضهم دوبيب:

املا قدحى صرفا من الصهباء واحذر فحرام مزجها بالماء
فالماء لها من قبل أن كان أبا والابنة لا تحل للآباء

وللصفى الحلى:

زوج الماء بابنة العنقود فانجلت فى قلائد وعقود
قتلت بالمزاج ظلما فقالت كم قتيلا كما قتلت شهيدى
طاف يسعى بها أغن حكى ما فى يديه وثغره والخدود
قرب الكاس نحو عارضة الغض فأبدى العقيق فضل الجديد
وغد التائبون عنها ندامى والندامى فى ظل عيش رغيد
فصلينا لظى وأزلفت الجنـ ـة للمتقين غير بعيد

قال قطب الدين عمر بن عوض الشارعى وأجاد إلى الغاية:

عـزمت عـلى تزويج بكر مـدامة ... بماء قـراح واللـيـالى تـسـاعـد
وأمـهـرتـهـا در الحـبـاب وأه ... إذا جليـت ليـلا عليـهـا قـلائد
وجاءت رياحين البساتين عرفت ... فطابت بذاك النفس واللوز عاقد
وكـان حـضـور النبق فـالا مـهنئا ... لنا بالبـقا فى العـقد والورد شـاهد

وقال جمال الدين بن نباتة:

رب راح بـت أشـــربـهـــا ... من يـدى عـــذب اللـمـا خـنث
قـــابلـت فى الـكاس وجنتـــه ... فـــسـقـــانيـــهـــا على الثلث
يأبـى الســـاقى ولثـــغـتـــه ... فى مـــعـــانـى خلقـــة النفث
سل ســيف المزج فـــارتعـدت ... وغـــدت تـبـــرا من الـلعث
قلت دعـهـا قـال قـد شـرفت ... مـن ثنـا جـــــدي ومن نـفث
خـمـــرة كـــالجـــام ناهضـة ... نهـضـهـا الأرواح بالجـثث
هاتـهـــا راحـــا كلفـظ فـــتى ... طاهـر الأوصـــاف منتـــعث
ظن قـــوم شـــربـهـــا رفـــثـا ... لاســـقـــوا من ذلـك الرفـث

فإذا اتصـف الساقى بهذه الأوصـاف فقـد انعقـد الإجماع علـى ولايته وارتفع الخلاف واستحق قول سيف الدين بن المشد:

يسـعى بـهـا من وجنتيـه وطرفـه ... ورد كـما شـهـد الجمـال ونرجس
ســـاق تهـــاداه الـندامـى بينـهم ... فـكأنـه ريحـــــانة فـى المجلس

وله أيضًا:

سـقـانى وازداد الغـمـام تـفككا وأجفانه تبكى الثرى وهى تضحك

وتاج الصـحـارى بـاللآلى مـرصع وثوب الحـوارى بالنـسـيم مـفـرك

وقـد باهت الأرض السـمـاء بأنجم من الدر فى أفـلاكها الـتبر يسـبك

يمانيـة الأطراف مـائيـة الحـشـا هوائيـة ليست من الـلطف تدرك

إلى أن رأى من شدة السكر طافحا قـتـيـلا بهـا من يث لا أتحـرك

* * *

الباب الثالث عشر

فى وصف ما يشتمل عليه مجلس الأنس من أوانى الشراب وكاساته وطاساته والبواطى والظروف والراووق والقنانى والأباريق وغير ذلك

قال الشيخ تقى الدين بن حجة رحمه الله تعالى فى وصف سفرة المدام:

انظر ترانى سفرة بديعة ... وإن ترد وصفى فمهما شئت قل

وجهى طليق وانبساطى زائد ... يا ضيفنا ادخل وانبسط واشرب وكل

وقال المولى الأديب الفاضل خليل بن الفرس فى ترتيب المقام:

يا نديمى املا مقامى ... من سلاف الراح صرفه

ثم رتبه بلطف ... فوق إيوان وصفه

قال فى قطب السرور وقد فصل بعضهم فى الكاس فقال إذا كان ملآنا يسمى كاسًا وإذا كان فارغًا يسمى قدحًا ويسمى الجام أيضًا، وقد تقدم والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل جوهر لأنه لا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل فى اليد ولا يرتفع فى السوم ولا يصدأ ولا يتخلله الوسخ فإن اتسخ فالماء وحده له جلاء، ومتى غسل بالماء عاد جديداً ومن شرب فيه فكأنما شرب فى إناء وماء وهواء وضياء، ولسهل بن هارون رسالة طويلة فى ذلك فضله فيها على الذهب وهذا القدر كاف ولكن ذمة النظام بكلمتين لطيفتين فقال يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر.

وقال القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله فى وصفه تكون من جوهر مكنون وتجسد من هواء مظنون واتخذ خدر الابنة العنب وطاف به

الساقى فأصبح منه فى راحة وهو تعب قهقه على الإبريق فصدح وطار منه شرار المدام فقيل قدح.

وكتب فيه الشيخ بدر الدين بن الدماميني إلى المقر المجدى فضل الله بن مكانس ما اسم حبيب إلى النفوس شبيه بالبدر حليف للشموس إن قلب كان لقلبه من العين مكان المناسبة وإن سقط قلبه مع هذا الفعل كان ضدا للأقوال الكاذبة وإن صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء وهذا غاية الشرح وإن غير ثانيا علم رب الكلام المحرر أنه دال على الطرح حاشيتاه مع التصحيف آلة للصيد معينة على المكر والكيد أن قلع طرفه كان مزاج باقيه قواما وإن عكس كان الطرب بتصحيفه مداما وإن زال أوله كان العكس عقابا لمتعاطى إثمه، وإن صحف اشتاقت الشفاه إلى تقبيله ولثمه وربما كان المقول عند تصحيفه الآخر منا فيالاسمه مباينا فى الحقيقة لحده ورسمه.

فأجابه المقر المجدى بسجعات منها وانتهى المملوك إلى اللغز الذى تمتع بملحه وشرب بقدحه فابتهل شكرا ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرا فوجده، كما قال حبيبا إلى النفوس مجتهدا فى التوصل بما حازه إلى الرؤوس يأتيك بالمعنى اللطيف ويقف حذقتك من تصحيفه بعد العكس بين تصحيف وتحريف فحله من ساعته وقابل شمسه المنيرة بآلته وكتب قرينه لغزا فى الورد نذكره إن شاء الله تعالى فى الزهريات وما ألطف قول الصلاح الصفدى:

أنا من لطف مزاجى ... وصفا قلبى وجسمى

دائر بين الندامى ... والتثام الثغر رسمى

وقال محمد بن العفيف وأجاد:

أدور لتقبيل الثنايا ولم أزل أجود بروحى للندامى وأنفاسى
وأكسو أكف القوم ثوبا مذهبا فمن أجل هذا لقبونى بالكاس

وقال صلاح الدين الصفدى:

كئوس المدام تحب الصفا فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذج من نقشها فأحسن ما ذهبت بالطلا

وأحسن منه قول ابن الوردى:

دع الكاس من نقشها فصاف بصاف أحب
إذا طليت بالطلا فقد طليت بالذهب

وله عفا الله عنه:

أحسن ما كانت كئوس الطلا سواذجا يبدو بها الخافى
فالنقش نقص ومن الرأى أن ترتشف الصافى من الصافى

وقال سيدى أبو الفضل بن وفاء من أبيات:

يا صانع الكاس مبيضا بغير طلى تفضيض كاسك زينة بتذهيب
فالكاس من فضة بالراح قائمة والراح من ذهب فى الكاس مسكوب

وقال الشيخ عز الدين الموصلى:

لئن شبه الساقى المدام بعسجد فقد قال بالتشبيه من صنعة الأدب
ولكن رآها جوهرا سميت طلا فموه لما حلت الكاس بالذهب

وقال الأمير مجير الدين بن تميم:

يا حسنه من قدح ثوبه ... يروق عينى وشبه المذهب

رق إلى أن كاد من لطفه ... يجرى مع الخمرة إذ تشرب

وقال ابن المعتز فى الكاس المضورة:

وساق يجعل المنديل منه ... مكان حمائل السيف الطوال

غلالة خده صبغت بورد ... ونون الصدغ معجمة بخال

بدا والليل تحت الصبح باد ... كطرف أبلق ملقى الجلال

بكاس من زجاج فيه أسد ... فرائسهن ألبال الرجال

وقال أبو نواس:

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم

فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه ... إذن لاصطفانى دون كل نديم

وقال غيره:

تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مها تدريها بالقسى الفوارس

فللراح ما زرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلائس

أخذه الناشى فقال:

فى كاسها صور تظن لحسنها ... عربا برزن من الحجال وغيدا

وإذا المزاج أثارها فتقسمت ... ذهبا ودار توأما وفريدا

فكأنهن لبسن ذلك عسجدا ... وجعلن ذلك للنحور عقودا

وقال المجد بن قلاقس:

دارت زجاجتها وفى وجناتها كسرى أنوشروان فى إيوانه
فخلعت عن عطفيه حلة قهوة وشربتها فغدوت فى سلطانه

وقال الصفدى غفر الله له مضمنا وأجاد:

ومشمولة قد قام كسرى بكاسها فأضحى ينادى وهو فيها مصور
وقفت لشوقى من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصبابة أنظر

وقال القاضى فخر الدين بن مكانس وأبدع:

إذا ما أديرت فى الحشا عسجدية بها كل ذى ملك وتاج تصورا
فحسبك نيلا فى السيادة أن ترى نديمك فى الكاسات كسرى وقيصرا

وقلت والسبب الموجود لتصوير كسرى وقيصر فى الكاسات ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن زيدون فى شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون وهو أن سابور بن هرمز ملك الفرس وهو كسرى الملقب بذى الأكتاف لما رجع من قتال بنى تميم قصد التوجه إلى الروم والدخول إلى القسطنطينية متنكرا ليرى قيصر وما يحتوى عليه ملكه من المهابة والعظمة فاستشار قومه ونصحاءه فمنعوه من ذلك وحذروه من التغرير بنفسه وقالوا له إن كان ولابد فابعث من يقوم مقامك فى ذلك فأبى إلا أن يمضى بنفسه، وسار هو ووزيره متنكرين وأمر وزيره أن يفرد عنه فى الطريق ظاهرا ويتعاطى مصالحه باطنا ففعلا ذلك حتى دخلا القسطنطينية فصادفا وليمة لقيصر، وقد اجتمع فيها الخاص والعام فدخل كسرى متنكرا فى جملتهم وجلس على بعض موائدهم وكان قيصر لما بلغه ما أمتن الله على سابور من لطف الفطنة

وأيده به من عظم الهمة وشدة البأس فى حالة صباه تحذر منه حذرا شديدًا وبعث مصورا ماهرا إلى بلاد سابور فصور صورته فى مجلسه وحال ركوبه وغير ذلك من ضروب الأحوال التى شاهده المصور عليها وقدم بتلك الصور على قيصر فأمر أن تصور تلك الصور على فرشه وستوره وآلات أكله وشربه ففعل ما أمر به فلما دخل سابور دار قيصر واستقر فى مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس أتوا بالشراب فى كؤوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم.

وكان فى المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم ذو فراسة صادقة، فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخصه ونظرته وإشارته فرأى عليه مخايل الرياسة فأشفق منه وأخذ يرمقه ولا يصرف بصره عنه ثم دارت الكاسات فيما بين القوم، فلما انتهى الكاس إلى ذلك الرومى رأت منقوشا فيه صورة سابور فتأملها فانطبعت فى نفسه مثالا لذلك الشخص الذى أنكره وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدح فى يده إمساكا طويلا، ثم قال رافعا صوته أن ههذ الصورة التى فى هذا القدح تخبرنى خبرا عجيبا فقيل له ما الذى تخبرك فقال تخبرنى أن الذى هى مثاله معنا فى مجلسنا ونظر إلى سابور فوجده قد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ما ظنه به وأعاد القول فبلغ كلامه قيصر فأدناه وسأله فأخبره أن سابور معه فى مجلسه وأشار إليه فأمر قيصر بإحضاره فأحضروه بين يديه ونظر إليه قيصر ثم سأله عن نفسه فأنكر وتعلل بضروب من العلل فقال ذلك المتفرس لا تقبلوا قوله فهو سابور ولا محالة فقدمه قيصر للقتل ليرعبه بذلك فاعرف بنفسه فأمر قيصر بحبسه فى جلد بقرة مغلولة يداه إلى عنقه متحفظًا به وتجهز قيصر لأخذ بلاده وكسرى صحبته فى جلد البقرة.

وتمام الحكاية إلى أن تخلص على يد وزيره المذكور وأخذه القيصر وحبسه ثم العفو عنه وإرساله إلى مملكته مذكور فى كتاب سلوان المطاع فى السلوانة الثانية وهى حكاية غريبة مشتملة على حكم ومواعظ وأمثال يطول شرحها ويضيق هذا المختصر عن ذكرها وفى هذا القدر كفاية فإن الغرض بيان سبب التصوير على الكاس وقد علم.

وذكر الحكيم موفق الدين بن أبى أصيبعة فى ترجمة الحكيم سديد الدين ابن رقيقة قال ومن شعره وهو مما كتبه على كاس فى وسطه طائر على قبة مخرمة إذا صب الخمر فى الكاس دار الطائر دورانا سريعا وصفر صفيرا قويا فمن وقف الطائر بإزائه حكم له بالشرب فإذا شرب وترك فيه شيئًا من الشراب صفر الطائر وهكذا ولو شربه فى مائة مرة ومتى لم يبق فيه درهم فإن صفيره ينقطع وهذه الأبيات:

أنا طائر فى هيئة الزرزور ... مستحسن التكوين والتصوير

فاشرب على نغمى سلاف مدامة ... صرفا تنير حنادس الديجور

حمراء تلمع فى الكئوس كأنها ... نار الكليم بدت بأعلى الطور

وإذا تخلف من شرابك درهم ... فى الكاس نم به عليك صفيرى

قلت: وإنما كتبت هذه الأبيات لغرابة هذا الكاس وإلا فهى ليست بطائله. وقد رأيت شيئًا يشبه هذا الكاس وهى قلة ماء إذا شرب منها أحد وفرغ صفرت طويلا وكان الهواء ينحبس فيها بنزول الماء فيصعد الصفير لنكتة مصنوعة فيها وهذا الكاس كذلك والدليل عليه أنه لا يصفر إذا لم يبق شىء فى الكاس لعدم ملاقاة الخمر الهواء والله أعلم ومما قيل فى الطاسة للشيخ برهان الدين القيراطى:

تأمل فإنى طاسة صح نقشها وفاق على نقش الغوانى التى تسبى
وواصف حسنى يطرب السمع قوله لأنى فى الطاسات داخلة الضرب

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى فيها:

أنا طاسة بيضت وجهى عندكم وصفا لكم قلبى بماء رائق
عذبت مشاربه ببارق بهجتى فتنزهوا بين العذيب وبارق

وله عفا الله عنه:

أنا طاسة قدرى سما وبروضتى نهر المجرة للنجوم موارد
وتسادج القمر المنير بحسنه فقمرته وعليه نقشى قاعد

وقال شمس الدين بن العفيف فى باطية:

أنا للمجالس والجليس أنيسة أزهو بحسن ناضر للناظر
أصفو فأظهر ما أجن ولم يكن فى باطنى شىء يخالف ظاهرى

وقال غيره فيه:

وباطية تروى الشروب شبيهة بطوفان نوح حين فاض فأبدا
ترى وسطها الكاسات تجرى كأنها نجوم هوت للغرب مثنى ومفردا

وقال أبو نواس فى الإبريق:

فقام كالغصن قد شدت مناطقه ظبى يكاد من التهييف ينعقد
واستهلها من فم الإبريق صافية مثل اللسان جرى فاستمسك الجسد

وللصفدى وقيل لصاعد اللغوى:

كان إبريقنا والراح فى فمه طير تناول ياقوتا بمنقار

وقال الصفى الحلى:

وللأباريق عند المزح لجلجة كنطق مرتبك الأفاظ مذعور

كأنها وهى فى الأكواب ساكبة طير تزق فراخا بالمناقير

وللقائد بن مكنسة وقيل للسرى الرفا عفا الله عنه:

إبريقنا عاكف على قدح كأنه الأم ترضع الولدا

أو عابد من بنى المجوس إذا توهم الكاس شعلة سجدا

قلت لم يزل يختلج فى صدرى ويدور فى خلدى سؤال على هذا البيت وما ذاك إلا أن قصد الشاعر فيه تشبيه الخمر بالنار وتشبيه انحناء الإبريق حالة الصب فى القدح بالعابد المجوسى الذى يسجد للنار وهذا التشبيه فى غاية ما يكون من الحسن ولكن حال انحناء الإبريق يكون القدح فارغا فلا يحسن تشبيهه بشعلة النار وحال امتلائه يكون قد انتهى سجود الإبريق وهذا أخذ فى الرفع من السجود فلا يحسن التشبيه فى ذلك أيضًا وكنت أتهم نفسى فى هذا السؤال وأعرضه على الأصحاب فمن موافق ومن مخالف إلى أن رأيته منصوصًا لبعض الفضلاء من أهل الأدب على حاشية كتاب عند ذكر هذين البيتين، فاطمأنت لذلك نفسى ويمكن أن يقال أنه شبه آخر الانحناء وهو حال امتلاء الكاس لا أوله فيستقيم وفيه بعد لا سيما وقد أتى بإذا الظرفية الوقتية التى فيها معنى الشرط أى يسجد وقت توهم الكاس وإذا وجدتوهم الكاس شعلة فقد وجد السجود ومعلوم أن ذلك مفقود فى حالة فراغ القدح والله أعلم، وممن سبك هذا المعنى فى قالب حسن وسلم من هذا الاعتراض القاضى أبو الفتح بن قادوس فإنه قال:

وبات بدر تمام الحسن معتنقى والشمس فى فلك الكاسات لم تفل
وكلما رام نطقا فى معاتبتى سددت فاه بنظم اللثم والقبل
وبت منها أرى النار التى سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لى

وقال إبراهيم بن إسحاق الموصلى:

كان أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم يخلق لهن عظام

وقال السراج الوراق:

يا حبذا شكل إبريق نميل له منا القلوب وتصبو نحوه الحدق
يروق لى حين أجلوه ويعجبنى منه طلاوة ذاك الجسم والعنق
كم قد شربت به ماء الحياة ولن ينالنى منه لا غص ولا شرق
حتى غدا خجلا مما أقبله فظل يرشح من أعطافه العرق

وقال ابن المعتز:

وكأن إبريق المدامة بيننا ظبى على شرف أثاب مدلها
لما استحثته السقاة حتى لها فبكى على قدح المدام وقهقها

وقال القاضى فخر الدين بن مكانس فى القنانى:

لام العذول على الشراب فقلت يا كاسى الملاطف بالمدام وخله
ولأنت يا فتينى فتمايلى ضحكا على ذقن العذول وقهقهى

وقال أيضًا:

خبرونى عن قهقهات القنانى أنا منها فى غاية الإبهام

أتراها ضحكا لبسط الندامى أم نحيبا على فراق المدام

وما ألطف قول القائل:

مدامة شمسية شعشعت أنوارها فى الكرم والدن

رقت فلما أن شكتنى طفت فضحكها كان على ذقنى

وقال صدر الدين بن عبد الحق فى الراووق والأباريق:

أسبل الراووق لما صلبا أدمعا لكن رأينا عجبا

بينما الراووق يجرى بدم قهقه الإبريق حتى انقلبا

وقال بدر الدين حسن الغزى الزغارى فى الراووق والبطة:

أعجب ما فى مجلس اللهو جرى من أدمع الراووق لما انكسبت

لم تزل البطة فى قهقهة بيننا تضحك حتى انقلبت

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

باكرت راووقى وبطتى التى قد قهقهت ودم المدامة يسفك

وأضعت مالى فيهما حتى غدا هذا يصغى لى وهذى تضحك

وقال الجوبان القواس فى الراووق:

ولما حكى الراووق فى العين شكله وقد علق العنقود فى سالف الدهر

تذكر عهدا بالكروم فكله عيون على أيام عهد الصبا تجرى

وقال القاضى مجد الدين بن مكانس:

قم واصلب الراووق واشف قلبى منه وبلغنى بذاك سولى
واسفك دم لزق ونادى هذا جزاء من يلعب بالعقول

وقال صلاح الدين الأربلى فى طبق صفت عليه أقداح:

من فرحتى بالندامى واجتماعهم حولى وقربهم منى وا آسى
جعلت صفحة خدى تحت أخمص ما قد غادرته الندامى أسفل الكاس

ومما قيل فى الكوز:

حرقونى لعل يستنطقونى وجدونى على البلاء صبورا
فلهذا رفعت فوق الأيادى لالتثامى من الملاح ثغورا

فى الشربة وأجاد:

وذى إذن بلا سمع وذى جسم بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب

قال جامعه عفا الله عنه فى النقلدان:

قلت والحب قد ترشف كاسا ثم أهوى بفيه للنقلدان
طبت يا نقلدان بين الندامى بالحميا وبرد ماء اللسان

فى المخدة أو المدورة:

فى نفع ولذة للنفوس وحياة وراحة للجليس
كم نديم أرحته باتكاء وتواضعت عند رفع الرءوس

شمس الدين الدمشقى المزنى فى مخدة:

تقـول مـخـدتى لما اضطجـعنا ووسـدنى حـبـيب القـلب زنده
قصـدتم عند طيب الوصل هجرى خـذونى تحت رأسكم مـخـده

أخذه الآخر فقال:

تقـول مـخـدة لما اتكأنا عليـهـا بين جـلاس وسـادة
جـعلتم خلف ظهـركم مقـامى خـذونى تحت رأسكم وسـادة

ابن صاحب تكريت فى المروحة:

يا سائلى عن نسيم طى مـروحـة أهدت سـرورا بترجـيع وترويح
أما ترى الخوص أهدى من مراوحه مـا أودعـتـه قـديما نسـمـة الربح

غيره:

ومـروحـة جـعلت راحـة لحـر الهـجـيـر وتلهـيبـه
كـأن سليـمـان أهدى لهـا نسـيـمـا من الربح تسـرى به

وقال آخر:

ومروحة جاء النسيم بها يجرى يبـرد أكـبـاد إذ يبت من الحـر
حوتـها يد كـالبحر والبحر دونـها وأطيب مـا جاء النسيم من البحر

وما ألطف من قال:

إنـنـى أجـلـب الـريـا ح وبى يـذهـب الخـجـل
وحـجـاب إذا الحـبـيـ ـب ثـنى الـرأس لـلـقـبل

وألطف منه قول الآخر:

نهيت الحبيب عن المروحة لمعنى وحسبك أن أشرحه

لقد خفت إن مر فيها النسيم ولامس خديه أن يجرحه

وحكى أن السلطان الملك الأشرف كان له مملوك بديع الجمال فأحبه رجل فقير وصار يجلس فى جادة الطرقات التى يسلكها السلطان فأعلم السلطان فمنع المملوك من الركوب معه ومرض الفقير بسبب ذلك فبلغ السلطان خبره فرثى له وأمر المملوك أن ينزل وحده ويعود الفقير فنزل إليه فوجده ملقى لا يعى فجلس عند رأسه وجعل يروح عليه بمروحة كانت عنده فرفع الفقير طرفه إليه وتنفس وأنشد:

روحنى عائدى فقلت له لا لا تزدنى على الذى أجد

أما ترى النار كلما خمدت عند هبوب الرياح تتقد

ثم شهق شهقة فارق الدنيا ولابن خروف فى المروحة المستديرة:

ومروحة إن تأملتها ترى فلكا دائرا باليد

وتطوى وتنشر من حسنها فتشبه قنزعة الهدهد

فى منديل كم للصفى الحلى:

ومنديل كم صنته وحفظته لأمرين لم أملك لأحدهما صبرا

لمسح دموع العاشقين إذا جرت ومسح فم المحبوب إن شرب الخمرا

وله أيضًا على لسانه:

أنا منديل مليح غاية فى الخلوات

أنا لا أصلح إلا لأمور غامضات

وله أيضًا:

أنـا منـديـل مـليـح لملاح العـــالمين

أنـــا لا أصـــلـــح إلا لدمـــوع العـــاشـــقين

ابن أبى حجلة فى المبخرة:

ومـبـخـرة تحكى المتيم فى الهـوى تبـوح بمـا تلقـاه من شـدة الكرب

تقـول وقـد نمت بـعـرف بخـورها أأكـتم مـا أبقـاه والنار فـى قلبى

ضياء الدين فى عود المندل:

المـنـدلـى كـــــريم سـقـيـا له ولغـرسـه

لمـــا أراد يـــريـــنـــا للـهند نسـبـة جنسـه

غـــدا عـلى النـار ملـقى يجـود فـيـهـا بنفـسـه

الجوبانى:

ومـــجلس ســـمـــاؤه من الـبـخـور غـــايمة

وجـــوهـه ســـحـــابة لهـــا الأنوف شـــايمة

داخلـه مـــبـــخـــرة مـثـل القناة قـائـمـة

تحـسـبـهـا غـانيـة من الـغـوانى جـائمـة

لـهـــا عـليـــا خلع من الـذيول دائمـــة

كـأنهـا فى حـسنهـا للعين شـبـه الطارمـة

لـكنـهـــا عـــادية تخـرج منهـا راغـمـة

أبو بكر الخوارزمى فى الطيب:

وطيب لا يخل بكل طيب ... يحيينا بأنفاس الحبيب

إذا ما شم أنف حن قلب ... كان الأنف جاسوس القلوب

ضياء الدين المناوى فى المسك:

المسك أنفس طيب ... مثل الشباب وزينه

إن كان للطيب عين ... فالمسك إنسان عينه

وما أحسن قوله أيضًا:

فكم طيب يفوح ولا كمسك ... وكم طير يطير ولا كبار

وما أحسن ما استغنى عز الدين الموصلى عن ذلك بقوله على لسان محبوبته:

تنشق مسك أصداغى حلالا ... فهذا الطيب من عرق الجبين

* * *

الباب الرابع عشر

فى وصف الأغانى وآلات الملاهى والشموع والفوانيس وغير ذلك

اعلم أن سماع الأغانى من أجل أركان مجلس الشراب فإن له تأثيرا عجيبا فى استمالة القلوب وهو شىء تنتعش به جميع الأرواح الآدمية وغيرها من الحيوانات غير الناطقة فقد حكى أن الجواميس ربما فاقت أماكنها وغابت عنها أيام فى الماء، فإذا أراد أصحابها عودها جمعوا أصحاب آلات الملاهى التى تعتادها الجواميس وخرجوا فى طلبا فإذا سمعت الجواميس صوت الآلة أخرجت رؤوسها من الماء وطربت له ثم خرجت من الماء فيتراجع أصحاب الآلة قليلا قليلا والجواميس تتبعها حتى تصل إلى أوطانها.

وحكى بعض أهل الهند أن الفيل إذا صيد امتنع من العلف والشرب حزنا على مفارقته وطنه وحنينا إليه فيغنون له بالألحان الشجية حتى تطيب نفسه فيأكل ويشرب.

وحكى نحو هذا عن كثير من أنواع الطير وشوهد ذلك بالعيان وأخبر به الثقات وروى أصحاب التواريخ من ذلك نزول اليمام على حسن العود ووقوعه على البرشق وكذا نزول أبى زريق من على ظهر قفصه ووقوفه على حافة الخافقية وشربه مما فيها ودورانه بين الجالسين والمغنى لا يغير عليه الضرب قال فإذا غير المغنى الزخمة التى كان فيها طار إلى مكانه وإذا أعادها عاد فإذا كان هذا من الحيوانات غير العاقلة فما بالك بالإنسان الذى هو أشرف المخلوقات من الحيوانات الأرضية فهو أشد ملائمة للإيقاعات المطربة فللغناء فى النفوس منزلة وتأثير عجيب وموقع لطيف فى تصفية الذهن وروحنة القلب واستجلاب السرور واعلم أ أمهات لذات النفوس أربعة لذة المطعم

والمشرب والنكاح والسماع فالثلاثة الأول لذة جسمانية ولا يتوصل إلى واحدة منها إلا بحركة وتكلف. وأما لذة السماع فلذة نفسانية ونشأة روحانية تدب فى البدن وتسرى فى الروح عن غير تكلف ولا حركة فلذلك سهل مأخذها وخف تناولها على النفوس وما ألطف قول مجير الدين بن تميم:

قالوا رأيناك كل وقت تهيم بالشرب والغناء

فقلت إنى فتى قنوع أعيش بالماء والهواء

وقال أفلاطون من اعتراه حزن فليسمع الأصوات الطيبة فإن النفس إذا حزنت خمد نورها فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد ومقال معاوية وقد سمع عنده مغنيا فحرك رأسه وصفق بيديه وأخذته الأريحية، ثم لما ثاب إليه رأيه اعتذر منه وقال إن الكريم طروب ولا خير فيمن لا يطرب وقد قال أبو الحسن بن مقلة يعجبنى من يقول الشعر تأدبا لا تكسبا ويغنى تطربا لا تطلبا وكان مروان بن أبى حفصة إذا تغدى عند الموصلى يقول له الغناء غذاء الأرواح، كما أن الشراب غذاء الأشباح ويقال الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما. واعلم أن بين الخمر والغناء مناسبة فى أكثر الأحوال ومضارعة فيما يجمعانه من محمود الخصال لأن فيه ما يصير الجبان إذا سمعه شجاعا ومنه ما يكون للهم دفاعا ونغمة يبعث الشحيح على السخاء ومقابلة سؤال السائل بالعطاء وفيه ما ليس فى الخمر من الخصائص العجيبة الأمر وذلك أن الرجل الواحد يغنى له فى طريقة فيلين خلفه، وإذا انتقل إليغيرها ظهرت شراسته ونزقه وإذا سمع ضربا منه استفزه الطرب، وإذا غنى له بصوت آخر لم يمكن العواصف أن تهزه ولممازجة الأصوات الحسنة بالأرواح وإهدائها إلى القلوب طرائق الأفراح كانت البهائم كما تقدم إذا

سمعتها تحن إليها والطير تشغف بها وتطرب عليها والإبل يكسبها الحداء مثل ما يكسب الإنسان الغناء والخيل والبغال والحمير تلتذ بشرب الماء إذا تواصل من ساقيها الصفير والحمامة المطوقة والشحارير والبلابل والزرازير تسمع أصوات أفسها، فيبين منها الطرب فى تسجيعها وذلك داعية إلى تكريرها وترجيعها ولأجل ذلك يتخذها الملوك فى قصورهم ويجعل أماثل الناس كثيرا منها فى دورهم، وإن كانت أصواتها لا تدل على معنى يعلم ولا تضمن ما يعرب عنه من الكلام الذى يفهم فما بالك بالألفاظ التى يسمعها السامع ويعيها ويفهم ما تفيده من معانيها إذا أدركها ملحنة ممن خصوا بصفاء الخلوق والنغمات المستحسنة لهذه العلة صار من يسمع الغناء الحسن يشرب من النبيذ عليه أزيد مما لا يحتمله إذا لم يصغ إليه وقد علم أن الصبى الطفل إذا تذعر خلقه واتصل بكاءه لوجع يناله وزاد قلقه وصوتت له دابته بكلام تلحنه سكن وجعه وزال أرقه وقال كشاجم:

إن كنت تنكران فى الـ ـألحان فائدة ونفعا
فانظر إلى الإبل التى لا شك أغلظ منك طبعا
تصغى إلى صوت الحدا ة وتقطع الفلوات قطعا

وقال آخر:

وليس الشرب إلا بالملاهى وبالنغمات من مثنى وزير
فلا تشرب بلا طرب فإنى رأيت الخيل تشرب بالصفير

وأما الآلات التى اتخذت للغناء فكثيرة وأنواعها عند أرباب الفنون شهيرة والعود أجلها خطرا وأوقعها فى القلوب أثرًا. وقد كان داود عليه

السلام أحذق الناس بصوغ الألحان فى تبيحه ومعرفة الفاسد فى ذلك من صحيحه وبه كان يضرب المثل فى حسن إيقاعه فى عوده وارتياح القلوب لصوته وتغريده وكان قبل إفضاء الملك واجتماع بنى إسرائيل عليه يحضره ملكهم طالوت إذا غلب عليه خلط ردىء كان يعتريه فيأمر أن يوقع له بالعود ويسمعه من ألفاظه الحسنة الصوت ما يسكن ألمه ويشفيه، ولما صار إليه الملك نصب من بسط الحذاق بتلحين المزامير والتسبيح على العيدان والطنابير وغيرها من الدفوف والطبول والصلاصل وما يجرى مجراها جماعة، وكانت العدة التى تحضر من هذه الطائفة عنده أربعة آلاف فى كل ليلة ذكر ذلك جميعه الثعالبى فى موائد الأفراح.

وحدود الغناء أربعة لا يستغنى عن واحدة منها وبها يتم وعليها يبنى فأولها النغم، ثم تأليفه ثم قسمته ثم إيقاعه فما اشتمل من الشعر على هذه الحدود فهو غناء وإن نقص منه فليس بغناء وما قدم أحد من الأمم الماضية شيئًا على العود من أنواع الملاهى لما جمع من الفضائل التى استبد بها وقصر سواه عن لحاقها والحاذق به فى الغناء مقدم على كل حاذق.

وذكر أن عبد الملك بن مروان أتى فى الليل بشاب ثمل ومعه عود فقال له ما هذا وكان عنده قوم ولأى شىء يصلح وما يصنع به فسكت جلساؤه فقال عبد الله بن مسعدة الفزارى هذا عود تؤخذ خشبة فتشقق وترقق وتلصق ثم يعلق عليه هذه الأوتار وتحركها الجارية الحسناء فينطق بأحسن من وقع القطر فى البلد القفر وامرأتى طالق إن لم يكن كل من فى هذا المجلس يعلم منه مثل ما علمت وأولهم أنت يا أمير المؤمنين فضحك عبد الملك وأمر بإطلاق الشاب.

قال وينبغى أن يكون المغنى جميل الخلق حسن الخلق له حلاوة وعليه طلاوة لطيف الإشارة مستعذب العبارة حافظا لكثير من الملح والأخبار والنوادر والأشعار عالما بعلم النحو والإعراب غير نمام ولا مغتاب ولا فضولى ولا عتاب كتوما للأسرار متوقيا طريق الأشرار ذا رائحة ذكية ونشوة نقية وجوارح سالمة من العيوب وشمائل يحف بها على القلوب صناعته معجبة وأغانيه مطربة فمن اجتمعت له هذه الصفات والمناقب وسلم مما تقدم ذكره من النقائص والمعايب كان باصطفاء الملوك حقيقا وباختصاصهم خليقا ومنهم من يكون حاذقا فى صناعته يبلغ فى أحكامه غاية استطاعته واجتمعت فيه الخصال الحميدة عرف بالخلال السديدة غير أنه لم يرزق صوتا حسنا ولا تجد القلوب من بديع نغماته المطربة سكنا فتصطفيه الملوك لتعليم الغناء من الغلمان والوصائف فيتحفها بما تصل قدرته إليه من أنواع الحكم وبدائع اللطائف والمهذب من كل علم وصناعته قليل وتعديد ما يوجد من أخلاق الرجال لا يحد البليغ إلى استقصائه سبيل.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى شر الغناء والشعر الوسط لأن الأعلى منهما يطرب والأدنى يضحك ويعجب والوسط لا يضحك ولا يطرب.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى شرح العيون ما صورته ويقال إن أول من اتخذ العود الملك المتوشلح على مثال فخذ ابنه الميت وهو قول ضعيف وقيل بطليموس وقيل بعض حكماء الفرس.

وذكر أن أول من غنى على العود بألحان الفرس النضر بن الحارث بن كلدة وفد على كسرى بالحيرة فتعلم ضرب العود والغناء وقدم مكة فعلم أهلها وأول من غنى فى الإسلام بألحان الفرس سعيد بن مشجج وقيل طويس وذلك

أن عبد الله بن الزبير لما وهى بناء الكعبة، رفعها وجدد بناءها وكان فيها صناع من الفرس يغنون بألحانهم فوقع عليها بن مشجج الغناء العربى، ثم دخل الشام فأخذ عن ألحان الروم ثم دخل إلى فارس فأخذ الغناء وضرب بالعود وبدئ هذا العلم ببطليموس وختم بإسحق بن إبراهيم الموصلى.

ومما يؤيد ذلك أن إسحق قال بعث إلى المأمون يوما وبين يديه ثمانية عشر مغنية تسمع عن يمينه وتسمع عن شماله وعنده إبراهيم بن المهدى فقال كيف تسمع يا إسحاق فقلت أسمع خطأ يا أمير المؤمنين فقال لإبراهيم ما تقول يا عم فيما قال إسحق قال باطل ما هنا خطأ، ولكنه يريد أن يتزيد عندك فقلت يا أمير المؤمنين أتأذن لى أن أقفه على الخطأ وأناظره فيه قال نعم قلت على أنه سيدى وأنا عبده أو على الإنصاف فقال بل على الإنصاف قلت وتأمر الجوارى أن يغنين الصوت الذى غنيته أولا فغنيته، ثم قلت لإبراهيم أفهمت الخطأ قال لا قلت فإنى ألقى عنك النصف والخطأ فى التسع البواقى الواتى فى الجانب الأيسر قال فتفهم وقال ما نسمع خطأ قلت فإنى فى أواخر الجوارى كلهن فتفهم فلم يقف عليه، فقلت للجارية اضربى وحدك وأمسك البواقى وغنت فقلت ما ترى قال صدقت الخطأ ههنا فقال المأمون أحسنت فهم إسحق الخطأ من اثنين وسبعين وترا ولم تفهمه أنت إلا من أربعة.

وألطف من ذلك وأغرب أن المغنين تناظروا يوما عند الواثق فذكروا الضراب وحذقهم فقد إسحق بن إبراهيم ربربا على ملاحظ وكان لملاحظ فى ذلك الرياسة والتقديم عليهم بأجمعهم فقال الواثق لإسحاق هذا حيف وتعصب منك فقال إسحق يا أمير المؤمنين اجمع بينهما وامتحنهما فإن الأمر سينكشف لك فيهما فأمر بهما فأحضر فقال له إسحق إن للضراب أصواتا

معروفة فامتحنهما بصوت مبهم قال افعل فسمى ثلاثة أصوات فضربا عليها فتقدم فيها ربرب وتأخر ملاحظ فعجب الواثق من إظهار ما ادعاه فى مجلس واحد. قال ملاحظ فما باله يا أمير المؤمنين يحيلك على الناس ولا يضرب هو فقال إسحق يا أمير المؤمنين إنه لم يكن فى زمانى أضرب منى ولكنكم أعفيتمونى من الضرب وشغلتمونى عنه بالغناء فتفلت منى ومع ذلك فإن معى بقية لا يتعلق بها أحد من هذه الطبقة.

ثم قال إسحق يا ملاحظ شوش عودك وهاته ففعل ملاحظ ذلك فقال إسحق يا أمير المؤمنين هذا خلط الأوتار خلط متعنت وهؤلاء ينالوا فسادها، ثم أخذ العود فجسه ساعة حتى عرف مواقعه، ثم قال يا مخارق غن أى صوت شئت فغنى مخارق صوتا وضرب عليه إسحق بذلك العود الفاسد التسوية فلم يخرجه عن لحنه فى موضع واحد حتى استوفاه عننقرة واحدة ويده تصعد وتنحدر على الدساتين فقال له الواثق والله ما رأيت مثلك قط ولا سمعت به اطرحه على الجوارى فقال هيهات يا أمير المؤمنين هذا شىء لا تفى به الجوارى ولا يصلح لهن ألبتة بلغنى أن الفهليد ضرب يوما بين يدى كسرى أنوشروان فأحسن فحسده رجل من حذاق أهل صناعته فرقبه حتى قام لبعض شأنه فقام إلى عوده فشوش بعض أوتاره فرجع الفهليد وضرب وهو لا يدرى والملوك لا يصلح فى مجالسها العيدان فلم يزل يضرب بذلك العود إلى أن فرغ ولم يخرج عن اللحن ولم يفته منه شىء، ثم قام من ساعته وأخبر الملك بالقصة فامتحن العود فعرف ما فيه فقال له زه وزه وزهان زه ووصله بالصلة التى كان يصل بها من يخاطبه بهذه المخاطبة. قال إسحق فلما تواطأت الروايات بهذا أخذت نفسى به ورضتها عليه وقلت لا ينبغى أن يكون الفهليد

أقوى على هذا منى فما زلت أستنبط بضع عشرة سنة حتى لم يبق فى الأوتار موضع على طبقة من الطبقات إلا وأنا أعرف نغمته كيف هى والمواضع التى تخرج النغم كلها من أعاليها إلى أسافلها وكل شيء منها يجانس شيئًا غيره كما أعرف ذلك فى مواضع الدساتين وهذا شيء لا تفى به الجوارى.

فقال الواثق لعمرى قد صدقت ولئن مت لتموتن هذه الصناعة بعدك وأمر له بثلاثين ألف درهم ولعمرى إن صح ما قيل فإبليس لعنه الله تعالى أعرف منه بهذه الصناعة، بل ربما قيل أنه أخذ عنه نوعا من الغناء يسمى الماخورى، ويقال إنه جرى مثل ذلك لوالده إبراهيم الموصلى، وإنه أخذ عن إبليس الغناء الماخورى وكان إبراهيم يلقيه على الجوارى فتضاعف قيمتهن بسبب ذلك كما سيأتى بيانه.

وحكى أن إسحق هذا قال بعث إلى الرشيد يوما فذهبت إليه فإذا بين يديه ثمانية عشر مغنية وعنده إبراهيم بن المهدى فجلست وسمعت غناءهن كلهن فقال لى الرشيد ما تقلو يا إسحق قلت خطأ كله يا أمير المؤمنين فقال ولم ذلك فقلت له إن أذنت لى غنيتك يا أمير المؤمنين فقال نعم افعل قال فأخذت العود وغنيته بطريقة أعرفها فلم يملك نفسه أن دعا بالشراب ولم يكن عزم على ذلك ومر لنا يوم طيب وأقمنا حتى دخل الليل فغنيت الرشيد حتى طرب ونام فوضعت العود من يدى أنتظر انتباهه إذ دخل على شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم وجلس ثم ضرب بيده إلى الشراب فشرب ثلاثة أقداح ثم أخذ العود فجسه وأصلحه أحسن ما يكون ثم غنى بقوله:

ألا غنيانى قبل أن تتفرقا ... وهات اسقنى صرفا شرابا مروقا

فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدجى ... وكاد قميص الليل أن يتمزقا

فوالله لقد أذهلنى ولم أسمع مثله قط، ثم وضع العود من يده، وقال إذا غنيت الخلفاء فغنهم هكذا، وقام وخرج فقمت فى أثره وقد كاد أن يذهب عقلى حيرة من حسن غنائه فلم أجده، فقلت لأصحاب الستارة من هذا الرجل الذى خرج فقالوا ما دخل أحد حتى خرج فرجعت إلى موضعى وعلمت أنه إبليس وانتبه الرشيد فحدثته الحديث وغنيته الصوت فلم يزل يستعيده طربا حتى نام فلما أفاق قال وددت والله لو أمتعنا هذا الرجل بغنائه من غير أن يعرفنا بنفسه وأمر لى بجائزة ما أمر لى بمثلها قط واصطبحنا على الصوت أياما.

وحكى إسحق عن أبيه إبراهيم الموصلى نظير ذلك قال إبراهيم استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من أيام الجمعة لأنفرد فيه بجوارى وإخوانى فإذن لى فى يوم السبت وقال هو يوم أستثقله قاله فيه بما شئت قال فأقمت يوم السبت بمنزلى وأخذت فى إصلاح طعامى وشرابى بما احتجت إليه وأمرت البواب أن يغلق الأبواب وأمرته أن لا يأذن لأحد فى الدخول على فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حفن بى وإذ أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروايح الطيب تفوح منه، حتى ملأت الدار والرواق فدخلنى غيظ عظيم لدخوله على، وهممت بطرد بوابى فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بإدخال مثله على لأدبه وظرفه، فقلت هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى فيه قلت فالشراب قال ذلك إليك فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا إسحق هل لك أن تغنينا شيئًا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام فغاظنى قوله ثم سهلت الأمر على

نفسى فـأخذت العود فـجسست ثم ضـربت وغنيت فقال أحـسنت يا إبراهيم فازددت غـيظًا وقلت ما رضى بما فعله فى دخـوله بغير إذن، واقتـراحه على حتى سمانى باسمى ولم يجمل مـخاطبتى، ثم قال هل لك أن تزيد ونكافئك قال فتعجبت من قوله وقلت فى نفسى بم يكافئنى قال ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قيامـا تاما لقوله لى أكافئك فطرب وقال أحسنت يا سيدى ثم قال أتأذن لعبدك فى الغناء فقلت شأنك لكن استضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد مـا سمعه منى فأخذ العود وجـسه فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده واندفع يغنى:

ولى كـبـد مـقـروحـة من يبـيـعنى ... بهـا كـبـدا ليـسـت بذات قـروح

أباها علـى الناس لا يشـتـرونهـا ... ومن يشـتـرى ذا علـة بصـحـيح

أئن من الشوق الـذى فى جوانحى ... أنين غـصـيص بالشـراب قـريح

قال إبراهيم فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حـسن صوته حتى خلت والله إنى أسمع أعضاءى وثيابى تجاوبه وبقـيت مبهوتا لا أتسطيع الكلام ولا الحـركة لما خالط قلبى من اللذة التى غيبـتنى عن الوجود فلما رآنى كذلك أخذ الـعود ثانيا واندفع يغنى بقوله:

ألا يا حمـامات اللوى عـدن عودة ... فـإنى إلى أصـواتكن حـزين

فـعـدن فـلمـا عـدن كـدن يمـتننى ... وكـدت بإسـرارى لهـن أبين

وعـدن بتـرداد الهـدير كـأنما ... شـربن الحـمـيا أو بهـن جنون

فلم تـر عـينى مـثلهن حـمـائم ... بكـين ولم تدمع لهن عـيـون

فكاد عقلى أن يذهب طربا ثم غنى ليزيد بن الطثرية هذا:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادنى مسراك وجد على وجد

أئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى ... على غصن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكى الحزين صبابة ... وذبت من الوجد المبرح والجهد

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... يمل وإ النأى يشفى من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد

ثم قال يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فقلت أعده على، فقال لست بمحتاج قد أخذته وفرغت منه ثم غاب من بين عينى فارتعدت لذلك وقمت إلى السيف فجردته ثم غدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة فقلت للجوارى أى شيء سمعتن عندى فقلن سمعن أحسن غناء لم نسمع قط أحسن منه، فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال أى شيخ والله ما دخل اليوم عليك أحد فرجعت لأتأمل أمرى فإذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت فقال لا بأس عليك يا أبا إسحاق أنا أبو مرة إبليس وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع فركبت إلى الرشيد وأخبرته بالحديث فقال ويحك اعتبر الأصوات التى أخذتا فأخذت العود فإذا هى راسخة فى صدرى فطرب الرشيد عليها وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب وقال كان الشيخ أعلم؟ بما قال إنك قد أخذتها وفرغت منها فليته أمتعنا بنفسه يوما واحدا كما متعك وأمر لى بصلة فأخذتها وانصرفت. قال هكذا حدثنا ابن أبى الأزهر بهذا الخبر وما أدرى ما أقوله فيه انتهى.

وقال كشاجم الكاتب فى كتابه المسمى بأدب النديم وإنما سمى الماخورى لأن إبراهيم بن ميمون الموصلى كان يكثر الغناء فى طريقته فى المواخير والخبر الذى يذكره العوام عن إسحاق وتمثل إبليس له وتعليمه إياه هذه الطريقة حديث خرافة انتهى.

ورأيت فى بعض التعاليق حكاية لإسحاق أيضًا شبيهة بما تقدم ونسبها بعضهم إلى عبد الله بن إبراهيم الكاتب ولكنها فى غاية الظرف واللطف قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى بينما أنا ذات يوم فى منزلى وكان زمن الشتاء وقد انتشرت السحب وتراكمت الأمطار بقطر كأفواه القرب وامتنع الغادى والرايح من المسير فى الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل وأنا ضيق الصدر إذ لم يأتنى أحد من إخوانى ولم أقدر على المسير إليهم من شدة الوحل والطين فقلت لغلامى أحضر ما أتشاغل به فأحضر لى طعاما وشرابا فتنغصته إذ لم يكن عندى من يؤنسنى ولم أزل أتطلع من الطاق وأرقب الطرقات إلى أن غربت الشمس وأقبل الليل وأيست فتذكرت جارية كنت أهواها لبعض أولاد أمير المؤمنين المهدى وأحبها حبا شديدا وكانت هى أيضًا تحبنى وكانت عارفة بالغناء وتحريك الملاهى فقلت فى نفسى لو كانت الليلة عندى لتم سرورى وطابت ليلتى وأنقذتنى مما أنا فيه من القلق والفكرة وإذا بداق يدق الباب وهو يقول:

أيدخل محبوب على الباب واقف

فقلت لعل غرس التمنى قد أثمر ثم لم أملك نفسى إن نزلت إلى الباب دون أحد من الغلمان وأمرت البواب أن يفتح وإذا أنا بصاحبتى وعليها مرط أخضر قد اتشحت به وعلى رأسها وقاية قد عملت من الديباج لتقيها من المطر وقد غرقت فى الطين إلى ركبها، وابتل جميع ما عليها من المزررات وهى فى

قالب لا أرضاه لهـا فقلت يا سيدتى ما الـذى أتى بك فى مثل هذه الأوحال فقالت قاصدك جاءنى ووصف لى مـا عندك من الصبابة والشوق الشديد فلم يسعنى إلا الإجابة إليـك والإسراع نحوك فعجـبت من ذلك وكرهت أن أقول لها إنى لم أرسل إليك أحدا فقلت الحمد لله على جمع الشمل بعد ما قاسيت من ألم الصبر فوالله لقـد كنت مشتاقا إليك كثيـر الصبابة نحوك، ولو أبطأت ساعة كنت أنا أحق بهذا العناء منك والصبر على التعب ثم قلت للغلام هات الماء فأقبل بـسخانة فيهـا ماء سخن قد أعـد لمثل هذا ثم أمرته أن يقلب على رجليها وتوليت غسلهما بيدى.

ثم استدعـيت ببدلة من فاخر الملبوس فـألبستها إياها ونزعت جـميع ما كان عليها وجلسنا واستدعـيت بالطعام فأبت فقلت هل لك فى الشرب قالت نعم فتناولت أقـداحا ثم قالت من يغن لى قلت أنا يا سيـدتى قالت لا أحب قلت فبعض جوارى قالت لا أريد قلت فغنى لنفسك فقالت ولا أنا قلت فمن يغنيك قالت اخرج فالتمس لنا من يغنى فـخرجت طاعة لها على كره وإياس من أن ألتقى أحـدا فى مثل ذلك الوقت فلم أزل حتى بلغت الشـارع فإذا أنا بأعمى يخبط الأرض بعـصا تخبيطا قويـا وهو يقول لا جزى الله الذين كنت عندهم خيرا إن غنيت لم يسـمعوا وإن سكت استخفـوا بى فقلت أمعن أنت قال نعم فهل لك أن تتم ليلتك عندنا وتؤنسنا بقربك قال إن شئت فخذ بيدى وسرت إلى دارى ثم أمـرت الغلمان أن يغسلوه من الطين وكذلك غـسلت ما على من ذلك، ثم دخلت إليها فقلت لها يا سيدتى رأيت مغنيا أعمى نلتذ به ولا يرانا، فقـالت على به فأدخلتـه وعرضت عليه الطعـام فأكل أكلا نظيـفا وغسل يديه وقدمت الشـراب فشرب ثلاثة أقداح ثم قـال يا سيدى من تكون فقلت إسحاق النديم فقـال لقد كنت أسمع بك والآن فرحت بمنادمتك. قلت

يا سيدى فرحت بمن يسر بك قال غننى يا إسحاق فأخذته على سبيل المجانة وقلت السمع والطاع واندفعت أغنى فلما انقضى الصوت قال يا إسحاق قاربت أن تكون مغنيًا فصغرت فى نفسى وألقيت العود من يدى فقال ما عندك من يحسن يغنى، قلت عندى جارية قال مرها أن تغنى قلت تغنى وأنت واثق بغناها قال نعم فغنيت فقال ما صنعت شيئًا فرمت العود من يدها مغضبة وقال يا سيدى الذى عندنا جدنا به فإن كان عندك شىء فتصدق به فقال على بعود لم تمسه يد فأمرت الخادم فأتى بعود جديد لم تمسه يد فكساه ثم ضرب طريقة لم أعرفها واندفع يغنى بصوت ندى وحلق شجى يقول:

سرى يخبط الظلماء والليل عاكف حبيب بأوقات الزيارة عارف

فما راعنى إلا السلام وقولها أيدخل محبوب على الباب واقف

قال فنظرت الجارية إلى شذرا وقالت سر بينى وبينك ما وسعه صدرك ساعة وأخرجته إلى هذا الرجل فحلفت لها واعتذرت إليها وأخذت يدها أقبلها وجعلت أدغدغ ثدييها وأعضعض خديها حتى ضحكت ثم التفتت إلى الأعمى وقال غن يا سيدى فأصلح العود واندفع يغنى:

ألا ربما زرت الملاح وربما لمست بكفى البنان المخضبا

ودغدغت رمان الصدور ولم أزل أعضعض تفاح الخدود المكتبا

قال فذهلنا عن أنفسنا من الطرب وقلت لها يا سيدتى فمن الذى أعلمه الآن بما نحن فيه قالت صدقت ثم تجنباه فقال يا سيدى لا أرى لحاقن فقلت يا غلام بين يديه بالشمعة فخرج وأبطأ فخرجنا فى طلبه فإذا الأبواب مغلقة والمفاتيح فى خزانة عندنا فلا ندرى أفى السماء صعد أم فى الأرض نزل فعلمت أنه إبليس وقد قاد لى ثم انصرف لا عدمت مزاره فتمثلت بقول أبى نواس:

عـجبت من إبليس فـى كـبـره وفى الـذى أظهـر من نـخـوته
تـاه علـى آدم فى سـجـدة وصـار قـوادا لذريتـه

ومن لطافة إبراهيم الموصلى وقوة تخيله على بلوغه أغراضه ما حكى أنه حضر عند الرشـيد ليلة فغنى إسمـاعيل بن جامع صوت أطرب الرشـيد فلما انتهى الصـوت قال الرشيـد لإبراهيم هاته قال لا أعرفـه فقال الرشـيد غن يا إسماعيل فغنى صوتا ثانيا ثم ثالثـا، وإبراهيم لا يعرفه أيضًا فأجاز الرشيد ابن جامع بجوائز وانصـرف إبراهيم مكسور القلب إلى منزله، فلم يلبث أن بعث إلى محمـد المعروف بالدف وكان من محسنى المغنين وكـان أسرع الناس بأخذ الصوت وكان الرشـيد واجدا عليه فقال له إبراهيم اخـترتك لأمر لا يصلح له غيـرك، وأريد أن تمضى من ساعـتك إلى ابن جامع فتـعلمه إنك صـرت إليه مهنئًا بما تم عليه وتغتابنى عـنده وتحتال أن تسمع منه الأصوات وتأخذها ولك على رضى الخليفة عنك فمضى محمـد من ساعته إلى ابن جامع واحتال إلى أن أنشده إياها وهى الصوت الأول هذه:

إذا دعـا باسـمـهـا داع يحـدثنى كادت لهـا شعبـة من مهـجتى تقع
لو أن لى صبـرها أو عندها جزعى لكنـت أعـقل مـا آتـى ومـا أدع
لا أحـمل اللوم فيـهـا والغرام بهـا لا حـمل الله نفسًـا فـوق مـا اتسع

والصوت الثانى:

طرقـتك زائرة فـحى خـيـالهـا بيضـاء تخلط بالجـمـال دلالهـا
هل يطمسون من السمـاء نجومـها بأكـفـهـم أو يسـتـرون هلالهـا
شـهـدت من الأنفـال آخـر آية فـأردتمو بمحـالكم إبطالهـا

والصوت الثالث:

شطت سعاد وأمسى البين قد أبدى وأورثتك سقاما يصدع الكبدا

فما احتيالك إن جد الرحيل بهم وخلفوك غداة البين منفردا

لا أستطيع لهم صبرا ولا جلدا ولا تزال أحاديثى بهم جددا

فجعل محمد يصفق ويطرب حتى أخذ الأصوات وأحكمها واستأذن وانصرف إلى إبراهيم من وقته فألقاها عليه فأخذها وأتقناه وغدا إلى الرشيد فوجد ابن جامع حاضرا عنده فلما رآه عنفه وقال كان ينبغى أن تجلس فى بيتك شهرا لا تظهر لأحد مما لقيت من ابن جامع قال إبراهيم جعلنى الله فداك إن أذنت لى فى الكلام اعتذرت قال وما عسى أن تعتذر قال يا أمير المؤمنين إنه ليس لى ولا لغيرى أن يراك تشتهى شيئًا ويعارضك فيه وإلا فما فى الأرض صوت لا أعرفه.

قال دع عنك هذا فقد أقررت أمس بالجهالة فإن كنت تعرفه فهاته الآن فاندفع إبراهيم يغنى حتى مضى على الأصوات الثلاثة واستوفاها عن آخرها وربما فاق ابن جامع فى حسن أدائها فكاد الرشيد أن يطير من الفرح وكاد ابن جامع أن يموت من الخجل وأخذ يحلف أنه ما سمعها قد لغيره ولا عرفها لسواه وإنما هى من صنعته فقال الرشيد يا إبراهيم بحياتى أصدقنى فحكى له القصة فدعا بمحمد الدف ورضى عنه.

وألطف من ذلك ما اتفق لولده إسحاق الموصلى فإنه قال نادمت المأمون ليلة أنا وإبراهيم بن المهدى فلما أردنا الانصراف التفت إلى إبراهيم وقال بحقى عليك يا عم إلا ما عملت أبياتا وصنعت لها لحنا حديثا، ثم قال لى مثل ذلك وقال بكرا على فقد اشتهينا الصبوح غدا فقلتوالله لأكيدن إبراهيم

ولأسرقن صوته فلما صليت العشاء ركبت وسرت إلى ساباط إبراهيم وكان له عليه مجلس يقعد فيه فدعوت الحارس فأعطيته دينارا وقلت لا تعلم أحدا بمكانى وصرفت الغلام وأمرته أن يأتينى سحرا فلم ألبث أن جلس إبراهيم فى مجلسه ودعا بجواريه وجعل يقنهن الشعر وقد صاغ اللحن وهو يوقع بالعود ويكرره مرارا وزا أضرب على فخذى واتبع الصوت حتى أخذته وأتقنته ولم أزل على ذلك إلى الصباح فلما كان السحر أتانى الغلام فركبت وسرت من ساعتى إلى المأمون فدخلت فقال أكلت شيئًا فقلت لا فدعا لى بطعام وقد كان أكل وشرب فغنيته الشعر وهو:

قالت نظرت إلى غيرى فقلت لها وسائ الدمع من عينى محدور

نفسى فداؤك طرف العين مشترك والقلب منى عليك الدهر مقصور

والعين تنظر أحيانا وباطنه مما يقاسى بظهر الغيب مستور

فطرب المأمون وشرب فما لبثنا أن جاء إبراهيم بن المهدى ودخل فدعا له بالطعام والشراب فطعم وشرب، ثم جلس فغنى الشعر فقال المأمون ما هذا يا إبراهيم أراك تسرق أشعار الناس وتدعيها لنفسك واحمرت عيناه وغضب غضبا شديدا وكاد أن يسطو به فنهض إبراهيم قائما على قدميه وقال يا أمير المؤمنين وقرابتك من رسول الله وبيعتك فى عنقى ما سبقنى إلى هذا الصوت أحد فقال المأمون هذا إسحق قد غناه قبل حضورك وقال يا إسحق غنه فغنيته فبقى إبراهيم مبهوتا لا يحير جوابا فلما رأيت تلك الحالة قلت يا أمير المؤمنين وحق نعمتك الشعر واللحن لإبراهيم ولكن سرقته منه اللصوص وحدثته الحديث فسكن غضبه وقال يا أحمد بن هشام خذ من مال إبراهيم ثلاثين ألف درهم وادفعها لإسحاق لتضييع إبراهيم سره. قال إسحق فغدوت إلى إبراهيم

وقلت أيها الأمير اقبلها منى واعتذرت إليه فقال لا أقبل ما جاد لك به أمير المؤمنين ولكن كدت والله إن تسفك دمى فا تعد من المزح إلى مثلها فإن الملوك تعفوا عن كثير وتقتل على اليسير.

وقال أحمد بن المرزبان حدثنى بعض كتاب السلطان أن هارون الرشيد هب ليلة من نومه فدعا بحمار كان عنده يركبه فى القصر فركبه وخرج فى دراعه ومشى متلثما بعمامة متلحفا بإزار ومشى وبين يديه أربعمائة خادم سود سوى الفراشين، وكان مسرور الفرغانى جريئًا عليه لمكانة كانت له عنده فلما خرج من باب القصر قال له أين تريد يا أمير المؤمنين فى هذه الساعة قال أردت منزل إبراهيم الموصلى قال مسرور فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم الموصلى فخرج فتلقاه وقبل حافر حماره وقال له يا أمير المؤمنين أفى مثل هذه الساعة تظهر قال نعم شوق طرقك بى ثم نزل فجلس فى طرف الإيوان وأجلس إبراهيم فقال له إبراهيم يا سيدى أتنبسط لشىء تأكله قال نعم فجاء بطعام كأنما كان معدا له فأصاب منه شيئًا يسيرا ثم دعا بشراب حمل معه فقال الموصلى يا سيدى أغنيك أم تغنيك أماؤك قال بل الجوارى فخرجت جوارى إبراهيم فأخذن صدر الإيوان وجانبيه فقال إبراهيم أيضربن كلهن أم واحدة واحدة فقال بل تضرب اثنتان اثنتان وتغنى واحدة ففعل ذلك حتى مر صدر الإيوان وأخذ جانبيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشىء من غنائهن إلى أن فنته صبية من حاشية الصفة شعرا لأبى نواس:

يا موردى الزند قد أعييت قوادحه ... أقبس إذا شئت من قلبى بمقياس

ما أقبح الناس فى عينى وأسمجهم ... إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فطرب الرشيد لغنائها واستعاد الصوت مرارا وشرب أرطالا وسأل الجارية عن صانعه فأمسكت فاستدناها فتقاعست فأمر بها فأقيمت بين يديه فأخبرته بشيء أسرته إليه فدعا بحماره فركب وانصرف ثم التفت إلى إبراهيم فقال له ما ضرك أن لا تكون خليفة فكادت نفسه أن تخرج حتى دعا به بعد ذلك وأدناه قال وكان الذى أخبرته به الجارية أن الصنعة فى الصوت لأخته علية بنت المهدى، وكانت الجارية لها فوجهتها إلى إبراهيم ليطارحها.

وقريب من هذه الحكاية ما حكى عن إبراهيم الموصلى أيضًا أنه قال: قال لى الرشيد بكر حتى تصطبح فقلت أنا والصبح فرسا رهان نستبق إلى حضرتك فبكرت فإذا أنا به خال وبين يديه جارية كأنها غصن بان أو جدل عنان حلوة المنطق فغنت شعرا لأبى نواس وهو:

توهمه طرفى فأصبح خده وفيه مكان الوهم من نظرى أثر

ومر بفكرى خاطرا فجرحته ولم أر جسما قط يجرحه الفكر

وصافحه كفى فآلم كفه فمن غمز فى أنامله عقر

قال إبراهيم فذهبت والله بعقلى حتى كدت أفتضح فقلت من هذه أمير المؤمنين قال هذه التى يقول فيها الشاعر:

لها قلبى الغداة وقلبها لى فنحن كذاك فى جسدين روح

ثم قال لها غنى فغنت شعرا:

تقول غداة البين إحدى نسائهم لى الكبد الحرى فسروالك الصبر

وقد خنقتها عبرة فدموعها على خده بيض وفى نحرها صفر

قال وشرب سقاها وقال غن يا إبراهيم فغنيت حسبما فى قلبى غير متحفظ من شيء:

تشرب قلبى حبها ومشى به نمشى حميا الكاس فى جسم شارب
ود هواها فى عظامى فشفها كما دب فى الملسوع سم العقارب

قال ففطن لتعريضى وكانت جهلة منى فأمرنى بالانصراف ولم يدع بى شهرا ولا حضرت مجلسه فلما كان بعد شهر دس إلى خادما معه رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات:

قد تخوفت أن أموت من الوجـ ـد ولم يدر من هويت بما بى
يا كتابى اقرأ السلام على من لا أسمى وقل له يا كتابى
كف صب إليكمو كتبتنى فارحموا غربتى ورد جوابى
إن كفا إليكم كتبتنى كف صب فؤاده فى عذاب

فأتانى الخادم بالرقعة فقلت ما هذه قال رقعة فلانة الجارية التى غنتك [illegible] فأحسست بالقصة فشتمت الخادم والجارية ووثبت عليه [illegible] ى الرشيد من وقتى فأخبرته [illegible] ثم قال على عمد فعلت ذلك [illegible] صاحب قطب السرور حكى

، ودمعى بالهوى يتكلم
، من أهوى يجور ويظلم
ـ بدرا قبلها يتبسم

وقولها أيضًا:

إن كتمت الهوى تزايد سقمى وأخاف العيون حين أبوح

لأبوحن بالذى فى ضميرى من هواه لعلنى أستريح

وأبدل أبيات إبراهيم أيضًا بقوله:

إذا ما كتمنا الحب نمت عيوننا علينا وأبدته الدموع السواكب

وإن نحن أخفينا ضمائر حبنا أشارت بتسليم علينا الحواجب

قال إبراهيم ثم أمر لى بصلة سنية والله يعلم إنى ما فعلت ذلك عفافا لكن خوفا.

وأعجب من ذلك وأصعب ما اتفق أن الوزير أبا عامر أحمد بن مروان ابن عبد الملك بن عمرو بن عيسى بن محمد بن شهيد كان أهدى له غلام من النصارى لا تقع العيون على أحسن منه فلمحه الناصر فقال أنى لك هذا قال هو من عند الله تعالى فقال تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر فاستعذر واحتفل فى هدية بعثها له مع الغلام وقال له كن داخلا فى جملة الهدية ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى وكتب معه يقول:

أمولاى هذا البدر سار لأفقكم وللأفق أولى بالبدور من الأرض

أرضيكمو بالنفس وهى نفيسة ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

فحسن ذلك عند الملك وأتحفه بمال جزيل وتمكنت عنده مكانته ثم أهديت بعد ذلك للوزير جارية من أجمل نساء الدنيا فخاف أن ينمى ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقضية الغلام فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى وأرسلها مع الجارية وكتب معها يقول:

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا تقدم كيما يلتقى القمران

قران لعمرى بالسعادة ناطق فدم منهما فى كوثر وجنان

فما لهما والله فى الحسن ثالث ولا لك فى ملك البسرية ثانى

قال فتضاعفت مكانته عنده ثم وشى به بعض الأعادى عند الملك وقال إنه قد بقيت فى نفسه من الغلام حرارة وإنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه ريح الشمول ويقرع ألسن على تعذر الوصول إليه فقال الملك للواشى بذلك لا تحرك به لسانك وإلا طار رأسك وعمل الملك حيلة فكتب على لسان الغلام رقعة فيها يا مولاى تعلم أنك كنت لى على انفراد ولم أزل معك فى نعيم وأنا وإن كنت عند السلطان مشارك المنزلة محاذر ما يبدو من سطوة الملك فتحيل فى استدعائى منه وبعثها له مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول له هى من عند فلان وإن الملك لم يكلمه قط فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم أحس بالشر به وكتب على ظهر الرقعة يقول:

أمن بعد أحكام التجارب ينبغى لدى سقوط العير فى غابة الأسد

وما أنا ممن يغلب الحب عقله ولا جاهل ما يدعيه أولوا الحسد

فإن كنت روحى قد وهبتك طائعا وكيف يرد الروح إن فارق الجسد

ولما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد إلى استماع واش به ودخل عليه بعد ذلك فقال له كيف خلصت من الشرك قال لأن عقلى بالهوى غير مشترك. انتهى ما أوردناه من حكايات أرباب الملاهى وبدائع تفاصيلهم والآن تشرع فيما ورد من مقاطيع مدحهم التى هى أطرب من مواصيلهم والله تعالى يختم بخير.

قال أبو الحسن الطيب:

قالوا على الريق تهوى الشرب قلت لهم نعم على ريق ظبى طيب النغم

إن المدام وإن جلت محاسنها غم بلا نغم سم بلا دمم

وقال ابن سناء الملك:

يا مطربا بغنائه وجماله يزداد فيه تشوقى وتشوفى

شيئان فيك صبا الفؤاد إليهما نغمات داود وصورة يوسف

وقال أبو إسحق بن خفاجة الأندلسى:

أمسى يقر لحسنه بدر الدجا وغدا يذوب للحنه الجلمود

فإذا بدا فكأنما هو يوسف وإذا شدا فكأنه داود

وقال السراج الوراق:

ومغرد فتن الورى بفصاحة وصباحة فاسمع ولنظر

يفتر عن درين من ثغر ومن شعر فينطق عن صحاح الجوهرى

وقال زين الدين بن الوردى:

رب مغن ذكر لفظه مؤنث يسلب منى الفؤاد

وكلما أنث لى صوته وبان لى ناديت بانت سعاد

ابن الزين لبيكم:

بالروح أفدى مغن بديع حسن جميل

قد حاز فيه ضروبا فيها تحار العقول

فالحصر منه خفيف والردف منه ثقيل

قال علاء الدين بن أيبك فى مغن معذر:

منمنم العارض غنى لنا أشياء فى السمع حلا ذوقها

كأنما فى فيه قمرية تشدو ومن عارضه طوفها

وقال ابن الوردى فى مليحين أحدهما يغنى والآخر ساكت:

مجلسكم مجلس هنى يجعل مال البخيل فيا

وفيه طبى يقول شىء وأغيد لا يقول شيا

وألطف ما سمعت فى هذا النوع لابن القيسرانى:

والله لو أنصف الندمان أفسهم أعطوك ما ادخروا منها وما صانوا

ما أنت حين تغنى فى مجالسهم إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة فى مليح مغنى يعرف بالشرابى:

غنى الشرابى وسقوا مدامة أعذب من مودة الأحباب

شربتها عند سماع صوته سكرت فى الحالين فى الشراب

وله فى مليح منشد يعرف بأبى الطيب:

المرء مفتون بأشعاره لا فى سماع المرقص المطرب

ألا أنا فى الشعر مع دقتى أفتن من قول أبى الطيب

وما أحسن قول بعضهم:

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن

غنت فلم يبق فى جارحة إلا تمنيت إنها أذن

ولطيف قول بعضهم فى مغنية مسحرة:

عجبت فى رمضان من مسحرة قالت ولكنها فى قولها ابتدعت

تسحروا يا عباد الله قلت لها كيف السحور وهذى الشمس قد طلعت

وقال بدر الدين بن الصاحب فيها:

غنت فأغنت عن كؤوس الطلا بالسكر من لذات تلك اللحون

فقلت إذ هيمنى صوتها فى مثل ذا الحلق تروح الذقون

وقال الصفدى فى هذا المعنى:

قلت له إذ هزلى ذقنه ولام فيها ذبت من عشقها

تذكر إذ غنت فنادى نعم فقلت وأشواقى إلى حلقها

وقال آخر:

لا مرحبا بمغن طوى المسرة عنا

قال الندامى جميعا لما تغنى تعنى

يا ليته ما تغنى بل ليته مات عنا

وقال غيره:

ومغن يتغنى اذهب اللذات عنا

فسألناه سكوتا فأبى ذاك وغن

فشتمناه فغنى فاشتفى العواد منا

وقال آخر:

ومـــــــــغـنى أن تـغـنى أوسع النـدمـــان هـمـــا
أحـسن الـفـتـيـان حـالا كـل من كـــان أصـــمـــا

وقال شهاب الدين بن فضل الله فى مغنية سوداء:

يا رب ســودا لأجـفـانهـا كـمـا لبـيـض الهند تـأثيـر
يطـربنى تـرجـيـع ألحـانهـا وكـيف لا يـطرب شـحـرور

ما قيل فيه من الهجو:

ومغن بارد النغمة مختل اليدين ما رآه أحد فى دار قوم مرتين

وقال غيره:

ومغن يورث الندمان هما واعتماما لو يغنى فى حريق صار بردا وسلاما

وقال غيره:

كنت فى مـجلس فـقـال مـغنى الـ ـقـوم كم بيننا وبين الـشـتـاء
فـشـبـرت البـسـاط منى إليـه قلـت هذا المقـدار قـبل الغناء
وإذا مـــا همـت أن تتـــغـنى أذن الصـيف كـله بانقـضـاء

وقال آخر:

مـغنيـة ســوداء ألفـاظهـا تميت الـسـرور وتحـيـى الكروب
مـقـبـحـة الوجـه مـفلوجـة فـــلا لـلـزنـاء ولا للـطـروب

وقال آخر:

قلت إذا غنى عرافا ليتنا فى أصفهان

وقال غيره:

غنى أبو الفضل فقلت له ... سبحان مخليه من الفضل

غناه حد على شربه ... فاشرب فأنت اليوم فى حل

نادرة: حكى أن بعض الفلاسفة خرج مع تلميذ له فسمع صوت مغن فقال لتلميذه امض بنا إلى هذا المغنى يفدنا صورة شريفة فلما قربا منه سمعا صوتا رديا وتأليفا قبيحًا فقال لتلميذه يزعم أهل الكهانة والزجر أن صوت اليوم يدل على موت الإنسان فإن كان ذلك حقا فصوت هذا يدل على موت البومة فى مليح مغن بيده دف:

بروحى وروح الناس أفدى مغنيا ... بديع المحيا والملاحة والنطق

أقول له لما حوى الدف كفه ... أغثنا بقول منك يا مالك الرق

وقال الحكيم بن دانيال فى مغنية تضرب بالدف:

ذات القوم الذى يهتز غصن نقا ... لو مر يوما عليه طائر صدحا

تبدى على الدف كالجمار معصمها ... بنقرة ببنان يشبه البلحا

غناؤها برقيق الغنج تمزجه ... فما ينقط إلا كل من رشحا

المعمار فى مشبب:

ومشبب أبدى لنا ... قولا بزخمته القوية

متغاشم فكأنه ... متكلم بالفارسية

وقال فيه:

هو يتـــه مـــشـــبـــبـــا جـــــمـــــالـه برح بـى

تيـم قلبى بـالحـــجـــا زمن عـــيـــون القـــصب

وقال ابن قرناص مضمنا فيه:

مـشـيت بجـفـاه راح يقـتـلنا فـــإن تداركنا بـالنفخ أحـــيـــانا

هويت تشـبـيـه من قـبل رؤيـتـه والأذن تعـيشـق قبل العين أحـيـانا

وقال بدر الدين بن الصاحب:

أطـربنـا مـــشـــبـب من غـــيـــر جـعل سـأله

يا حـسـن مـوصـول له لم يـفـتـقـر إلى صـله

وقال المعمار فى مغن ومشبب:

مـــغنيـــا نـافـســـه مـــشـــبـب لما جلس

فـــذاك لأن قـــولـه وذا تـكـلـم بـنـفـس

ابن قرناص فيه:

علقـتـه مـشـبـبـا مـهـفـهـفـا أخـضـع فى حبى له فـيـشـمخ

لا غـرو أن تشب من تشـبـيـه نار الجـــوى أمـــا تـراه ينـفخ

وقال الصفى الحلى من قصيدة:

بتنا وكـاساتنا صـرعى ومـطربنا يعـيـد أرواحنا من مـبـدأ الطرب

بعث أتـانا فلم نـعلم لفـــرحـتـنا من نفخة الصور أم من نفخة القصب

وقال سيف الدين المشد:

ومطرب قد رأينا فى أنامله شبابة لسرور النفس أهلها

كأنه عاشق وافت حبيبته فضمها بيديه ثم قبلها

وقال القاضى جمال الدين بن عبد القادر التبريزى:

وناطقة بأفواه ثمان تميل بعقل ذى اللب العفيف

لكل فم لسان مستعار يخالف بين تقطيع الحروف

تخاطبنا بلفظ لا يعيه سوى من كان ذا طبع لطيف

فصيحة عاشق ونديم راح وعزة موكب ومدام صوفى

وقال تقى الدين بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز:

منقبة مهما خلت مع محبها يزودها لثما وينظرها شزرا

وتصحيفها فى كف من شئت فيصل فإن شئت فى اليمنى وإن شئت فى اليسرى

وكتب بعضهم إلى شرف الدين بن الحلاوى فيها:

وناطقة خرساء باد شجونها تلقنها هشر وعنهن تخبر

يلذ إلى الأسماع رجع حديثها إذا سد منها منخر جاش منخر

فأجابه مضمنا:

تهانى النهى والشيب عن وصل مثلها وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

وألم بهذا التضمين الأمير مجير الدين بن تميم أيضًا:

وشبابة قد كنت أهوى سماعها وقد صرت منها عندما تبت أنفر

وها أنا قد فارقتها غير نادم وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

وألم به ابن الوردى أيضًا فقال:

كم شـــبـــبت لـى فـــتـــاة من وجـهـهـا الصـبح يسـفـر
ولـو مـلكـت قـــبـــاى فـــارقـتـهـا وهـى تصـفـــر

وقال زين الدين بن عبد الله أيضًا:

ونائحـة صـفـراء تنـطق عن هوى فتـعرب عـما فى الضمـير وتخبر
براها الهوى والوجـد حتى أعارها أنابيب فى أجـوافهـا الريح تصفـر

فلت والأمير مجـير الدين بن تميم كان لهجا بالتضمين مـولعا به فقلما تجد بيتًا إلا ويضمنه وينقله إلى معنى آخر وإليه الإشارة بقوله:

أطـــالـــع كـــل ديـــوان أراه ولم أزجـر عن التـضـمين طيـرى
أضـمن كـل بيت فـيـه مـعنى فـشعـرى نصفـه من شعـر غيـرى

فمن تضامينه فى الشبابة أيضًا قوله:

ولما حـضـرنا للـسـمـاع وهزت الـ ـمـلاهى وكـل بالجـوى يتـرنم
أصـخـنا إلى تشـبـبـهم وغـنائهم فنحـن سكوت والهـوى يتكـلم

وألطف منه قول ابن عبد الظاهر:

وناطقـة بـالروح عن أمـر ربهـا تعـبـر عـمـا عندنا وتـتـرجم
سكتنـا وقـالت للقلوب فـاطربت فـحن سـكوت والهـوى يتـكلم

وألم به أيضًا شمس الدين الكوفى الواعظ حيث قال:

وفى كـفـهـا شبـابة تجـمع المنى فنحـن سكوت والهـوى يتكـلم
وينفخ فـيـهـا الروح روح بأمـرها ومـا هو جبـريل ولا هى مـريم

وقال سيف الدين المشد:

وعارية من كل عيب حبيبة ... إلى كل قلب ظل بالبين مجروحا
لها جسد ميت يعيش بنفخة ... إذا دخلته الريح صارت به روحا
تعيد الذى يلقى عليها بلذة ... تزيد فؤاد الصب وجدا وتبريحا
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى ... وتوحى إلى الأسماع أطيب ما يوحى

وقال فى زامر:

وزامر يبعث فى زمره ... إلى قلوب الناس أفراحا
كان إسرافيل فى نابه ... ينفخ فى الأموات أرواحا

وقال المحاربى الحلبى يهجو زامرة سوداء:

ولرب زامرة تهيج بزمرها ... ريح البطون فليتها لم تزمر
شبهت أنملها على مزمارها ... وقبيح مبسمها الشنيع الأبخر
بخنافس قصدت كنيفا فاغتدت ... تسعى إليه على خيار الشنبر

وقال الصفدى يهجو زامرا:

يقول فى مجلسنا زامر ... لم يلق ما يلقى بإصغاء
ما عندكم ميل إلى حاضر ... قلنا ولا شوق إلى نائ

الصنوبرى يهجو زامرة سوداء:

وكأنما المزمار فى أشداقها ... غرمول عير فى حياء أتان
وترى أناملها على مزمارها ... كخنافس دبت على ثعبان

ابن الزين لبيكم:

منقـرنـا بالطبلخـانة قـد غـدا بفـرط البـها والحـسن ينهى ويأمـر

ولما رأى عـقلى عـلى غـصن قـده غـدا طـائرا أضـحى عـليـه ينـقـر

وقال آخر فى مغن عواد:

فتن الأنـام بشـــدوه وبـعـــوده شـاد تجـمـعت الفـضـائل فـيـه

حـتـى كـان لسـانـه بيـمـينه وكـأن مـا بيـمـينه فى فـيـه

الشيخ برهان الدين القيراطى فيه مضمنا:

سمـعت أوصاف عـواد طربت لها فـبـت أنشـد إسـرارا وإعـلانا

يا قـوم أذنى لبـعض الحى عـاشقـة والأذن تعـشق قـبل الـعين أحـيـانا

وله فيها:

يا صاح قم فـالكاس صح مزاجـها ووفت لـك الأيام بالمـقـصـود

والعـود لاطفـه طبـيب بالـغنا درب إذا مـا جس نبض العـود

وقال فيه:

أقول إذا جس عـودا مطرب حسن يريـك يوصـف فى أنـغـام داود

من حسن وجهك تضـحى الأرض مشرقة ومن بنانك يـجـرى الماء فى العـود

وله فيها:

قلـت إذ حـرك عـودا عـارفـا بالنغـمـات

أنت مـفـتـاح سـرورى يا سـعـيـد الحـركـات

وقال فيه مضمنا:

يا صاح قد نطق الهزار مؤذنا أيليق بالأوتار طول سكاتها

أمحرك الأوتار إن نفوسنا سكناتها وقف على حركاتها

وقال ابن نباتة فيه مضمنا:

تكاد تنبت عيدانا يوافقها شاد يوافقه فى نطقه الوتر

درى الأصول وأداها بنغمته إن الأصول عليها ينبت الشجر

وله فيه مضمنا:

غنى على العود شاد سهم ناظره أمسى به قلبى المضنى على خطر

دنا إلى وجست كفه وترا فراحت الروح بين السهم والوتر

وقال أبو عبد الله:

تناسبت فيمن تعشقته ثلاثة تعجب كل البشر

من مقلة سهم ومن حاجب قوس ومن نغمة صوت وتر

بدر الدين الدماميني:

يا عذولى فى مسغن مطرب حرك الأوتار لما سفرا

ثم هز العطف منه طربا عندما تسمع منه وترا

أبو عبد الله محمد بن شرف القيروانى فيه:

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذى زكت منه أغصان وطابت مغارس

فغنى عليه الطير والعود أخضر وغنى عليه الناس والعود يابس

وقال ابن الوردى مقتبسا:

عـــــوادة عـــــوادة بـالـنـغـم المـلـذ

قـــــالـت لـنا أوتـارهـا أنـطـقـنـا الله الـذى

وفى المعنى قول الآخر:

فـــجـبـى لهـــذا العـــود لا ينـفك عـن غـــــرد الأوانـس

غـنت عـلـيـــه الـطـيـــر رطـ ـبـــا والـغـسـوانـى وهو يـابس

الصفى الحلى فيه:

عـــود حـوت فى الروض أعـواده كل المـعـانـى وهو رطب قـــويم

فـحاز سـجع الورق فى شـجـوها ورقـــة ألما ولـطف النسـيم

وقال ابن تميم فى عواد:

جـاءت بعـود كلمـا ألعـبت به لعـبت به الأشـواق والتـبـريح

غنت فـجـاوبهـا ولم يك قـبلهـا شـجـر الأراك مع الحـمـام ينوح

وقال فيه أيضًا:

وعـــود بن عـــاد الســـرور لأنه حوى اللـهو قدمـا وهو ريان ناعم

يغـــرد فى تـضـــريبـــه فكـأنه يعـيـد لـنا مـا لـقنتـه الحـمـائم

ابن حجاج فى العودية:

هذا ومـحـسنه بالعـود عـاشـقـهـا بذلك الطيب فى الإحساس مسرور

إذا أنثت ثم غنـت خلت قـامـتـهـا غصنا عـليه قبـيل الصبح شـحرور

وقال الصفدى مضمنا فيه:

جست مثانى عودها بأنامل ... عبثت باب الخاشع المتورع

وشدت فلو شاءت عذوبة لفظها ... عطفت عنان البارق المتشرع

وعجبت من ريح الصبا إذ لم تقف ... طربا ولكن ما لها أذن تعى

أبصرت يا عينى ما لم تبصرى ... وسمعت يا أذنى ما لم تسمعى

الشامى فيها:

وكأنه فى حجرها ولد لها ... ضمته بين ترائب ولبان

أبدا تدغدغ بطنه فإذا سها ... عركت له أذنا من الآذان

وقال ابن تميم فيها:

وفتاة قد راضت العود حتى ... عاد بعد الجماح وهو ذلول

خاف من عرك أذنه إن عصاها ... فلهذا كما تقول يقول

وقال آخر وأجاد:

أشارت بأطراف لطاف كأنها ... أنابيب در قمعت بعقيق

ودارت على الأوتار جسا كأنها ... بنان طيب فى مجس عروق

القيراطى يهجو عوادا:

عوادكم منطقه خارج ... وضربه ضرب من الحين

وعوده فى الكف من قبحه ... ما زال مثل العود فى العين

وللقيراطى فيه أيضًا:

لا عـــــاد غـــــدا بيننـا فـــالأنس والراحـــة فـى بينه
فى يـده عـــود أعـــيـــذ الورى منـه فليت العـــود فى عـــينه

وقال المصيصى الخياط فيه:

وإذ تربع لا تربع بعـــــدها وغدا يحرك عوده متقاعسا
فكـان جـــرذان المدينة كلهـــا فى عـوده يقرضن خبزا يابسا

وقال شمس الدين محمد الواسطى فى عواد وزامر:

شـبـهت ذا العـواد والزمـار إذ ضـــاقت علينا بهـــمـــا المناهج
بعـقـرب يضـرب وهو سـاكت وأرقـم ينفخ وهـو خـــــارج

سيف الدين المشد:

عـــوادنا قـــد طمـــست عـينه فـصـار بالتـصـحـيف قـوادا
مـــا عـــــاد إلا لقـــيـــاداته لأجـل ذا أصـــبح عـــــودا

وقال الصفدى فيمن يضرب بالقانون:

لى مطرب كـملت جميع صفاته متـأدب بالحـركـات والتـسكين
فـــإذا دعـــاه لمجلس ندمـــاؤه ويأتى ويجلس فـيـه بالـقـانون

القاضى فتح الدين بن الشهيد فيه:

غنى عـلى القـانون حـــتى غـدا من طرب يـهـتـز عطف الجليس
فـــحـنت الأرواح من شـــدوه إلـى أنـيـس يـا لـه من أنـيـس
داوى قـلـوبـا من غـلـيـل الأسـى وكـان فـيـهـا من هواه رسـيس
فـصـاحت الجلاس عـجـبـا به يا صـاحب القـانون أنـت الرئيس

الشيخ شهاب الدين بن حجر فى جارية تضرب بالكمنجا:

مـا بالهـا هجـرت وكم مـر لى منهـا الرضى فى سـالف الأعصـار

وقـضيت منهـا إذ شدت بكمنجـة مـا بين سـالف نـغـمـة أوطارى

الشيخ شمس الدين النواجى (مؤلف هذا الكتاب):

أنهض خليلى وبادر إلى سماع كمنجا فليس من صد منا وراح عنا كمنجا

الشيخ بدر الدين الدماميني فى جارية تدق بالكف:

لقـد دقت بكفـيـهـا فـتـاة صـفـت منهـا خـلائقـهـا ورقت

فـأقـد بهـا مـغنيـة رأينا بهـا الأفـراح حلت حين دقت

المعمار فى جارية تدق على الكعبين:

وجـارية مـغنيـة بلطف عـلى الإيقـاع بـالكـعـبين دقـت

وغـنـت ثـم رقـت لـى بـعـطـف فـقـمت قطعتـهـا من حيث رقت

النور الأشقر فى جارية جنكية:

لبنت شـعـبـان جنك حين تضـربه يغدو بأصناف ألحـان الهوى هازى

لاغرو وإن صاد ألبـاب الرجال بها أمـا تراه يحـاكى مـخلب البـازى

الصفى الحلى فى مليح راقص:

ورنـح الرقـص مـنـه عطـفـا حـف به الـلطـف والـدخـول

فـعـطفـه داخـل خـفـيف وردفـه خـارج ثقـيـل

وقال ابن الوردى فيه:

يرقص عجبا وله خصر وردف مايج
فذا خفيف داخل وذا ثقيل خارج

وقال غيره وأجاد:

وراقص أبصرته مرة فلم أزل بالرقص مفتونا
لو قيل شعر بين كسره صيره بالرقص موزونا

ابن عربى فى مليح أبى أن يرقص فى السماع:

وسماع شهدته مع حبيب بان لى فيه وجهه عن ضياء
رقص القوم والذى همت فيه واقف مثل صعدة سمراء
يا حبيبى لم لا تدور فنادا نى وهل حرك الجميع سواءى

قال الحكيم:

ذات القوام الذى يهتز غصن نقا لو مر يوما عليه طائرا صدحا
تبدى على كما الجمار معصمها لنقرة بنان يشبه البلحا
غناؤها برقيق الغنج تمزجه فما ينقط الأكل من رشحا

أبو الحسن على بن أبى اليسر فى مليحة راقصة:

هيفاء إن رقصت فى مجلس رقصت قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطوتها فى جفن دى رمد لم يعرف الوصبا

القيراطى فى مليح مخايل:

ومـخـايل نبت العـذار بخـده وله مـخـايل باللاحـة تشـهـد

لما رآنى قـانعـا بـخـيـاله ترك العـذار بوجنتيـه يسـود

وقال الصفدى فيه:

هويت خياليا حكى الغصن قده إذا ما انثنى هاجب عليه البلابل

أراق دم العشاق سيف جفونه ومن بعد ذا أضحى عليهم يخايل

الوجيه المناوى فى جارية تلعب بخيال الظل:

وجارية معشوقة اللهو أقبلت بحسن كزهر الروض تحت كمام

إذا ما تغنت قلت شكرى صبابة وإ رقصت قلنا حباب مدام

أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس تحت غمام

* * *

الباب الخامس عشر
فى الشموع والفوانيس والسرج وغير ذلك

قال بعضهم فى الشمعة:

بيضاء مثل القضيب قامتها ... ضياؤها والظلام منتدب

كأنها حين أوقدت وبدت ... رمح لجين سنانه ذهب

وقال فيها محمد بن على الوزير صاحب النعمان:

وطفلة كالرمح شاهدتها ... سنانها من ذهب قد طبع

دموعها تنهل فى نحرها ... ورأسها يحيا إذا ما قطع

وقال على بن سعيد الأندلسى:

ومجلس أنس زينته عرائس ... تزيد لا وصلا إذا ما قطعناها

إذا طعنت صدر الظلام برمحها ... ترد بسيف الصبح منه فأفناها

وقال صفى الدين الحلى:

أهلا بها كالقضب فى هيجانها ... جعلت شواظ النار من تيجانها

شهب إذا جلب الظلام جيوشه ... جلبت جيوش الصبا قبل أوانها

مأسورة تحيا بقطع رؤوسها ... وتزيد نطقا عند قطع لسانها

باحت أسرة وجهها بسرائر ... ضاقت صدور الليل عن كتمانها

زهر حكت خد الحبيب وإنما ... تحكى فؤاد الصب فى خفقانها

ابن خفاجة الأندلسى:

وصعدة لبست سربال مشتهر ... بالحب منغمس فى الدمع والحرق

ما زال يعطن صدر الليل يهزمها ... حتى بدا سائلا منه دم الشفق

القاضى الفاضل:

بكت مثل ما أبكى وفاضت دموعها ... ولم تفش أسرار كفيض دموعى

إشارة مظلوم وعبرة عاشق ... ووقفة مأمور ولون مروع

أقامت إلى حرب الظلام أسنة ... فلم يلقها إلا بخلع دروع

الحلى الكاتب:

ومخذولة باتت تعين على الدجى ... وتحكى الذى ألقاه فى الحب أجمعا

سهاد وسقما واصفرار وقرحة ... ووقدا وصبرا وانتصابا وأدمعا

محاسن الشواء:

حكتنى وقد أودى بى السقم شمعة ... وإن كنت صبا دونها متوجعا

ضنى وسهاد واصفرار ورقة ... وصبرا وصمتا واحترافا وأدمعا

وقال غيره فيها:

وأنيسة لى فى الظلام وحيدة ... باتت مجاهدة كمثل جهادى

اللون لونى والدموع كأدمعى ... والوجد وجدى والسهاد سهادى

ولا فرق فيما بيننا لو لم يكن ... لهبى خفيا وهو فيها بادى

أبو محمد صاحب ديوان المكاتبات:

وصعدة لدنة كالتبر تفتق فى ... جنح الظلام إذا ما أبرزت قلقا

تدنو فيحرق برد الليل يهدمها ... وإن نأت رتق الظلام ما فتقا

وتستهل بماء عند وقدتها ... كما تألق برق الغيث واندفقا

كالصب لونا ودمعا والتظا وضنى ... وطاعة وسهاد دائما وشقا

والحب حسنا ولينا واستوا وشدا ... وبهجة وطوقا واجتلا ولقا

وقال آخر فيها:

وقد قلت للشمعة إنى وأنـ ... ـت محبان نسهر حتى النهار

سوى أن دمعى ذوب العقيق ... ودمعك يشبه ذوب النضار

ونارك تطفأ وقت الصبا ... ح ونارى دائمة الاستعار

مؤيد الدين الطغرائى:

تشبهت بى طول الليل ناحلة ... صفراء أفنى قواها الدمع والأرق

لها من النار روح فوق مفرقها ... تدب فيها فلا يبقى لها رمق

تكابد الليل تفنيه ويأكلها ... والليل يضحك إذ تبكى وتحترق

فقلت ما أنت مثلى أنت فى دعة ... طول النهار وليلى كله أرق

ابن الجلال:

وصحيحة بيضاء تطلع فى الدجى ... صبحا وتشفى الناظرين بدائها

شابت ذوائبها أوان شبابها ... واسود مفرقها أوان فنائها

كالعين فى طبقاتها ودموعها ... وسوادها وبياضها وضيائها

زين الدين بن الوردى:

ممشوقة مثل صدر الرمح عارية ... قد توجت بتطير الكوكب السارى

تبكى إذا ضحكت جلاسها فرحا ... فالقوم فى جنة والشمع فى نار

سيف الدين المشد:

ولم أر مثل شمعتنا عروسا ... تجلت فى الدجى ما بين جمع

كأن عقودا أدمعها عليها ... سلاسل فضة أو قضب طلع

وقال مجير الدين بن تميم:

عياله أتى يزور بشمعة ... وضياؤه ينشى الظلام نهارا

وأظنها لما تلهب قلبها ... حسدا أسالت دمعها مدرارا

وغدت لفرط الغليظ تعطى كل من ... وافى ليقطع رأسها دينارا

وقال أيضًا فى طوافة:

لينة الأعطاف لا ... ينكر فضل قدرها

حياتها فى طيها ... وموتها فى نشرها

وقال آخر:

إذا مرضت طال منى اللسان ... ومد المداوى إليها يدا

ويقطف من رأسها الجلنار ... فيرجع إهليلجا أسودا

مجير الدين بن تميم وقد أوقد شمعة من دار جاره:

لما أزرتك شمعتى لتنيرها ... جاءت تحدث عن سراجك بالعجب

وافته حاسرة فقبل رأسها ... وأعادها نحوى بتاج من ذهب

بدر الدين الذهبى:

وذى قـــــــــرام أهيـف ... بين النـدامى قـــــد نشط

قـــام يقط شـــمـــعـــة ... فـــــهل رأيت الظبى قط

وأجاد القاضى الأرجانى:

تمت بإسرار ليل كان يخفيها ... وأطلعت قلبها للناس من فيها

غريقة فى دموع وهى تخرقها ... أنفاسها بدوام من تلظيها

تنفست نفس المجور إذ ذكرت ... عهد الخليط فبات الوجد يبكيها

يخشى عليها الردى مهما ألم بها ... نسيم ريح إذا وافى يحييها

بدت كنجم هوى فى أثر عفرته ... فى الأرض فاشتعلت منها نواصيها

نجم رأى الأرض أولى أن ينورها ... من السماء فأمسى طوع أهليها

كأنها ضرة للشمس حاسدة ... فكلما حجبت قامت تحاكيها

وحيدة بشباة الرمح هازمة ... عساكر الليل إذ حلت بواديها

ما طنبت قط فى أرض مخيمة ... إلا وأقمر للأبصار داجيها

لها غرائب تبدى من محاسنها ... إذا تفكرت يوما فى معانيها

فالوجنة الورد إلا فى تناولها ... والقامة الغصن إلا فى تثنيها

قد أثمرت وردة حمراء طالعة ... تجنى على الكف أن أهويت تجنيها

ورد تشاك به الأيدى إذا قطفت ... وما على غصنها شوك يوقيها

صفر غلائلها حمر عمائمها ... سود ذوائبها بيض لياليها

وصيفة لست منها قاضيا وطرا إذا أنب لم تكسها تاجا يحليها

ما أن تزال تبيت الليل لاهية وما بها علة فى الصدر تصميها

تحيى الليالى نورا وهى تقتلها بئس الجزاء لعمر الله تجزيها

مفتوحة العين تقضى ليلها سهرا نعم وإفناؤها ياه يفنيها

وربما نال من أطرافها مرض لم يشف منه بغير القطع شافيها

السراج الوراق فى دخان الشمعة:

وأيام لهو وصلنا بها ليالى نشوانها لا يفيق

تغيب صبحا دخان الشموع وتشرق عند المساء الرحيق

فتحسب أن الغبوق الضبوح وتحسب أن الصبوح الغبوق

أبو الحسن على بن عبد الرحمن الصقلى الكاتب فى خيال الشمع على الماء:

شربنا مع غروب الشمس شمسا مشعشعة إلى وقت الطلوع

وضوء الشمس فوق النيل باد كأطراف الأسنة فى الدروع

وقال فى ليلة مهرجان وقد أوقد الشموع والنيران فى النيل وركب فيه:

أبدعت للناس منظرا عجبا لا زلت تحيى السرور والطربا

ألفت بين الضدين مقتدرا فمن رأى الماء خالطا اللهبا

كأنما النيل والشموع به أفق سماء تألفت شهبا

قد كان من فضة قصيرة توقد النار فوقه طهبا

القاضى الفاضل:

والشمع فوق النيل تحسب أنه ... من لجة قد أطلع المرجان

والماء درع والشموع أسنة ... ولها إذا خفق النسيم طعان

فى مليح حامل شمعة:

لم أنسه إذ جاء يحمل شمعة ... كالبدر ليلة تمه فى سعده

فكان لين قوامها فى قده ... وكان حمزة ناره فى خده

وقال آخر فيه وأجاد:

ومليح قد جاء يحمل شمعة ... وعى وجهه من النور لمعة

فهو فى النور مثلها وهى مثلى ... ليس ترقا له من الحزن دمعة

وقال آخر فيه وأجاد:

أفدى مليحا ظل يحمل شمعة ... فى عشقه لا يحسن التوبيخ

فكأنه وكأنها فى كفه ... بدر توقد دونه المريخ

ابن المعتز فى مليح اسمه عثمان بيده شمعتان:

وافى إلى بشمعتين ووجهه ... بضيائه يزهو على القمرين

ناديته ما الاسم يا كل المنى ... فأجابنى عثمان ذو النورين

ابن تميم وقد أطفأ الشمعة حين زاره حبيبه:

ومخطفة أوقدتها جنح ليلة ... وقد زار من أهوى وتم بها أنسى

فاطفأتها إذ أشرقت شمس وجهه ... ومن سفه أن يوقد الشمع فى الشمس

وفى هذا المعنى قول بعضهم:

يا حامل الشمعة فى كفه ووجهه يغنيه عن شمعته

ما تصنع الشمعة فى كف من بدت لنا الشمس على قامته

وقال المعمار فى هذا المعنى أيضًا:

لا تنور فى مقامى شمعة من غير حاجة

قد كفانا طلعة البـ ـدر ومصباح لزجاجة

المولى الفاضل شهاب الدين الحجازى مضمنا فى مليح مالت إلى خده شمعة:

رأيت بمجلس رشأ مليحا وحمرة خده من خمر فيه

فمالت شمعة للخد منه وشبه الشيء منجذب إليه

ومن النكت اللطيفة أن مجير الدين الخياط الدمشقى كان يتعشق غلاما من بنى الأتراك ثم أنه سكر فى بعض الليالى وخرج فوقع فى الطريق فمر محبوبه عليه فرآه مطوحا فعرفه ونزل عن فرسه وأوقد شمعة وأقعده ومسح وجهه فنقطت الشمعة على خده فأحس بالحرارة وفتح عينيه فرأى محبوبه على رأسه فاستيقظ من سكرته وأنشد فى الحال:

يا محرقا بالنار وجه محبه مهلا فإن مدامعى تطفيه

حرق بها جسدى وكل جوارحى واحذر على قلبى لأنه فيه

وألطف من ذلك ما أورده صاحب روضة الجليس ونزهة الأنيس ذكر أنه كان بإفريقية رجل نبيه شاعر مفلق وكان يهوى من غلمانها شابا جميلا فاشتد

كلفه به، وكان الغلام يتجنى كثيراً ويعرض عنه فانفرد بنفسه ليلة جمع فيها بين سلاف الراح وسلاف الذكر فتزايد به الوجد وغلب عليه السكران سكر الشراب وسكر الصبابة، فلم يتمالك أن قام على الفور ومشى حتى انتهى إلى باب محبوبه وهو لا يشعر ومعه قبس نار فوضعه عند باب الغلام فلعبت النار بالخشب وهو لا يشعر فلما دار النار بالباب دارت الناس لإطفائها ووجدوا الرجل عند الباب فأمسكوه واعقلوه، فلما أصبحوا نهضوا به إلى القاضى وأعلموه بفعله فقال له القاضى ما حملك على ذلك، فقال مرتجلا:

لما تمادى على بعادى ... وأضرم النار فى فؤادى

ولم أجد من هواه بد ... ولا معينا على السهاد

حملت نفسى على وقوفى ... ببابه حملة الجواد

فطار من بعض نار قلبى ... أقل فى الوصف من زناد

فأحرق الباب دون علمى ... ولم يكن ذاك من مرادى

فرق القاضى لارتجاله الغرامى وحسن انسجامه وتحمل عنه جناية الباب.

ما قيل فيها من النثر

كتب الأديب الفاضل شرف الدين عيسى بن حجاج العالية الشهير بعريس إلى القاضى فخر الدين بن مكانس تغمدهما الله برحمته يقبل الأرض التى شاقه ترابها لموطئ الأقدام الفخرية فزاد إعجابا وقال المسك يا ليتنى كنت ترابا وينهى أنه أقبل على المطالعة والباقى من العشر ليالى خمس واستهدى بنجوم فرائدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس، ولما أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة بلسانها وتناولت طرف شاشة بيد نيرانها فهب المملوك

وأخمد منها ما تصاعد من الأنفاس وقابلها على حرق الشاش بقطع الرأس وأنشد:

إني جلست بشمعة موقودة . لأطالع الأسفار للتسبيح

من قبل حرق الشاش كنت مطالعا في الكتب صرت مطالعا في الروح

ومن رسالة الشيخ الإمام العلامة ضياء الدين محمد بن الأثير تغمده الله برحمته، وكان بين يديه شمعة تعم مجلسى بالإيناس وتغنى بلطفها عن كثرة الجلاس. وكانت الريح تلعب بلهبها وتختلف على شعبها فطورا تقيمه فتصير أثملة، وطورا تميله فيستحيل سلسلة، وتارة تجوفه فتبقى مدهنة، وأخرى تجعله ذا ورقات فيتمثل سوسنه وآونة ينشر فيعود منديلا ومرة تلفه على رأسها فيستدير إكليلا ولقد تأملتها فوجدت نسبتها إلى العنصر العسلى وقدتها قد العسال وبها يضرب المثل للحكيم غير أن لسانها لسان الجهال، ومذهبها مذهب الهنود فإحراق نفسها بالنار وهى شبيهة بالعاشق فى انهمال الدموع واستمرار السهر وشدة الاصرار وكل هذا تجدد لها بعد فراق أخيها ودارها والموت من فراق الأخ والدار.

وقال من أخرى لها قد ألفى القوام مشبها فى تحوله واصفراره حال المستهام وهى والقلم شيئان فى أنهما إذا قطع رأسهما صحا بعد السقام ومن أعجب شأنها أنها تحيى بفناء جسمها وبالأرواح يكون حياة الأجسام، وقد وصفها قوم بأن لها خلقا كريما فى رعاية حقوق الإخوان، وإن بكاءها ليس إلا لمفارقة أخيها الذى خرجت معه من بطن ونشأت معه فى مكان وكانت الريح تلعب بلهبها لدى الخادم فتسلطه أشكالا فتارة تبرزه نجما وتارة تبديه هلالا وربما سطع طورا كالجلنار فى تضاعف أوراقها وطورا كالأصابع فى

انضمامها وافتراقها وآونة تأخذه فتلقيه على رأسها كالقناع ثم ترفعه عنها حتى يكاد يزاوله ذلك الارتفاع.

وقال ناصر الدين بن شافع من رسالة شمعة ما استتم نبتها فى روض الأنس حتى نور ولأنما بدوحة المفاكهة حتى أزهر وأومى نبات تبلجها إلى طرق الهداية وأشار ودل على نهج التبصر وكيف لا وهى علم فى رأسها نار كأنما هى قلم امتد بما أليق من ذهب أو صعدة إلا أن سنان ذهب تحيتها عموا صباحا تتألق فى فجرها وتمام بدرها فى أوائل شهرها قد جمعت من ماء دمعتها ونار توقدها بين قيضين ومن حسن تأثيرها وعين تبصرها بين الأثر والعين:

ولبعضهم مجدولة فى قدها ... تجلى لنا قد الأسل

كأنما عمر الفتى ... والنار فيها كالأجل

وقال ابن الأنبارى:

كان الشموع وقد أبرزت ... من النار فى كل رمح سنان

أصابع أعدائك الخائفين ... تضرع تطلب منك الأمان

وقال أيضًا:

وذات قوام تحاكى الألف ... لها فى دجا الليل دمع يكف

تموت إذا نكست رأسها ... وتحيى سريعا إذا ما قطف

وقال غيره:

ضـــاحكة بـاكـــيـــة خـدامـهـا جـلاسـهـا

هـــنـــديـــة أنـــوارهـــا إن حـــز منهـــا رأسـهـــا

كـــأنـهـــا عـــاشـــقـــة تذيبـا أنـفـاسـهـــا

ومما قيل فى شمعة الجلاس:

وشـــمـــعـــة كلـجين نشـر عـــادر أبدت شعـاعًا يحـاكى لونه الذهب

كـــأنهـــا مـــعـــصم من غـــادة وله كـيف تربرب بالحنا ومـخـتـضب

قبلتها حين حاكت كف من سلبت قلبى وعقلى وهـذا بعض ما يجب

ومن أخرى للقـاضى فخر الدين بن عبـد الظاهر فى حين ما شق زنجى الدجا عن ترائبه جيبا ونشر الظلام ضفـائره وقد اشتعل رأسه من النجوم شيبا فى ضوء شمعة نشرت على الورق رداء الأصيل وأخفت من الدحا سواد جفنه الكحيل وسـترت ذوائبه فى مصـفر أبهج من وجنتى بثينة لولا نهـا فى صفرة وجه جمـيل ما قيل فى وصف الفانوس للأمـير مجير الدين بن تمـيم مضمنا فيه:

أنظر إلى الفـانوس تلق مـتـيـمـا ذرفت على فـقد الحـبـيب دموعـه

يبـــدو تـلهب قـلبـــه لنـحـــوله وتعـد من تحت القـميص ضلوعـه

وأحسن منه قول ابن أبى حجلة مضمنا:

وكـــأنما الـفـــانـوس نجم طـالع منع الظلام مـن الهـجـوع طلوعـه

أو عـاشق أجـرى الدموع بحـرقـة من حـــر نار تحـتـــويـه ضلوعـــه

وألطف منه قوله مضمنا:

أنا فى الدجا ألقى الهوى وبمهجتى حرق يذوب بها الفؤاد جميعه
فكأننى فى الليل صب مدنف كتم الهوى فوشت عليه دموعه

وأبدع منه:

يحكى سنا الفانوس من بعد لنا برقا تألق موهنا لمعانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سحت به أجفانه

وقال فيه مضمنا:

أنا فى مقام الناصر السلطان لا أشكو إلى محبوب قلبى ما بى
فاصبر كصبرى فى المقام لأننى متجلد والنار تحت ثيابى

وقال ابن تميم مضمنا فيه:

يقول لنا الفانوس لما بدت له وفى قلبه نار من الوجد تسعر
خذوا بدى ثم اكشفوا الستر تنظروا ضنى جسدى لكننى أتستر

وله فيه أيضًا:

أبدى اعتذارا لنا الفانوس حين بدا فى حالة من هواه ليس ينكرها
وأى الهوى مضرما ما بين أضلعه نار الجوى فغدا بالثوب يسترها

وقال ابن الخيمى:

ومسامرى فى الليل مثلى ناحل متصعد الزفرات ملتهب الحشا
أضحى كما حكم الهوى ولهيبه ذا أضلع ما فوقها إلا الغشا

وقال آخر:

وكأنما الفانوس فى غسق الدجى صب يراه الشوق زاد سهاده

حنيت أضالعه ورق أديمه وجرت مدامعه وذاب فؤاده

وقال الوجيه المناوى:

كأنما الليل وفانوسنا يحلو دجى الظلمة للحس

لجة بحر قد طما موجه تسبح فيه كرة الشمس

ما قيل فى القنديل:

قال ابن العفيف:

ضنى باطنى حسنا كما رق ظاهرى وناجيت فتيانا من الشرب أكياسا

إذا نهضوا كنت الرفيق لهم إذا وإن جلسوا أمسيت فى الوسط جلاسا

وقال آخر فيه:

عجبت لقنديل تضمن قلبه زلالا ونارا فى دجى الليل يشعل

وأعجب من ذا أنه طول عمره يجن عليه الليل وهو مسلسل

غيره:

وقنديل كان الضوء منه سنا وجه الحبيب إذا تجلى

أشار إلى الدجى بلسان أفعى فشمر ذيله فرقا وولى

آخر وأبدع فى التشبيه:

وشادن مر والقنديل فى يده ما بيننا وظلام الليل معتكر

فكأنه فلك والماء فيه سما والنار شمس به والحامل القمر

ما قيل فى السراج:

قال ابن الرومى:

وحـــيـــة فـى رأســـهـــا درة تســبح فى بحـر قـصـيـر المدى
إن بعـدت كـان العـمى حـاضـرا وإن دنـت بان طـريق الـهـــدى

وقال ابن تميم فى سراج يوقد من سراج آخر:

أعلمـتـمـوا يا قـوم أن ســراجنا أمـسى وفـيـه فـضـيلـة لا تكتم
يأتى إليـه أخـوه حـاسـر رأسـه فـيـعـيـده فى الحـال وهو مـعـمم

حكى أن الوزير أبو بكر الشهـير بابن قزمان صاحب الأزجـال المشهورة قام فى مجلس فمال على السراج فانطفأ فاعتذر عن ذلك فى الحال بقوله:

يا أهل ذا المجلس السـامى سرادقـه مـا ملت لكننى مـالـت بى الراح
فإن أكن مطـفئا مـصباح أنـسكموا فكل من فـيكموا لـلبيت مـصبـاح

وكتب ابن أبى الخـصال إلى بعض أصـحابه عذر إليك أعـزك الله فإنى خططت والنوم منازل والسهر مزايل والريح تلعب بالسراج وتصول عليه صولة الحجـاج فطورا تبديه سنانا وطورا تحـركه لسـانا وآونة تطويه حبـابه، وأخرى تنشره ذؤابه وتقـيمـه إبرة لهب وتعطفه إبرة ذهب وتخلفـه نجما وتمده رجـما وتسل روحه من ذباله وتعيده إلى حباله وربما نصبـته إذن جواد ومسحته حتف جراد ومشقته خاطف برق ودق وكتمت سناه قنديله ولفت على أعطافه منديله فلاحظ منه للعين ولا هدية فى الطرس لليدين.

وما أحسن قولة القاضى الفاضل معتـذرا عن كتاب كتبه لبعض أصحابه ليلا: كـتبهـا المملوك ليلا وقد عـمشت عين السـراج وشابت لمة الدواء وكل

خاطر السكين وضاق صدر الورقة فإذا وقف سيدنا على هذا الكتاب فليقف على البيمارستان ويقل الباذنجان من هذا ولا يقل هذا من الباذنجان.

نادرة: اجتمع أبو الحسن الجزار والسراج الوراق فى مجلس أنس عند بعض الرؤساء فقام أبو الحسن إلى الخلاء ليقضى حاجته فقام السراج الوراق بين يديه بالشمعة فقال أبو الحسن ما عادتى أن أبول على السراج. قلت والسراج الوراق كان لهجا بذكر اسمه ولقبه وصناعته فى غالب شعره ومنادماته وكان لقبه قابلا للتنكيت معينا له على أغراضه حتى قيل له لولا لقبك وصناعتك لذهب غالب شعرك. وله فى ذلك أشعار لطيفة يطول شرحها هنا ولكن لا بأس بإيراد نبذة من محاضراته.

يحكى أنه أرسل غلامه يشترى له زيتا طيبا ليأكل به لفتا، فلما أحضره وصبه على اللفت وجده زيتا حارا فأنكر على الغلام فذهب به إلى الزيات وقال لم فعلت هذا بنا فقال يا سيدى مالى ذنب لأنه قال اعطنى زيتا للسراج.

وحكى عنه أيضًا: أنه دعى إلى زفة عرس فلما انصرف منها قال له بعض اللطفاء ما كان حالك يا سراج فقال ما حال ساج بين ألف شعل ومثل ذلك ما اتفق للقاضى فخر الدين بن مكانس مع صاحبه سراج الدين القوصى السكندرى فإنه كان حصل له طلوع فى جسده فتردد إليه المزين وصنع له فتائل على العادة فأتاه القاضى فخر الدين ليعوده فقال له ما حالك يا سراج فقال ما حال سراج فيه سبع فتائل والله أعلم.

* * *

الباب السادس عشر

في وصف مجلس الأنس بعد تمامه وترتيبه وانتظامه وما يلتحق بذلك من ذكر ليالى الصفاء وطرف من الخلاعة

ما قيل فى المجلس لبعضهم:

ومـــجلس راق من واش يكدره ... ومـن رقـــيب لـه بالـلوم إيـلام

ما فيه ساع سوى الساقى وليس به ... على الندامى سوى الريحان نمام

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

طربنا العـــود إلى أن غـــدا ... مـقـامنا يـرقص مع صـحـبـه

فـشـمـعـه قـام على سـاقـه ... وكـاسـه دار عـلى كـعـبـه

صفى الدين الحلى:

ومـــجلس لذة أمـــسى دجـاه ... يـضىء كـــأنه بـدر منيـــر

تجـمع فـيـه مـشـمـوم وراح ... وعـــيـــدان وولـدان وحـــور

تلذذت الحـواس الخـمس فـيـه ... بخـمس يستتم بـهـا السـرور

فكان الضم قسما اللمس منى ... وقـسـم الذوق كـاسـات تدور

وللســمع الأغـانى والغـوانى ... لأعـــيننا وللشم البـخـــور

القاضى فخر الدين بن مكانس:

أنظـر لمجلسنـا وكـاسـات بدت ... منها الشموس وليس فيها المشرق

وغـدا لنـرجـسـه وشـاذر وإنه ... عين مـسـهـدة وقلب يـخـفق

والشمع فى وهج وفرط تلهب وجوى يزيد وعبرة تتدفق

وقال الحمانى:

فى مجلس جعل السرور جناحه ظلالنا من طارق الحدثان

لا تسمع الآذان من جنباته إلا ترنم السن العيدان

أو صوت تصفيق الجليس ونقره وبكاء راووق وضحك قنانى

الشيخ برهان الدين القيراطى:

حبذا مجلس أنس ضمنا بعض شتات

مجلس يرقص فيه طربا قاضى القضاة

القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر:

فى مجلس ظهرت سرائر حسنه وجلت بصائرنا وجوه سروره

فكأنه فلك السما وكؤوسه كشموسه وسقاته كبدوره

وقال ابن عين البصل:

والراح فى راح الحبيب يديرها فى فتية جعلوا المسرة مغنما

فسقاتنا تحكى النجوم وراحنا تحكى الشموس ونحن نحكى الأنجما

وقال آخر:

كأن الندامى والسقاة ودننا وكاساتنا فى الروض تملى وتشرب

شموس وأقمار وفلك وأنجم ونور ونوار ومشرق ومغرب

وأجاد الشيخ علاء الدين الوداعى بقوله:

وليلة خلت مجلسنا سماء ... وصحبى كالثريا فى اجتماع

فبات الطرف يرعى البدر منهم ... إلى أن حل منزلة الذراع

وقال آخر:

مجرة جدول وسماء أنس ... وأنجم نرجس وشموس ورد

ورعد مثالث وسحاب كاس ... وبرق مدامة وضباب ند

وتلطف من قال:

ولما أن خلا المغنى وبتنا ... جميعا بالعفاف موزرين

قضينا الحج ضما واستلاما ... ولم نشعر بما فى المشعرين

وقال الشريف الرضى:

بتنا حبيبين فى ثوبى هدى وتقى ... يلفنا الشرق من فرع إلى قدم

وبات بارق ذاك الثغر يوضح لى ... مواقع اللثم فى داج من الظلم

وقال العفيف التلمسانى:

وبى ليلة قد طرت بالسعود ... فحدث بما شئت عن ليلتى

فما كان أحسن من مجلسى ... ولا كان أرفع من همتى

بشمس الضحاء وبدر الدجا ... على يمنتى وعلى يسرتى

وبت وعن خبرى لا تسل ... بذاك الذى وبتلك التى

وقال الفاضل:

بتنا على حال يسوء العدى وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقلنا له إن غبت عنا هجم الصبح

وقال آخر:

قلت وقد عانقته عندى من الصبح فلق
قال وهل يحسدنا قلت نعم قال انفلق

وتلطف من قال:

لم أدر والليلة الغراء تجمعنا ونفحة الروض بالأزهار تأتينا
أنغمة العود أم أدنان صحبتنا أرق أم راحنا أم وجه ساقينا

وتلطف الصلاح الصفدى فى هذا المعنى:

أقول له وقد رق عيشى والصبا وخمرى وكاساتى وصوت الذى غنى
فقال الذى أهوى وخصرى نسيته فقلت له والله قد جئت فى المعنى

وقال آخر:

عندى رشيق القوام يسبى بفنج لحظ ولين قد
أشرب من ريقه مداما من وجنتيه بماء ورد
وأقطع الوقت بين لثمى آس عذار وورد خد
وأهصر الغصن باعتناق ما بين غور له ونجد
سادة جمعوا المعالى ما بين أكرومة ومجد
لم يبد منهم قبيح قول ولا تجاف ولا تعدى
ولم أشاهد سوى وفاء ومحض ود بغير حقد

ينشـــــد هذا بديع نظم ... بحـــسن لفظ من غـــير رد
وذاك يحكى من كل فن ... مـــا بين هزل وبين جـــد
وعـــندنا مطرب أديب ... يعلو على رتبة ابن عبد
وفيه معشوقة التثنى ... لينة العطف ذات نهـــد
تبـــسم عن لؤلؤ ثمين ... منظومـــة لم يكن بعـــقد
بقرعها والجبين أضحت ... تضل عشاقها وتهدى
لى نشـــوة كلمـــا تغنت ... تطرد لى الهم أى طرد
ونحن فى مـــجلس أنيق ... بين غـــصـــون تمس ملد
مياهه فيه حارسات ... كـــدمع صب بكى لصـــد
وروضـــة مـــا لهـــا نظير ... من عنبـــر عـــرفـــهـــا ند
بهـــا طيـــور مـــغـــردات ... مـــــا بين بان وبين رند
يعـــيد هذا بحـــسن صـــوت ... وطيـــبلحن مـــا ذاك يبدى
فـــمن رآنا يقـــول عنا ... بأننا فى جنان خلد
ومـــثل هذا يطيب عندى ... أبيع بالغى فيـــه رشـــدى
ولا أبالى بقـــــول واش ... يروم نصـــحى يريد زهدى
ومن سرورى وفرط عجبى ... أحـــسب أن المليك عـــبدى
وأن قـــيـــسًـــا مـــجنون ليلى ... وكل أهل الغـــرام جندى

وقال الشيخ بدر الدين البشتكى:

حضرت ومن أهوى فلله يومنا ... لقد أطفأت فيهَ الرحيق حريقا

وقبلته ثم ارتشفت رضابه ... فيا لك غصنا قد ضممت وريقا

وقال الشيخ شمس الدين:

لم أنس أيام الصبا والهوى ... لله أيام النجا والنجاح

ذاك زمان مر حلو الجنى ... ظفرت فيه بحبيب وراح

وقال ابن الصائغ:

لست أنسى رقة العيش الذى ... زاد فى الرقة حتى انقطعا

فرعى الله زمانا بالحمى ... وحماه وسقاه ورعا

وقال أيضًا:

زار الحبيب بليلة ... ووشاته لم تشعر

فضممته ولثمته ... وفعلت ما لم يذكر

وقال البدر الدمامينى:

فى ليلة البدر أتى ... حبى فقرت مقلتى

وقال لى يا بدر نم ... فقلت هذى ليلتى

وقال الحاجرى:

ولم أنسه كالبدر ليلة زارنى ... يميل كغصن البان وهو رطيب

فبتنا ولا واش سوى طيب نشره ... علينا ولا غير النجوم رقيب

وقال يحيى القرطبى:

عجبت لليل الوصل أسرع سيره ... وقد كان ليل الهجر أبطأ وأعجزا

وبتنا جميعا لالتصاق جسومنا ... ولو ميز منا بعضنا ما تميزا

وتلطف من قال:

رعى الله ليلا ضمنا بعد هجعه ... وأدنى فؤادا من فؤاد معذب

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة ... من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وقال الشيخ بدر الدين الدمامينى:

قلت له والدجا مول ... ونحن بالأنس فى التلاقى

قد عطس الصبح يا حبيبى ... فلا تشمته بالفراق

وقال محمد بن عثمان المصرى:

يا ليلة قد تقضت فى هوى رشأ ... أشهى إلى القلب من عين بها السهر

من قبلها ما رأيت البدر معتنقى ... ولا سمعت بليل كله سحر

وقال العثمانى:

أفدى الذى زارنى والليل معتكر ... والأفق مما اكتسى من عرفه عطر

فلم نزل نتجارى فى العتاب معا ... أشكو إليه جفاه وهو يعتذر

ناديت يا ليل دم ليلا بلا سحر ... فقال ليلك هذا كله سحر

وقال آخر:

يا ليلة واصل فيها الحبيب ... برغم واشينا وغيظ الرقيب

فبت والمعشوق فى مضجعى ... قرير عين لوصال الحبيب
أشكو إليه بعض ترنيحه ... وألثم الثغر النقى الشنيب
وبينما نحن على غفلة ... إذ أقبل الصبح بأمر عجيب

وقال ابن المستوفى:

يا ليلة حتى الصباح سهرتها ... قابلت فيها بدرها بأخيه
أحييتها وأمتها عن حاسد ... ما همه إلا الحديث يشيه
ومعانقى حلو الشمائل أهيف ... جمعت ملاحة كل شىء فيه
يختال معتدلا فإن عبث الصبا ... متعرضا لقوامه يثنيه
نشوان تهجم بى عليه صبابتى ... ويزدنى ورعى فاستحبيه
علقت يدى بعذاره وبخده ... هذا أقبله وذا أجنيه
حسد الصباح الليل لما ضمنا ... غيظا ففرق بيننا داعيه

وقال بعضهم:

آه على ليلة جاد الزمان بها ... فعادلت كل ما أفنيت من عمرى
بات الحبيب نديمى فى دجنتها ... إلى الصباح بلا خوف ولا حذر
كلامه الدر يغنى عن كواكبها ... ووجهه عوض فيها عن القمر
فبينما أنا أرعى فى محاسنها ... طرفى وسمعى إذ بودرت بالسحر
فلم يكن عيبها إلا تقاصرها ... وأى عيب لها أشتى من القصر
وددت لو أنها طالت على ولو ... مددتها بسواد القلب والنظر

وقال القاضى السعيد ابن سناء الملك:

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر ... أحسنت لا إلى المشتاق فى القصر
يا ليلة زيد حكم الوصل فيك له ... ما طول الهجر من أيامه الأخر
أوليت نجمك لم تقفل ركائبه ... أوليت صبحك لم يقدم من السفر
أوليت لم يصف فيك الشرق من كدر ... فذلك الصفو عندى غاية الكدر
أوليت كلا من الشرقين ما ابتسما ... أوليت كلا من النسرين لم يطر
أوليت قلبى وطرفى تحت ملك يدى ... فزدت فيك سواد القلب والبصر
أوليت ألقى حبيبى سحر مقلته ... على العشاء فأبقاها بلا سحر
أوليتنى كنت سائله مساعدة ... فكان يخبر بالتكحيل والشعر
أوليت جملة عمرى لو غدا ثمنا ... فى البعض منها ومن للعمى بالعور
كأنما حين ولت قمت أجذبها ... فانشق فى الشرق منها الثوب عن دبر

وقال ابن المعتز:

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر ... ودير عبدون هطال من المطر
فطالما نبهتنى للصبوح بها ... فى غرة الفجر والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير فى صلاتهم ... سود المدارع نعارين فى السحر
مزنرين على الأوساط قد جعلوا ... على الرؤوس أكاليلا من الشعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل ... بالغنج يكسر جفنيه على حور
نامته بالهوى حتى استقاد له ... طوعا وأشغلنى الميعاد بالنظر

وجاءني في قميص الليل مستترا يستعجل الخطر من خوف ومن حذر
وثم ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر
فقمت أفرش خدى في التراب له دلا وأسحب أذيالى على الأثر
وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وقال ابن مطروح:

حبذا ليلة وصل خلتها ليلة قدر
أشرقت عن نور كاس وسنا وجه وثغر

وقال الصفدى:

لما أتى زائرى وهنا مع السحر ظفرت بالليلة الغراء من عمرى
وبات يجلو لطرفى حس طلعته وأين منها محيا الشمس والقمر
ورحت أقطف من بستان وجنته وردا سقاه بماء الدل والخفر
وكلما كاد ضوء الشمس يفضحنا من روعه غبت في ليل من الشعر

وقال آخر مفرد:

زار الصباح فكيف حالك يا دجا قم فاستذم لرعه أو فالنجا

غيره:

يا ليل إن الحبيب وافى وخفت إسراع دهم خيلك
فقم واعش الصباح إنى دخلت يا ليل تحت ذيلك

وقال ابن سناء الملك:

وليلة وصل راقبت غفلة الدهر ... فجادت ببدرى وهى مشرقة البدر

سميرى بها غصن من البان مائد ... يرنحه سكر الشبيبة لا الخمر

أشاهد فيها طلعة القمر الذى ... تبسم عن طلع وإن شئت عن در

وأنظم سهما لاح لى نظم ثغره ... قصائد من شعر وإن شئت من سحر

لقد أعربت عيناه عن سحر بابل ... وإن كان مبنى الجفون على الكسر

وأشهد حقا أن فوق جبينه ... لآيات حسن هن من سورة الفجر

ونحن بقصر أشرقت شرفاته ... على روضة تفتر عن يانع الزهر

همت فى ذراها أدمع الطل والندى ... وبات بها زهر الربا باسم الثغر

يضوع أريج المسك منها إذا انثنت ... مدبجة الرجاء من بلل القطر

وبات بها شادى الهزار مرددا ... أفانين تغريد على فنن نضر

وقد عبقت من ذلك الجو نفحة ... معطرة الأنفاس طيبة النشر

أيلتنا إن لم تكونى عبارة ... وحقك عن عمر فديتك بالعمر

أمنت بها إتيان واش وحاسد ... فما من رقيب غير أنجمها الزهر

ضممت إلى صدرى الحبيب معانقا ... وهل لك يا قلبى محل سوى صدرى

فيا ليلة أحييت فؤادى بقربه ... فأحييتها سكرا إلى مطلع الفجر

ولما رأيت الروح فيها مسامرى ... تيقنت حقا أنها ليلة القدر

وقال البهاء زهير:

رعى الله ليلة وصل خلت ... وما خالط الصفو فيها كدر
أتت بغتة وانقضت سرعة ... وما قصرت مع ذاك القصر
بغير احتيال ولا كلفة ... ولا موعد بيننا ينتظر
وقلت وقد كاد قلبي يطير ... سرورا بنيل المنى والوطر
أيا قلب تعرف من قد أتاك ... ويا عين تدرين من قد حضر
ويا قمر الأفق عد راجعا ... فقد حل في الأرض عندي القمر
ويا ليتني هكذا هكذا ... وبالله بالله قف يا سحر
فكانت كما اشتهى ليلة ... وطال الحديث وطال السهر
خلونا وما بيننا ثالث ... فأصبح عند النسيم الخبر

الشهاب محمود:

يا ليلة بات كأس الثغر مغتبقي ... فيها فذاك سواد القلب والحدق
سمحت لي برشا أدنى الوشاة به ... جبينه والشدا من نشره العبق
في روضة كلما ماست معاطفه ... فيها تسترت الأغصان بالورق
وبات يطفئ بالعذب المبرد من ... لماه ما أضرمت خداه من حرقي
وبات حاوي بدر التم إذ بيدي ... طوقت أسود ذاك الشعر في عنقي
وماس فانثنت الأغصان تأمل أن ... تحكي معاطفه لينا فلم تطق
وجاء يسعى بها حمراء قابلها ... بوجهه فبدت شمسان في أفق

وقال دونكها إن شئت من قدحي ... ومن لمى شفتي العساء أو حدقي
كل مدام وإن شكلتها شفتي ... وهذه الكاس فاختر ما تشا وذق
فيا لها ليلة قضيتها عجبا ... الشمس مغتبقي والبدر معتنقي

ابن سناء الملك:

أتى إلى وأهوى خده لفمي ... فقمت أقطف منه وردة الخجل
والجو قد مد سترا من سحائبه ... لما توهم أن الشهب كالمقل
قمنا ولا خطرة إلا إلى خطر ... دان ولا خطوة إلا إلى زجل
والعين تسحب ذيلا من مدامعها ... والقلب يسحب أذيالا من الوجل
أكلف العين مع علمي بغرتها ... وطئًا على البيض أو حملا على الأسل
حتى وصلنا إلى ميقات مأمنه ... يا صاحبي فلو أبصرتما عملي
أواصل اللثم من فرع إلى قدم ... وأوصل الضم من صدر إلى كفل
وبات يسمعني من لفظ منطقه ... أرق من كلمي فيه ومن غزلي
ونلت ما نلت مما لم أهم به ... ولا ترقت إليه همة الأمل
لم أسحب الذيل كي أمحو مواطئه ... لكنني قمت أمحو الخطو بالقبل
يا ليلة قد تولت وهي قائلة ... لا تنظمني مع أيامك الأول

ابن مطروح من أبيات:

وجاد الزمان بها ليلة ... وعما جرى بيننا لا تسل
فأحنيت قامته بالعناق ... وذبات مرشفه بالقبل

وكم تهت في غور خصر له ... وأشرقت في نجد ذاك الكفل
وأذنت حين تجلى الصباح ... بحي على خير هذا العمل
وها أثر المسك في راحتي ... وهذا فمي فيه طعم العسل

صفي الدين الحلي:

لم أنس ليلة زارني ورقيبه ... يبدي الرضا وهو المغيظ المحنق
أمسى يعاطيني المدام وبيننا ... عتب أرق من النسيم وأروق
حتى إذا عبث الكرى بجفونه ... كأن الوسادة ساعدي والمرفق
عانقته وضممته فكأنه ... من ساعدي مطوق ومنطق
حتى بدا فلق الصباح فراعه ... أن الصباح هو العدو الأزرق
فهناك أومى للوداع مقبلا ... كسفي وهي بذيله تتعلق
يا من يقبل للوداع أناملي ... إني إلى تقبيل ثغرك أشوق

وقال أيضًا:

لم أنس إذ نادمته في ليلة ... عدل الزمان بمثلها لم يمنن
والراح تنزل في الكؤوس كأنها ... لفظ تلجلج في لسان الألكن
حتى إذا ما السكر ثقل عطفه ... كسلا وسكن منه ما لم يسكن
عاجلته حذرا عليه من الردى ... عجل الجفون إلى حفاظ الأعين
وضممته من غير موضع ريبة ... وأطعت فيه تعففي وتديني
نحن الذين أتى الكتاب مخبرا ... بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

ابن سناء الملك فى الخلاعة:

يا ليلة مرت لنا حلوة ... رتبها الشيخ أب مرة
بالغصن بالبدر بشمس الضحى ... بالريم بالدرى بالدرة
بالشمل بالطرف بمن ريقه ... أسكر حتى أسكر الخمرة
زار على خوف وفى ستره ... حتى رأينا وجهه جهرة
وافى إلى عندى فى حاجة ... وزارنى فى ساعة العسرة
ولم يزل خدى على خده ... من أول الليل إلى بكرة
فى سكرة تتبعها صحوة ... وصحوة تتبعها سكرة
أضعف اللثم ولكننى ... أبلبل الصدغين بالطرة
مرعى ومرعى لى فى وجهه ... أما رأيت الماء والخضرة
لله ما أكسل أجفانه ... وعند قتل الناس ما أفرة
فمن فؤادى لم يدع حبة ... ومن رقادى لم يدع ذرة
ولم ينم طرفى فى ليلتى ... كأننى أسهر بالأجرة
ولم أقصر دون نيل المنى ... لأننى ما كنت فى سخرة
يا أيها اللوام إنى امرؤ ... أقلع إلا هذه المرة
ترون مثلى وتلومونني ... والله ما أنصفتم العشرة
فآخت من يعذلنى قحبة ... وأم من يعذرنى حرة
يا ليلة طابت أحاديثها ... نأيت عنى فمتى الكرة
فقل لم غاب عن ليلتى ... تعسفا أحسنت يا عرة
وإن تخف من عتبه قل له ... لا أوحش الله من الحضرة

زين الدين عمر بن الوردى:

نمت وإبليس أتى بحيلة منتدبه
فقال ما قولك فى حشيشة منتخبه
فقلت لا قال ولا خمرة كرم مذهبه
فقلت لا قال ولا مليحة مطيبه
فقلت لا قال ولا أمرد بالبدر اشتبه
فقلت لا قال ولا آلة لهو مطربه
فقلت لا قال إذا ما أنت إلا حطبه

قال صفى الدين الحلى معارضا له:

وليلة طال سهادى بها فزارنى إبليس عند الرقاد
فقال هل لك فى شقفة كيسة تطرد عنك الرقاد
قلت نعم قال وفى قهوة عتقها العاصر من عهد عاد
قلت نعم قال وفى مطرب إذا شدا يطرب صم الجماد
قلت نعم قال وفى طفلة فى وجنتيها للحياء اتقاد
قلت نعم قال وفى شادن قد كحلت أجفانه بالسهاد
قلت نعم قال فنم آمنا يا كعبة اللهو وركن الفساد

صلاح الدين الصفدى:

ثمانية إن يسمح الدهر لى بها فمالى عليها بعد ذلك مطلوب

منام ومشروب ومرج ومأكل ... وملهى ومشموم ومال ومحبوب

وقال أيضًا:

إن قدر الله لي بالعمر واجتمعت ... سبع فما أنا في اللذات مغبون

قصر وقدر وقواد وقحبته ... وقهوة وقناديل وقانون

ابن التعاويذى:

إذا اجتمعت في مجلس الشرب سبعة ... فبادر فلا التأخير عنه صواب

شواء وشمام وشهد وشادن ... وشمع وشاد مطرب وشراب

السراج الوراق:

عندى فديتك را آت ثمانية ... أنفى بها الهم إن وافا وإن وردا

راح وريح وريحان وريق رشا ... ورفرف وبياض ناعم وردا

وقال غيره:

إذا بلغت من الدنيا ولذتها ... سبعًا فإنى فى اللذات سلطان

مر وخود وخاتون وخادمها ... وخضرة وخلاعات وخلان

ابن سكرة:

جاء الشتاء وعندى من حوائجه ... سبع إذا الغيث عن حاجاتنا حبسا

كن وكيس وكانون وكاس طلا ... مع الكباب وكس ناعم وكسا

غيره

وكافات الشتاء تعد سبعا ... ومالى طاقة بلقاء سبع

إذا ظفرت بكاف الكيس كفى ... ظفرت بمفرد يأتى بجمع

الباب السابع عشر

فى الزهريات والرياحين والفواكه على طريق الخصوص والانفراد

ما قيل فى المنثور ويسمى الخيرى أيضًا

وهو أنواع أرفعها الأصفر الذهبى فإنه زكى الرائحة يشم ليلا ونهارا وزدناها الأبيض ليس له رائحة ألبتة ليلا ونهارا وأوسطها الخمرى والبنفسجى والأكحل والملمع بالبياض وغير ذلك. ليس لها رائحة بالنهار ما دامت الشمس طالعة فإذا غابت ظهرت لها رائحة عجيبة عطرة مشاكلة لروايح القرنفل أو ماء القرنفل المصعد بماء الورد ولا تزال روائحها تزداد طيبا إلى طلوع الشمس ثم تزول تلك الرائحة باقى النهار إلى وقت المغيب، ويقال أن من دهن باطن رجله بدهنه فإنه يجد الدهن فى الحال على ضلعته وأن من دهن مقعدته بدهنه سكن سعاله قال بعضهم فيه:

يوم عليه من السماء ستور ... ونسيم نشر الروض فيه يسير

نش السحاب به بدائع وشيه ... ببكائه فتضاحك المنثور

وقال غيره:

لما رأيت المنثور منتشرا ... ظللت مما رأيت مبهوتا

كأنما نشرب المدام على ... أرض بها تنبت اليواقيتا

وقال آخر:

أحبب بروض كلما هزه ... ريح الصبا أبدى نسيما عجيب

كأنما صفرة خيرية ... لون محب قد جفاه الحبيب

وقال عرقلة الدمشقى بحضرة شمس الدولة وقد أحضر له منثور:

قد أقبل المنثور يا سيدى ... كالدر والياقوت فى نظمه

نسيم أنفاسك فى عطره ... ورأس من عاداك مثل اسمه

الشيخ تقى الدين بن حجة يستدعى شتل منثور وقد وعد به ومطل:

زهر الرياض ذوى من طول مطلكمو ... لأنه من نداكم غير ممطور

والبعد قد جهز المنظوم ممتدحا ... فطابقوه إذا وافى بمنثور

وقال فسح الله فى أجله:

رأيت مع المنثور بعض وقاحة ... ولم أدر ما بين الغدير وبينه

تلون منه ثم مد أصابعًا ... إلى وجهه عمدا وخضرة عينه

وله فى المنثور والورد:

صافح منثور الربا وردة ... فلامه القمرى فى الأيكة

قالت ورود الروض فى غيضة ... هل جاز فى أصبعه شوكة

وقال فى المنثور والورد والزنبق:

أصابع المنثور لما مدها ... لعرض خد الورد من بعد القبل

هز له زنبقنا عواليا ... فالراية البيضا عليه لم تزل

ابن تميم:

حاذر أصابع من ظلمت فإنه ... يدعو بقلب فى الدجا مكسور

فالورد ما ألقاه فى جمر الغضى ... إلا الدعا بأصابع المنثور

وقال متعصبا للورد على المنثور:

ولم أنس قول الورد لا تركنوا إلى ... معاهدة المنثور فهو يمين

ألا فانظروا منه بنانا مخضبا ... وليس لمخضوب البنان يمين

وقال متعصبا للمنثور على النرجس:

مذ لاحظ المنثور طرف النرجس الـ ... ـممزور قال وقوله لا يدفع

فتح عيونك فى سوادى إننى ... عندى قبالة كل عين أصبع

وقال:

ومذ قيل للمنثور إنى مفضل ... على حسنك الورد الجليل عن الشبه

تلون من قولى وزاد اصفراره ... وفتح كفيه وأومى إلى وجهى

وقال:

مذ قيل للمنثور أن الورد قد ... وافى على الأزهار وهو أمير

بسمت ثغور الأقحوان مسرة ... لقدومه وتلون المنثور

وقال:

لما ادعى المنثور أن الورد لا ... يأتى وأن يصلى بنار سعير

ودت ثغور الأقحوان لو أنها ... كادت تعض أصابع المنثور

وما أحسن قول الأمير شهاب الدين الحاجبى وإن لم يكن مما نحن فيه:

ولقد نثرت مدامعى ودمى معا ... يوم الوداع وخاطرى مكسور

لا تعجبوا لتلون فى أدمعى ... لا بدع أن يتلون المنثور

ما قيل فى النرجس

وهو بارد رطب، وقيل أنه يزيل من الدماغ مضرة دخان السراج من أول السنة إلى آخرها. قال أبقراط كل شيء غذاء للجسم، والنرجس غذاء للعقل.

وقال جالينوس: من كان له رغيفان فليجعل أحدهما فى ثمن النرجس، لأن الخبز غذاء البدن والنرجس غذاء الروح.

وقال الحسن بن سهل من أدمن شم النرجس فى الشتاء أمن من البرسام فى الصيف.

وقال هرمس إذا وضعت طاقات النرجس التى لم تفتح فى ماء البقم حتى تتفتح فيه أبدل من بياض أوراقه حمرة شديدة وبقيت على حالها، ومن أراد أن يكون النرجس فى غير أوانه فليحرق السداب مع شيء من قشور الجوز على منابت أصله، فإنه يسرع إخراج ورقه. وكان كسرى أنوشروان مغرما بحب النرجس ويقول هو ياقوت أصفر من در أبيض على زمرد أخضر، وقال إنى لأستحى أن أباضع فى مجلس فيه النرجس، لأنه أشبه شيء بالعيون، ومن هنا أخذ من قال:

غضى جفونك يا عيون النرجس ... فعسى أفوز بقبلة من مؤنسى

فلقد تحير إذ رآك شواخصا ... ترمينه بلواحظ المتفرس

الصفى الحلى فى النرجس والنمام:

أقول وطرف النرجس الغض شاخص ... إلينا وللنمام حولى المام

أيا رب حتى فى الحدائق أعين ... علينا وحتى فى الرياحين نمام

ابن قرناص فى نرجس وأقاح:

لو كنت إذ نـادمت من أحـببـتـه ... فى روضـــة أطيـــارها تـتـــرنم

لرأيت نرجسـهـــا يغض جـفـونه ... عنا وثـغـر أقـاحـهـــا يتـبـسم

وتلطف ابن تميم فقال فى نرجس ومنثور:

كـيف السـبـيل لأن أقـبل خـد من ... أهوى وقـد نامت عـيـون النرجس

وأصـــابع المنثـــور تومى نـحـونا ... حـسـدا وتغمـزنا عـيـون النرجس

وألطف منه قوله فى منثور ونرجس وأقحوان:

كـيف السـبـيل للثم من أحـببـتـه ... فى روضـة للزهـر فـيـهـا مـعـرك

مـــا بين منـثـور ونـاضـــر نرجس ... مع أقـحـــوان وصـــفـــه لا يدرك

هذا يشـــيـــر بإصـبـع وعـيـــون ذا ... تدنـو إلى وثغـــر هذا يـضـــحك

ابن الساعاتى فى شقائق وأقحوان ونرجس:

ولقـد نزلت مـع الحـبـيب بروضـة ... رتعـت نواظـرنا بهـــا والأنـفس

سفـرت محاسنـهـا فهم الأقـحوان ... إن بلثـمـهـا فـرنا إليـه النرجس

فكـان ذا خـــد وذا ثغـــر يـحـــا ... وله ذا أبـدا عـــيـــون تحـــرس

ابن الشبلى البغدادى فى نرجس وورد:

ونرجـس قـــابل فى مـــجـلس ... وردا عـــلا فـى نعـتـــه نـاعت

فـــخـــد ذا يـخـــجل مـن لحظ ذا ... وطرف ذا فـى وجـــه ذا باهـت

أبو حفص المطوعى فيهما وأجاد:

ألست ترى أطبـاق ورد وحـولهـا من النـرجس الغض الـطرى ورود
فـتلك خـدود مـا عليـهن أعين وتلك عـيـون مـا لهن خـدود

أمين الدين الجبان فى نرجس وبان:

نفـش غـصن البـان أذنـابه ومـاس وقت الصبح زهوا وفـاح
وقـال هل فى الروض مـثلى وقـد تعـزى إلى غـصـنى قـدود الرمـاح
فـحـدق الـنرجس يـهـز وبه وقـال حـقل قلـت ذا أم مـزاح
بل أنـت بالطـول تحـامـقـت يا مقـصوف عجبا بالدعاوى القباح
فـقـال غـصن البـان من تيـهـه مـا هذه إلا عـيـون وقـاح

ولما قـدم على بن سعـيد المغـربى المؤرخ إلى مصـر المحروسـة صنع له أدباؤها وليمة فى بعض منتزهاتها وانتهوا إلى روض نرجس فجعل أبو الحسين الجزار يطأ عيون النرجس برجليه فأنشده صرنا الدين حسن بن النقيب:

يا واطىء النرجس ما تستحى أن تطأ الأعين بالأرجل

فأجابه على بن سعيد:

قابل جفونا بجفون ولا تبتذل الأرفع بالأسفل

ثم استدعاه ابن سانق إلى مجلس علـى النيل مبسوطا بالورد وقد قامت به شمامات نرجس فقال فى ذلك:

من فـضل النرجس فـهـو الذى يـرضـى بـحكـم الـورد إذ يـرأس
أمـا ترى الورد غـدا فـأعـدا وقـام فـى خـدمـتـه النـرجس

فرد عليه بعضهم بقوله:

ليس جلوس الورد فى مجلس قام به نرجسه يوكس

وإنما الورد غدا باسطا خدا ليمشى فوقه النرجس

وقال عبد الله بن طاهر:

وأحسن ما فى الوجوه العيون وأشبه شىء بها النرجس

وظريف من قال:

يغض من طرف الحيا طرفه ما أحسن الغض من النرجس

وقال ابن الرومى:

أبصرت باقة نرجس فى كف من أهواه غضة

فكأنها قضب الزمرد وأنبتت ذهبًا وفضة

وقال غيره:

ما عاينت عيناى فى مجلس أحسن من نرجسه غضة

كزعفران وسط كافورة أو ذهب أفرغ فى فضة

عرقلة الدمشقى:

ناولنى من أحب نرجسة أحسن فى ناظرى من الورد

كان مبيضها مرصعة من ثغره والصفار من خد

وقال آخر:

وأغيد أهدى لنا نرجسا فبت بالنرجس مستأنسا

أسقيه ماء العين من خيفة عليه أن يذبل أو يبسا

القيراطى فى مليح مغنى حيا بغصن وورد ونرجس:

لما تحجبت عن طرفى وأرقنى ... بعدى ولم تحظ عينى منك بالنظر

أرسلت مشبهها من نرجس عطر ... كيمما أراك بأحداق من الزهر

ومن أحسن ما سمعت فيه قول مجير الدين بن تميم:

بعثت بنرجسة إلى ووردة ... ففهمت أفديها حقيقة قصدها

لما تعذرت الزيارة أرسلت ... تشبيه ناظرها إلى وقدها

القيراطى فى مليح مغنى:

بروحى من أبدى المحاسن روضة ... وغنى فما أحلاه من رشا غنى

وأهدى لنا غصنا ووردا ونرجسا ... ولم يهد إلا القد والخد والغصنا

لمجير الدين بن تميم:

إنى لأشهد الحمى بفضيلة ... من أجلها أصبحت من عشاقه

ما زاره أيام نرجسه فتى ... إلا وأجلسه على أحداقه

وقال أبو عبد الله بن الحداد فيه:

أنظر إلى النرجس الوضاح حين بدا ... كأنه ناظر من عين مبهوت

كأذرع الغيد فى خضر البر ودجلت ... على أناملها صفر اليواقيت

وقال فى مليح حيا بنرجس:

وشادن أهيف حيا بنرجسة ... كأنها إذ بدت فى غاية العجب

كف من الفضة البيضاء ساعدها ... زبرجد حملت كاسا من الذهب

أبو العلاء السرورى:

حى الربيع فقد حيا بباكور ... من نرجس ببهاء الحسن مذكور

كأنما جفنه بالغنج منفتحًا ... كاس من الدر فى منديل كافور

غيره:

وريحانة تحيى النفوس بريحها ... لها أعين مفتوحة لم تسهد

بأحداق عقبان وأجفان فضة ... على قضب مخضرة من زبرجد

وقال عبد الرحمن بن الجبان:

ونرجس قائم على قضب ... شخص ألحاظه لغير عجب

كمعصم من زبرجد حملت ... كفا من الدر فيه جام ذهب

ابن المعتز:

أما ترى النرجس المياس يلحظنا ... ألحاظ ذى فرح بالعتب مسرور

كأن أحداقه فى حسن صورتها ... مداهن التبر فى أوراق كافور

كأن طل الندى فيه لمبصره ... دمع ترقرق من أجفان مهجور

وقال آخر:

ريحانة طلعت من حسنها فحكت ... فى حسنها مقلة ترنو إلى ريب

والجسم منها قضيب من زبرجدة ... والجفن من فضة والعين من ذهب

كأن رشح نداها حول ناظرها ... دمع ترقرق من أجفان منتحب

غيره:

مداهن عقيان وأوراق فضة ... على قضب مخضرة من زبرجد

كان انتثار الطل فى جنباتها ... تناثر دمع فوق خد مورد

ابن المعتز:

عيون لجين فوقها حدق صفر ... يزينها من فوقها عمد خضر

كأن انحدار الطل فى جنباتها ... دموع محب قد أضر به الهجر

إذا لمستها الريح مالت كأنها ... كئيب من الصهباء مال به السكر

غيره:

غصون زبرجد حملت عيونا ... مخالفة لأمثال العيون

بأحداق من الياقوت صفر ... وأجفان من الذهب المصون

فبعض باهت أبدا تراه ... وبعض مطرق شبه الحزين

وقال آخر:

قضيب زبرجد يعلو عليه ... عيون لم تزق طعم اغتماض

توهمت الغمام لها رقيبا ... فنكست الرؤوس على الرياض

عبد الله بن المعتز:

مرجسة لا تزل محدقة ... لم تكتحل قط لذة الغمض

أمالها القطر فهى باهتة ... تنظر فعل السماء بالأرض

وقال آخر:

ترى النرجس الروضى ما بين رامق ... إلى مطرق والريح وبالكل تخفق

كأحداق عشاق خلت من مراقب ... بأحبابها فالبعض للبعض يرمق

وبعض كمهجور ينكس رأسه يفكر فى جور الهوى وهو مطرق

غيره:

ونرجس كالشغور مبتسم له دموع المحدق الشاكى

أبكاه قطر الندى وأضحكه فهو مع القطر ضاحك باكى

غيره:

وجفون مبيضة الآماق فى عيون مصفرة الأحداق

فى غصون من الزبرجد مالت عطرات من صبغة الخلاق

وقال آخر:

تأمل فى خلال الشرب وانظر إلى آثار ما ابتدع المليك

عيون من لجين ناظرات على أحداقها ذهب سبيك

على قضب الزمرد شاهدات بأن الله ليس له شريك

إسحاق بن محارب وقيل لابن المعتز:

عيون كساها الغيث ثوبا من البها فأجفانها بيض وأحداقها صفر

إذا شمها المشتاق خال نسيمها سحيقا من الكافور شيب به الخمر

وقال عبد الله بن رغش:

وكان نرجسه المضاعف خائض فى الماء لف ثيابه فى رأسه

أيدمر المحيوى:

كان نرجسها والريح تنفخه من فوق أعمدة قضبانها دمج

وصائف رقصت فى عرس سيدها وقت الزفاف وفى هاماتها سرج

وقال آخر:

بكين فأضحكن الثرى عن زخارف ... من الروض عنهن الثرى متأهل

تلفحها الأنواء ليلا بريقها ... فيصبحن أبكارا وهن حوامل

وقال ابن الرومى فى تفضيل النرجس عل يالورد:

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليه مشاهد

للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آب وحاد عن الطريقة حائد

ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد

أين العيون من الخدود نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

وقال أحمد بن يونس:

يا من يشبه نرجسا بنواظر ... دعج تنبه إن فهمك راقد

إن القياس لمن يصح قياسه ... بين العيون وبينه متباعد

والورد أشبه بالخدود حكاية ... فعلام تجحد فضله يا جاحد

ملكقصير عمره مستأهل ... لخلوده لو أن حيا خالد

وخليفة إن غاب ناب بنفحه ... وبنفعه عنه مقيم راكد

إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما ... وضحت عليه دلائل وشواهد

فانظر إلى المصفر لونا منهما ... وافطن فما يصفر إلا الحاسد

وقال سعيد بن هاشم الخالدى:

أبحث النرجس البلدى ودى ... ومالى باجتناب الورد طاقة

كلا الأخوين معشوق وإنى ... أرى التفضيل بينهما حماقة

هما فى عسكر الأزهار هذا ... مقدمة يسير وذاك ساقه

ويحكى عن جعفر بن على بن الرشيد قال كنا بين يدى الواثق وقد اصطبح فناوله نادم بهج نرجسا ووردا فى أول ما اجتمعنا فاستحسنه وشرب عليه رطلا ثم قال:

حييت بالنرجس والورد ... معتدل القامة والقد

فألهبت عيناه نار الجوى ... وزادنى وجدا على وجدى

إن سئل البذل ثنى عطفه ... وأسبل الدمع على الخد

فربما تجنيه ألحاظه ... لا يعرف الوصل من الصد

مولاى يشكو الظلم من عبده ... فأنصفوا المولى من العبد

وقال أبو العلاء السرورى يذم النرجس:

أنظر إلى مجلس تبدت ... صبحا لعينيك منه طاقة

وأكتب أسامى مشهية ... بالعين فى دفتر الحماقة

وأى جنس لعين صب ... من يرقان يحل ماقة

كروثة ركب عليها ... صفرة بيض على رقاقة

وقال امرأة خاطبة لرجل عندى امرأة كأنها باقة النرجس فمالت نفس الرجل إليها وسألها أن تخطبها له ففعلت فلما زفت إليه وكشف عن قناعها

وجدها عـجوزا صفراء الوجـه بيضاء الرأس دقيـقة الرجلين مخضـرة الساقين بالشعر فلم يقـربها وعاد للخاطبة وقـال كذبتينى وغررتينى فقـال ه ما كذبتك ولكنك رجل أبله وهل تكون باقة النرجس إلا كذلك.

ما قيل فى الورد

كان المتـوكل يقول أنا ملك الســلاطين والورد ملك الرياحين، وكل منا أولى بصاحـبه، وكان قد حرم الورد على جـميع الناس وقصره علـى نفسه، وقال إنه لا يصلح للعامة فكان لا يرى الورد إلا فى مجلسه وكان لإبليس أيام الورد إلا الثياب الموردة ويفرش الفـرش الموردة ويورد جميع الآلات ورفع إلى المأمون أن حائكًا يعمل سنته كلها لا يبطل فى عـيد ولا جمعة فإذا ظهر الورد طوى عمله وبصوت عال ينشد:

طاب الزمان وجاد الورى فاصطبحوا ما دام للورد أزهار وأنوار

فإذا شرب مع ندمائه غنى:

اشرب على الورد من حمراء صافية شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا

ولا يزال فى صبـوح وغبوق مـا بقيت وردة فإذا انقـضى الورد عاد إلى عمله وغرد بصول عال ينشد:

فـإن يبقـنى ربى إلى الورد أصطبح وإن مت والهـفى على الورد والخمـر

ســألت إله العـرش جل جــلاله يواصل قلبى فى غـبـوق إلى الحشـر

فقال المأمون لقد نظر هذا إلى الورد بعين ليلة فـينبغى أن نعينه ونساعده على مروءته فأجرى عليه فى كل سنة عـشرة آلاف درهم ويقال إن كسرى مر بوردة ساقطة فتـناولها بيده وقال أضاع الله من أضـاعك وفى ذلك يقول على ابن الجهم:

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه حسن الرياض وصوت الطائر الغرد

لا عذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال جحظة:

أعزز على بأن يشمك ساقط أوان تراك نواظر البخلاء

وجلس روح بن حاتم أمير أفريقية يوما فى منظرة له ومعه محظية من جواريه فدخل إليه الخادم بقادوس فيه ورد أحمر وأبيض فى غير أوانه، فاستظرفه وسأل الخادم عن أمره فأخبره أن رجلا أتى به هدية فأمر أن يملأ له القادوس دراهم، فقالت له الجارية ما أنصفته قال ولم قالت أنه أتى بلونين أحمر وأبيض فلونه له أيضًا فأمر أن يخلط دراهم ودنانير فخلط ودفع إليه.

وقال الحسن بن سهل أربعة من الرياحين تقوى بأربعة من الطيب فيكمل ذكاؤها الورد بالمسك والنرجس بماء الورد والبنفسج بالعنبر والرياحان بالعنبر.

وقال صاحب المباهج من أحرق السداب فى أصول شجرة الورد حتى يرتفع وجه الإحراق إلى الشجر فى أى وقت كان من السنة وردت الشجرة بعد أيام وردا غضا والحيلة فى أن يبقى الورد السنة كلها فى الفلاحة الرومية أن يؤخذ زر ورد لم يفتح فيملأ جرة جديدة ويطين رأسها تطيينا محكما ولا يتخلله الهواء وتدفن فى الأرض فإنك تخرج منها ماء الورد متى شئت إلى آخر السنة كهيئته حين أدخلته فيها فترش عليه ماء وتتركه فى الهواء فإنه ينفتح وردا طريا كالذى يقطف من شجرة.

وفى كتاب الخواص أنه إذا صب فى الشتاء فى أصول الورد ماء حار عند كل غداة انفطر قبل انفطار الورد وإذا بخر الورد الأحمر بالنورة غير المطفية أبيض.

وحكى صاحب نشوان المحاضرة أنه رأى وردا أصفر واستغرب ذلك وقال إنه عد ورق وردة منه فكانت ألف ورقة ورأى وردا اسود حالك اللون له رائحة ذكية ورأى بالبصرة وردة نصفها أحمر قانى الحمرة ونصفها ناصع البياض والورقة التى وضع الخط عليها كانت كأنها مقسومة بقلم.

وقال صاحب مناهج الفكر وحكى لى بعض أصحابى أنه رأى وردا بدمشق له وجهان أحد الوجهين أحمر والآخر أبيض لا يشوب أحدهما شيء من الآخر وأخبرت أن بحلب وردا أحد الوجهين أحمر والآخر أصفر وأما الأزرق فقال الشيخ على الغزولى الشهير بالبقاى فى كتابه مطالع البدور فى منازل السرور عن بعض أصحابه أن رجلا أخبره أنه رأى أكارا يجرى إلى شجرة الورد ماء مخلوطا بالنيل قال فسألته عن ذلك فقال أن الورد يكون أزرق بهذا العمل والظاهر من الأسود أنه احتيل عليه كذلك.

وذكر ابن قتيبة أن بالهند شجرا يخرج وردا عليه كتابة تقرأ لا إله إلا الله وذكر ابن منقد لما عاد من المغرب وكان قد توجه إليه رسولا من صلاح الدين أن فى مراكش وردا كل وردة ما بين الثمانين ورقة إلى المائة والله أعلم. قال شهاب الدين الخيمى:

زمان الورد أعلام الزمان ... وروح الراح راحة كل عان

وما اجتمعت هموم قاتلات ... مع الصهباء يوما فى مكان

وتلطف من قال:

كتب الورد إلينا ... فى قراطيس الخدود

يا بنى اللهو صلونى ... قد دنا وقت ورودى

غيره:

قد أقبل الورد والبار ... واعتدل الليل والنهار

فداوم القطف واغتنمه ... فإنما الورد مستعار

وقال آخر:

الورد أحسن منظرا ... فتمتعوا باللحظ منه

فإذا مضت أيامه ... ورد الخدود ينوب عنه

اشرب عليه وقل له ... من لم يخنك فلا تخنه

غيره:

اشرب على الورد فى أيام دولته ... فالورد ضيف مليح فى زيارته

يأتى فيدعو إلى شرب المدام على ... إشراق بهجته مع طيب نفحته

خمسين يوما توافى والنفوس إلى ... رؤياه شيقة فى طول غيبته

وقال آخر:

تمتع من الورد القليل بقاؤه ... لم يحزنك إلا فناؤه

وودعه بالتقبيل واللثم والبكا ... وداع حبيب بعد حول لقاؤه

غيره:

جاء الربيع وجاء اللهو والطرب ... فاشرب عقارا كلون النار تلتهب

أما ترى الورد يدعو للورود على ... عذراء صافية فى لونها صهب

ترى مداهن ياقوت على قضب ... من الزبرجد فى أوساطها ذهب

كأنه حين يبدو من مطالعه ... صب يقبل حبا وهو يرتعب

محمد بن عبد الله بن ظاهر:

أما ترى شجرات الورد طالعة ... منها بدائع قد ركبن فى قضب

كأنهن يواقيت يحيط بها ... زمرد وسطها نقش من الذهب

كأنه حين يبدو من مطالعه ... صب يقبل حبا غير مرتعب

خاف الرقيب وداعى الشوق يؤمنه ... فصار يظهر أحيانا من الحجب

غيره:

كم وردة تحكى بسبق الورد ... طليعة تسرعت من جند

قد ضمها فى الغصن قرص البرد ... ضم فم لقبلة من بعد

وقال آخر:

دوح ورد يميس فيه غصون ... فتحاكى مهفهفات القدود

زهرها فوق ما تفتح منها ... كشفاه ضمت للثم خدود

ابن تميم فى مليح أهدى له وردة غير مفتحة:

سيقت إليك من الحدائق وردة ... وأتتك قبل أوانها تطفيلا

طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت ... فمها إليك كطالب تقبيلا

وقال آخر فيه:

ألست ترى حسن الزمان وما يبدى ... وحسن انتثار الطل فى ورق الورد

كأن حباب الماء فى جنباته ... تناثر دمع جال فى صفحة الخد

غيره:

نجـوم فى ذرى الأغـصـان تزهر كـأن نسـيـمـهـا مسك وعـنبر
يشـابه لـونهـا توريد خـد ترقـرق فـوقـه دمع تحـدر
كـأن الـطل يظـهـر فـى نداه على جنبـاتهـا درر وجـوهر

وأبدع الوليد بن الجنان الشاطبى بقوله:

فـوق خـد الورد دمع من عـيـون السـحب تذرف
بـرداء الشـمس أضـحى بعـد مـا سـالت يجـفف

وقال آخر:

أمـا ترى الورد قـد باح الربـيع به من بعـد ما مـر حول وهو إضـمار
وكان فى خـلع خضر وقـد خلعت بلا عـرى قـفلت عـنه وأزرار

ابن المعتز فى ورد أحمر وأبيض:

أتاك الورد مـحـبـوبا مـصـونا كـمـعـشـوق تكـنفـه الصـدود
كـان بـوجـهـه لما تـوافت نجـوم فى مـطالعـهـا سـعـود
بيـاض فى جـوانبـه احـمـرار كمـا احمـرت من الخجـل الخدود

وأبدع ما سمعت فى هذا المعنى قول الشيخ برهان الدين القيراطى:

إن لـلروح فـى دمـشق لمـأوى ذا قـرار وذا مـعين وربـوة
وبروضـاتهـا بسـاتين ورد لى بـأزرارها صـبـابـة عـروة

وقال آخر:

كـأنمـا الـورد فى كـف مـن أصـبـحت دون النـاس أهواه
حـمـرة خـديه وفى وسطـهـا صـفـرة لونى حـين ألقـاه

لأبى الحسين بن سنير:

ومضعف الطرف حياتى بمضعفه كأنما قطفت من خد مهديها

حيا بها فأعادت روح عاشقها كأن عبقة فيه أفرغت فيها

ابن حجاج فيه:

جنى من البستان لى وردة أحسن من إنجازه وعدى

وقال والخمرة فى كاسها بكلفه أزكى من الند

اشرب هنيئًا لك يا عاشقى ريقى من كفى على خدى

فى مليح أهدى وردا قبل أوانه:

أهدى إلى الحبيب وردا والورد قد حان مشتهاه

فقلت للحاضرين هذا لا شك من خده جناه

علم الدولة مقرن بن ماضى صاحب واحات:

أهدى إلى معللى وردا ولم يك وقته

فسألته عنه فقال من الخدود قطفته

قبلته فكأننى فى خده قبلته

وأبو طاهر الرفا:

ناولتنى وردة مضاعفة حمراء من حسن خلقة البارى

كأنها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار

غيره:

وورد جنى أحمر اللون ناعم بكف غزال ساحر الطرف أغيد
توهمته فى كفه إذ بدا به صوانى عقيق قمعت بزبرجد

أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادى وأجاد:

ودونك يا سيدى وردة تذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

القاضى زين الدين بن أبى العجمى فى مليح نثر من أكمامه وردا:

وافى وفى كميه ورد أحمر حبابه مذلف تحت ثيابه
فرشفت صرف الراح من خرطومه وجنيت غض الورد من أكمامه

بدر الدين حسن بن حبيب الحلبى فى مليح تركى يطلب وردا:

ماس وقد غطى بأكمامه خديه خوفا من عيون الأنام
فقلت ما ألطف غصن النقى وأحسن الورد الجنى فى الكمام

فى مليح نثر محبه على خديه وردا:

رام ظبى الترك وردا قلت أقصر خاب ضدك
عندك الورد مربى قال فإنى قلت خدك

فأتى بلسان الترك أين وبه حسنت التورية غيره:

رميت خدود من أهوى بورد حكى لونا وريحا وجنتيه
فقال أتيت فى رمسى عجيبا شبيه الشىء منجذب إليه

فى مليح رش على وجهه ماء ورد:

رش بماء ورد وجـــهـــا غـــدا　　بحـــسنه يعـــدمنى عـــقـلى

فـــــقـلت إذ رش بـه خـــــده　　قـــد رجع الفـــرع إلى الأصل

ويروى بهذه الصفة:

رش بمـاء الورد ضـــــيف لنـا　　بدرا غـــدا الحـــسن عـلى خـــد

فـــقلت إذ رش بـه وجـــهـــه　　قـــــــد رجع المـاء إلـى الـورد

وقال آخر فى ورد أسود:

وورد أســـــــــود خـلـنـاه لمـا　　تنشق نـشـــره مـلك الـزمـــان

مـــداهن عنبـــر غض وفـــيـــهـــا　　بقـــايا من ســحـــيق الزعـــفـــران

وقال آخر فيه:

لله أســـــــود وربـات يـلـحظـنـا　　من الرياض بـأحـداق اليـعـافـيـر

كـأنـهـا وجنات الـزنج تقطفـــهـا　　كم الإمـــام بـأصناف الدنـانيـــر

السرى الرفاء فى الأبيض:

بدا أبيض الـورد الجنـى كـــــأنما　　تبـسم للـناشى بمسك وكـــافـــور

كان اصـفرارا منه تحـت ابيضـاضه　　برادة تـبـــــر فى مـــــداهن بـلور

وقال آخر فيه:

يـا حـــــــسنهـــــا من وردة　　بيـــضـــاء جـاءت بـالعـــجب

كـــــــــجـــــــام بـلـور بـه　　قـــــــراضـــــــة من الذهـب

وحضر أمية بن أبى الصلت مجلس بعض الرؤساء وبين يديه أطباق فيها ورد أحمر وأبيض وأمره بوصفها فقال:

كـــأنما الورد الـذى نـشـــره يعـبـق من طيب مـعـاليكا

دمـاء أعـدائك مـسـفـوكـة قـــد قـابـلت بيض أياديك

وأهدى بعض جوارى ابن المعتز إليه طبقا فيه ورد أحمر وأبيض فقال:

أهدت إلى التى نفسى الفداء لهـا الورد نوعين مجـمـوعين فى طبق

كـان أبيـضـه من فـوق أحـمـره كواكب أشرقت فى حـمرة الشفق

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى دخلت يوما على الرشيد وبين يديه ورد أحمر وأبيض وهو يخلطه بقضيب كان عنده وكان قد أهديت له جارية حسناء بديعة الجـمال حاذقة مـاهرة أديبة لبيبـة وكان قد شغف بمحـبتها فـقال لى يا إسحاق قل فى هذا الورد شيئًا فقلت نعم يا أمير المؤمنين ثم أنشدت:

كأنه خد محبوب يقبله فم الحبيب وقد أبدى خجلا

فأجابته الجارية من وراء الستارة:

كأنه لون خدى حين تدفعنى يد الرشيد لشىء يوجب الغسلا

فقال لى قم يا إسحاق فقد ضـوقتنى هذه الفاجرة إلى ما قالت، فقلت والله لا قمت إلا بجائزة فأجازنى جائزة سنية، فأخذتها وانصرفت.

وقال إسـحاق أيضًـا دخلت على المأمون يـوما فى زمن الورد فـقال يا إسحاق هـل قلت فى الورد شيئًا، فـقلت أقول بسعادة أمـير المؤمنين وفكرت ساعـة فلم تسمح قريحـتى فى ذلك الوقت بشىء فخـرجت من عنده وبقيت ليلتى ساهرا متفكرا فلم يفتح لى بشىء فلما أصبحت غدوت أريد دار الخلافة وإذا غلام الفـضل بن مروان على باب المأمون ومـعه سبع وردات فى صـينية

فضة وهو ينتظر الإذن بالدخول بها على المأمون فسألته أن يتأخر بها عن الدخول لحظة لعل أن يتيسر لى شىء قبل الدخول على المأمون فامتنع فسألته ثانيا وقلت امهل قليلا ولك بكل وردة دينار فأجابنى ودفعت له سبع دنانير وأحببت أن لا يصل إليه الورد قبل وصول الشعر وخرجت على وجهى أقصد الأزقة لعل أن أسمع شيئًا من أحد وينبعث خاطرى ولو ببيت واحد فبينما أنا كذلك وإذا رجل يغربل التراب وهو يقول:

اشرب على ورد الخدود فإنه أزهى وأبهى والصبوح يطيب

ما الورد أحسن من تورد خده بيضاء جاء بها عليك حبيب

صبغ المدام بياضها فكأنه ذهب بقالب فضة مصبوب

فلما سمعته نزلت عن دابتى ودخلت مسجدا بالقرب منه وطلبته فلما أقبل سألته أن يمليها على فأبى وقال إن أردت فاعطنى بكل بيت عشرة دنانير، فدفعت له ذلك واستملیتها منه ثم غدوت ودخت أنا وغلام الفضل وإذا المأمون يشرب من وراء الستارة، فلما جستت العود قال لجواريه امسكن فقد جاء إسحق فقدم الورد بين يديه وجلست وغنيت الأبيات فسمعت الشهيق والنخير من وراء الستارة وأخرج لى بدرة وهى عشرة آلاف درهم، فأعدت الأبيات فأخرج إلى بدرة أخرى، فأعدتها الثالثة فأخرج إلى بدرة ثالثة، ثم أخذت فى غير ذلك الشعر فخرج إلى خادم وقال يقول لك أمير المؤمنين والله لو دمت علينا لدمنا على البدرة فى كل مرة ولو إلى الليل.

وحكى الشيخ أبو البركات هبة الله بن محمد النصبينى المعروف بالوكيل وكان شيخا ظريفا فيه آداب كثيرة، قال كنت فى زمن الربيع والورد فى دارى بنصيبين وقد أحضر من بستانى من الورد والياسمين شىء كثير وعملت على

سبيل الولع دائرة من الورد يقابلها دائرة من الياسمين فاتفق أن دخل على شاعران كانا بنصيبين أحدهما يعرف بالمهذب والآخر بالحسن ابن الرقعيدى قلت لهما اعملا فى هاتين الدائرتين شيئًا ففكرا ساعة ثم قال المهذب:

يا حسنها دائرة من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها فى حلة من شفق
كعاشق وحبه تغامزا بالحدق
فاحمر ذا خجل واصفر ذا من فرق

قال فقلت للحسن هات فقال سبقنى المهذب إلى ما لمحته فى هذا المعنى وهو يقول:

يا حسنها دائرة من ياسمين كالحلى
والورد قد قابلها فى حلة من خجل
كعاشق وحبه تغامزا بالمقل
فاحمر ذا خجل واصفر ذا من وجل

قال فعجبت من اتفاقهما فى سرعة الارتجال والمبادرة إلى حكاية الحال وأنشدنى بعض الأصحاب قول الشاعر:

للورد عندى محل لأنه لا يمل
كل الرياحين جند وهو الأمير الأجل

واستحسنهما وبالغ فى مدحهما فقلت له ليسا بشىء ثم أنشدته فى ذلك المجلس ارتجالا فقلت:

مليك الورد وافى فى جيوش لها بالسعد ألوية سنية
فوافته الأزاهر طائعات لأن الورد شوكته قوية

ثم وقفت بعد ذلك على هذا المعنى فى ثلاثة أبيات لمحمد بن العفيف وهى:

قامت حروب الزهر ما بين الرياض السندسية
وأتت بأجمعها لتغزو روضة الورد الجنية
لكنها انكسرت لأن الورد شوكته قوية

فأردت الرجوع عن بيتى فمنعنى بعض المخاديم من ذلك وأشار بإثباتهما لحسن تركيبهما ولطف انسجامهما فملكت الأدب وامتثلت مرسيمه وقال فى الورد الموجه ويسمى القحابى:

نظرت لوردة فى كف ظبى تنوب بلونها عنى وعنه
فظاهرها كلون الخد منى وباطنها كلون الخد منه

وقال آخر:

ووردة جمعت لونين رائقة خدى حبيب وخدى هائم عشقا
تعانقا فبدا واش فراعهما فاحمر ذا خجلا واصفر ذا فرقا

أبو عقيل يهجو الورد الموجه:

إذا لامنى إنسان سوء وقال لى هجوت الأقاحى والهجاء من المين
أقول له كف الملام فإنه غدا بين أنوار الرياض بوجهين

وقال ابن الرومى يهجو الورد:

وقائل لم هجوت الورد معتمدا فقلت من قبحه عندى ومن سخطه

أقول له كف الملام فإنه عند البراز وباقى الروث فى وسطه

قلت بالغ ابن الرومى رحمه الله فى التشنيع على الورد بهذين البيتين إلا أنه فى التشبيه فكأنه هو والحامل له على ذلك الهجو أنه كان جعليا والجعليون لا يطيقون شم الورد وأصله مرض يعترى الإنسان ويهيج فى زمن الورد ويتزايد عند شم رائحته فتدمع عينه ويذرف أنفه ويعتريه عطاس وربما حصل لبعضهم رمد فى زمن الورد وقد عاينت ذلك فى جماعة من أصحابنا الرؤساء وغيرهم وأصل هذه النسبة إلى الجعل وهو حيوان صغير أسود يشبه الخنفس ينشأ فى الزبل ويعيش فيه فإذا شم رائحة الورد مات.

وقال ابن تميم فى الورد إذا استخرج ماؤه مضمنا شعر:

لم أنس قول الورد حين جنيته والنار لاستعطاره تتسعر

ناشدتهم نفسى خذوه وإنما لا تعجلون لقبض روحى واصبروا

ولبعضهم:

ولم أنس قول الورد والنار قد صطت عليه فأمسى دمعه يتحدر

ناشدتهم نفسى خذوه وإنما ولكنها روحى تذوب فتقطر

وقال شمس الدين المزين:

شاب ورد الرياض من ورد خديك وانفرك

فله الناس ثبوتا ونفوا الورد للكرك

ومما قيل فى الياسمين:

وهو فى اللغة الزنبق وهو حار رطب ينفع الرطوبة والبلغم وكثرة شمه تورث الصفار.

قال صاحب المناهج فى الفلاحة: إذا أردت ياسمينا أحمر اللون فشق قضيب الياسمين وأخرج مافيه واحش مكانه لك مسحوق وضع عليه طينا ولف عليه مشاقا واغرسه وتعاهده فإنه يزهر ياسمينا أحمر والأصفر بالزرنيخ وإذا خلط ماؤه بالحمر أحدث قلة السكر وإذا وضع فى الكتب لم يقربها سوس وقال بعضهم فيه:

ولما نظرناها سماء زبرجد ... لها لمحو أزهرا من الزهر الغض

تناولها الجانى من الأرض قاعدا ... ولم أر من يجنى السماء من الأرض

وقال ابن عبد الظاهر:

وياسمين قد بدت ... أشجاره لمن يصف

كمثل ثوب أخضر ... عليه قطن قد ندف

ابن عباد:

وياسمين على قضب منعمة ... قد قدرته يد الخلاق تقديرا

ما خلت من قبله سبحان خالقه ... قضب الزبرجد أن يحملن كافورا

وقال أبو الحسن بن سكرة فى مليح فى يده غصن ياسمين:

غصن بان أتى وفى راحتيه ... غصن فيه لؤلؤ منظوم

فتحيرت بين غصنين فى ذا ... قمر طالع وفى ذا نجوم

ومما قيل فى الياسمين الأصفر:

و الندمان نحوى وضوء الصبح يلمع من بعيد
بأطباق عليها ياسمين كمثل سبائك الذهب النضيد

وكتب ابن النقيب إلى النصير الحمامى ملغزا فيه:

يا من يحل اللغز من ساعته كلمحة من طرفة العين
ما اسم إذا أنقصت من عده فى الخط حرفا صار اسمين

فأجابه:

كعرض مولانا وأنفاسه ألغزت لى حقا بلامين
اسما سداسيا لطيفا به مخافة يظهر للعين
لكنه يغدو ياسمينا إذا أسقطت من أولاه حرفين

وقال العباس بن الأحنف:

أصبحت أذكر بالريحان رائحة منكم فللنفس بالريحان إيناس
وأهجر الياسمين الغض من حذر عليك قد قيل لى شطر اسمه ياس

فى النسرين قال بعضهم:

كأنما النسرين لما بدا لكل من أبصره بالعيان
مداهن الفضة كان فى قيعانها شىء من الزعفران

وقال بدر الدين الدمامينى:

أقول لصاحبى والورد زاه وقد بسط الربيع بساط زهر
تعالى نباكر الروض المفدى وقم نسعى إلى ورد ونسر

ومما قيل فى البنفسج:

وهو بارد فى الصيف حار فى الشتاء ينفع الدماغ ويضر الزكام ويدفع مضرته بالمرزنجوش. قال صاحب المناهج البنفسج من الرياحين اللطيفة والخواص الظريفة ومن أراد أن يكون البنفسج على غير الفلاحة فى السرعة فليأخذ السداب البستانى فى الشتاء يكون مقداره فى الكثرة والقلة بمقدار البنفسج ويكون السداب لم يصبه الماء ألبتة بل يقطع من منابته ويجفف حتى يزول التراب المتعلق بعروقه عند قلعه ثم يؤخذ لكل طاقة بنفسج فيجعل فيها السداب ويؤخذ من أغصان التين المجففة شيء ثم يحرق الجميع على نقرة البنفسج يحمل بعد عشرين يوما.

قال أبو العلاء عطا ابن يعقوب يصفه من رسالة سماوية الباس مسكية الأنفاس واضعة رأسها على ركبتيها كعاشق مهجور ينطوى على قلب مسحور كبقايا نقش فى بنان كاعب أو أثر حبر فى أصابع كاتب لازوردية فاقت بزرقتها على اليواقيت كأوائل النار فى أطراف كبريت.

قال ابن رشيق:

بنفسج جاءك فى حين لا ... حريرى فيه ولا فرط برد

كأنه لما أتينا به ... منغمس الأثواب فى اللازورد

قال أبو العتاهية:

ولازوردية باهت بزرقتها ... فوق البياض على زرق اليواقيت

كأنها فوق طاقات نهضن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

ابن المعتز:

بنفسج جمعت أوراقه فحكت كحلا تشرب دمعا يوم تشتيت
كأنه وخفاف القضب تحمله أوائل النار فى أطراف كبريت

ابن برعس:

هذا البنفسج قد أبدى نضارته وتاه عجبا على زرق اليواقيت
كأن أوراقه من حسن بهجتها نار تؤلف فى أطراف كبريت

لبعضهم:

بنفسج يانع زكى يزهو على زهر كل ورد
كأنه عند ناظريه آثار قرص بصحن خد

وقال آخر:

قرن الزمان إلى البنفسج نرجسا متبرجا فى حلة الإعجاب
كخدود عشاق غدت ملطومة نظرت إليها أعين الأحباب

وقال منصور الهروى:

يا مهديا لى بنفسجا أرجا يرتاح صدرى له وينشرح
يسرنى عاجلا مصحفه بأن ضيق الأمور ينفسح

وقال يذمه ويتشاءم به:

يا مهديا لى بنفسجا سمجا وددت لو أن أرضه سبخ
صحفته عاجلا فأذكرنى بأن عقد الحبيب ينفسخ

وقال ابن تميم فى تفضيل البنفسج على الورد:

ولقد رأيت الورد يلطم خده ... ويقول وهو على البنفسج محنق

لا تقربوه وأن تضوع نشره ... ما بينكم فهو العدو الأزرق

وقال آخر:

احجج إلى الزهر لتحظى به ... وأرمى جمار اللهو متنفرا

من لم يطف بالزهر فى وقته ... من قبل أن يحلق قد قصرا

ما قيل فى الزهر لبعضهم:

الزهر سلطان وقد جاءنا ... يطلب فى أهل العقول الغزاة

ثبت لقتالى حين دنا ... طعنته فى صدره بالقناة

ابن أيبك:

الزهر ألطف ما يكون ... إذا تكاثرت الهموم

تحنو على غصونه ... وبرق لى فيه النسيم

ومما قيل فى زهر البان وهو الخلاف:

تبسم زهر البان عن طيب نشره ... وأقبل فى حسن يجل عن الوصف

هلموا إليه بين قصف ولذة ... فإن غصون البان تصلح للقصف

وقال محمد بن عفيف التلمسانى:

يا رب خلاف غدا مقبلا ... فشابه المسك إذا ما عبق

فارقنا لا كارها وصلنا ... فاصفر من أشواقه وانحرق

وخاف نقض الود ما بيننا ... فلاح فى الأغصان قبل الورق

وتلطف ابن الصاحب:

لبلبل البان غناء رائق ... يميل بالخاشع والناسك

قالب له البانات أطربتنا ... فقال ذا من طيب أنفاسك

وقال آخر:

قد أقبل الصيف وولى الشتا ... وعن قليل تشتكى الحرا

أما ترى البان بأغصانه ... قد قلب الفرو إلى برا

ومن الحكايات الغريبة والتشابيه البديعة أن أبا جلنك الحلبى الشاعر المشهور وفد محمد بعض القضاة بالشام وقدم له قصة يسأله شيئًا فوقع له عليها فاستحى أن يقول برطل خبز فأخذها وانصرف ثم استدعاه بعض الرؤساء إلى التنزه فذهب به إلى بستان مع جماعة من أهل الفضل والأدب وجلسوا فى منظرة بديعة مطلة على قطعة بان فاقترحوا عليه أن يأتى بشىء من تشبيه البان فى معنى لطيف لم يسبق إلى اختراعه وكان قد سأل على صاحب البستان فقالوا أنه للقاضى المذكور فتناول قطعة فحم وكتب فى حائط المنظرة يقول:

لله بستان حللنا دوحه ... فى جنة قد فتحت أبوابها

والبان تحسبه سنانير رأت ... قاضى القضاة فنفشت أذنابها

فانظر أيها المتأدب إلى ملكة هذا الشاعر كيف ابتدع فى التشبيه واستطرد إلى بلوغ غرضه من المبالغة فى هجو القاضى بألطف عبارة وأخفى إشارة فلله دره وأجاد زين الدين بن الوردى بقوله:

تجـــادلنا أمـــاء الزهـر أزكى أم الخـــــلاف أم ورد القطـاف

وعـقـبى ذلـك الجـدل اصطـلحنا وقـد وقـع الوفـاق علـى الخـلاف

لبعضهم:

قـاسـوك بالغـصن فـى التـثنى قـيـاس جـهل بـلا انتـصـاف

فـذاك غـصـن الخـلاف يـدعى وأنـت غـــصن بـلا خـــلاف

ابن اللبان:

أهديـت مـــاء وقلـت هذا مـاء خـلاف لـلارتشـاف

فـعند مـا أبصـرتـه عـينى رأيت مـــاء بـلا خـــلاف

وقال قاضى القضاة صدر الدين بن الآدمى:

شـبـهت بالـغـصن حـبى فـــمـــال يبـــغى تـلافى

وقـــــال لـى ملـت لـمـا شـــبـــهـــتنى بخـــلافى

ومما قيل فى مليح جذب غصن بان لبعضهم:

مليـح قـام يجـذب غـــصن بان فـمـال الغـصن منعطـفـا عليـه

ومـيل الغـصن نحـو أخـيـه طبع وشـبـه الشىء مـنجـذب إليـه

ما قيل فى السوسن

وهو بفتـح السين على وزن جوهر وضم السين لحن ولم يسـمع بالضم إلا جؤذر وقال أبو نواس:

سـقـيـا لأرض إذا نمـت نبـهنى بعد الهـجوع بها ضـرب النواقيس

كـأن سـوسنهـا فى كل شـارقـة علـى الميـادين أذناب الطـواويس

بعضهم:

وسون راق مرآه ومخبره ... وجل فى أعين النظار منظره

كأنه أكؤس البلور قد صبغت ... مسدسات تعالى الله مظهره

وقال آخر:

يا رب سوسنة قبلتها كلفا ... وما لها غير نشر المسك من ريق

مصفرة الوسط مبيض جوانبها ... كأنها عاشق فى حجر معشوق

وقال آخر:

أحبب به من سوسن ... مفضفض مذهب

كأنه لما بدا ... فوق ضعاف القضب

أقماع بلور بها ... قراضة من ذهب

وقال ابن المعتز يتطير منه إذ يقول:

يا ذا الذى أهدى لنا سوسنا ... ما كنت فى إهدائه محسنا

أما تطيرت وقيت الردا ... من اسمه السو فقد أحزنا

نصف اسمه سوء فقد ساءنى ... يا ليت إنى لم أر السوسنا

وقال محمد بن داود عفى الله عنه:

لم يكفك الهجر فأهديت لى ... تفاؤلا بالسوء لى سوسنة

أولها سو وباقى اسمها ... يخبر أن السو يبقى سنة

ومما قيل فى الآس وهو باليونانية المرسين لبعضهم:

خليلى ماس الآس يعبق نشره إذا هب أنفاس الرياح العواطر
حكى لونه أصداغ ريم معذر وصورته آذان خيل نوافر

وقال آخر:

وغادة أهدت إلى ألفها قضيب آس زاد فى ظرفها
كأن خضرة أوراقه بقية الحنا على كفها

وقال المشهدى:

أهديت شبه قوامك المياس غصنا رطيبا ناعما من آس
فكأنما يحكيك فى حركاته وكأنما يحكيك فى الأنفاس

وقال آخر:

لآس يبقى وإن طال الزمان به والورد يفنى ولا يبقى على الزمن

وقال ابن إسرائيل:

حيا بغصن الآس من أحببته فرجوت منه الآس من هجرانه
وتفاءلت روحى بأن وداده كالآس يبقى فى اختلاف زمانه

غيره:

يقبل الأرض حينه ثم يمضى وإلى الآس نلتجى كل حين
إنما الآس للوصال أساس وهو يبقى على ممر السنين

بعضهم:

أرى عهدكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عمر
وعهدى لكم كالآس حسنا ومنظرا له بهجة تبقى إذا فنى الدهر

ومما قيل فى الريحان:

ذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون أن كسرى أنوشروان كان جالسا بالإيوان وإذا بحية قد دبت إلى عش حمامة فى بعض شرف الإيوان لتأكل فراخها فرمى الحية بسهم أو بندقة فقتلها وقال كذلك يغدو من استجار بنا فلما كان بعد أيام جاءت الحمامة بحب فى منقارها فألقته إليه فأخذه وقال ازرعوه فنبت ريحانا ولم يكن يعرفه بأرضه فقال نعم ما كافأتنا به الحمامة نسأل الله الذى ألهمها أن يبلغنا الإحسان إلى الرعية والشكر على النعمة انتهى وقال بعضهم:

وريحان يميس على غصون ... يطيب بشمه شرب الكؤوس

كسودان لبسن ثياب خضر ... وقد وقفوا مكاشيف الرؤوس

وقال أبو سعيد الأصبهانى:

وباقة ريحان كعقد زبرجد ... حوت منظرا للناظرين أنيقا

إذا شمها المعشوق خلن اخضرارها ... ووجنته فيروزجا وعقيقا

وقال عز الدين الموصلى:

بخد الحب ريحان نضير ... لا سطره حروف ليس تقرا

فراعيت النظير وقلت حبى ... عذارك أخضر والنفس خضرا

وحيا بعضهم قينة بقضيب نمام فرمته من يدها فقال:

حييتها بتحية فى مجلس ... بقضيب نمام من الريحان

فتطيرت منه وقالت امضه ... لا تقربن مضيع الكتمان

وقال ابن رشيق مجيبا عنه:

ما كره النمام أهل الهوى ... أساء إخوانى وما أحسنوا

إن كان نماما فمقلو به ... من غير تأديب له مأمن

بعضهم:

إن قال صف لى عذارى وصف مبتكر ... ووجنتى قلت خذ يا صبغة البارى

هذا عذارك نمام ومسكنه ... نار بخدك والنمام فى النار

ومما قيل فى البهار لبعضهم:

وجامات تبر فى غصون زبرجد ... تلوح كما لاحت لدى الليل أنجم

تريك لها لو ناكلون متيم ... غدا وهو من فرط الصبابة مغرم

وقال الفضل بن إسماعيل:

حكانى بهار الروض حين ألقته ... وكل مشوق للمشوق مصاحب

فقلت له ما بال لونك أصفرا ... فقال لأنى حين أقلب راهب

ومما قيل فى الشقائقى لبعضهم:

وشقائق نقش الربيع نباتها ... فبرزن بين مكحل ومجسد

كالخد يصبغه الحياء بحمرة ... وجرى عليه الخد خلط الأثمد

غيره:

هذا الشقائق قد أتانا زائرا ... من بعد غيبته وطول مزاره

فكأن أسوده وأحمره معا ... خد الحبيب ملاصقا لعذاره

وقال آخر:

وشقيقة حمراء ذات توقد ... مطوية فى اليوم تنشر فى غد

فكأن حمرتها وسود سوادها ... خد الحبيب زها بخال أسود

وقال كشاجم:

حمراء من صبغة البارى وقدرته ... مصقولة لم ينلها قط صقال

كأنها وجنات أربع جمعت ... وكل واحدة فى صحنها خال

وقال بدر الدين الدماميني:

شقائق النعمان الهو بها ... إن غاب من أهوى وعز اللقا

والقرب بالخد نعيمى وإن ... غاب فإنى أكتفى بالشقا

ومما قيل فى الأقحوان وهو البابونج:

ولأقحوانة هيفا وهى ضاحكة ... عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب

كأنها شمة من فضة حرست ... خوف الوقوع بمسمار من الذهب

غيره:

وقد لاح زهر الأقحوان كأنه ... يميس به خضر رقاق عن القضب

رؤوس سنانير من التبر رصعت ... دوائرها الصواغ باللؤلؤ الرطب

ومما قيل فى النيلوفر لبعضهم:

وناظر نحو عين الشمس يرقبها ... حتى إذا غربت أغضى بتنكيس

كأنه ودروع الماء تشمله ... تحت الشعاع أكاليل الطواويس

وقال ابن المعتز عفا الله عنه:

وبركة تزهو بنيلوفر ... ألوانه بالحسن منعوتة

نهاره ينظر من مقلة ... شاخصة الأجفان مبهوتة

كأنما كل قضيب له ... يحمل فى أعلاه ياقوتة

ابن تميم:

ونيلوفر ما زال طرفى مذ رأى ... محاسنه يهواه دون الأزاهر

إذا ما أمالته المياه حسبتها ... دروعا بدت منها أصول خناجر

ابن صابر:

يا حبذا بركة نيلوفر ... قد جمعت من كل فن عجيب

أزرق فى أحمر فى أبيض ... كقرصة فى صحن خد الحبيب

كأنه يعشق شمس الضحى ... فانظره فى الصبح وعند المغيب

إذا تجلت يتجلى لها ... حتى إذا غاب سناها يغيب

يدنو إليها مبصرا يومه ... ولا يحاشى نظرات الرقيب

لا يبتغى وجها سوى وجهها ... فعل محب مخلص فى حبيب

غيره:

رأيت فى البركة نيلوفرا ... نسيمه يشبه نشر الحبيب

مفتح الأماق من نومه ... حتى إذا الشمس دنت للمغيب

أطبق جفنيه على عينه ... وغاص فى البركة خوف الرقيب

ومما قيل فى الجلنار لابن طاهر:

كـــــأنما الجلنار حين بدا مفتحا فى زبرجد القضب

كوز عقيق مشرق حسن قد أودعوه قراضة الذهب

وقال أبو نواس:

وجلنار مشرق على أعالى الشجرة

كان فى رؤوسه أحمره وأسفره

قراضة من ذهب فى خرقة معصفرة

ومما قيل فى الخشخاش

وهو يجلب النوم وينفع السعال والنوازل إلى الصدر والأسود منه ردى يورث النسيان. قال الموصلى:

وزهر خشخاش بدا أحمرا كأنه فى رونق وابتهاج

أقداح بلور وقد أنزحت عن خمرة لم تختلط بالمزاج

ومما قيل فى الخطمى

وهو حار رطب ينفع الأخلاط ويذهبها من الجسد وسماها بقراط الشفا ووالدة كل خير وأم كل عافية وإذا أخذ دقيقها وغسل به الرأس كان نافعا للأخلاط ومحللا لها من الدماغ وينفع العين وقال بعضهم:

ألا قم يا رفيقى بل صديقى وبالكاس الدهاق قبل ريقى

فقد بسط الربيع لنا بساطا بديع النفس من روض أنيق

يلوح به الخطمى وردا كأقداح خرطن من العقيق

ومما قيل فى تمرحنا

ودهنه يزيل ألم الشمس إذا أصاب الشفتين وإذا أخـذ بزر التمرحنا جافا ودق ناعما وعجن بالجلنار وطلى به الصـنط الذى على البدن فإنه يذهبه بإذن الله، وقيل إن شجـرة الحنا سميت بذلك لأنها حنت على آدم وحواء عليـهما السام حين طفقا يخـصفان عليهما من ورق الجنة فنفرت الأشـجار إلا شجرة الحنا فإنها حنت وتقاربت منهما وقال عبد الله بن برغش:

رأيت من تمر الحناء ذا عجبا قد جاء فى طيبها أنفاس خمار

وقال آخر:

ورجـــــوت تمر حنـا لما بـدت كـــأذناب الثـــعـــالب فى المـنال

عليـــه دق كـافـــور ســحـــيق تضـــمخ بـالمســـواك والغـــوال

ومما قيل فى الزعفران

ومن أسمائه الريهق والجادى قال الطبرى إذا سحق الزعفران سحقا جيدا وعجن وعلق منه مـقدار الجوزة على المرأة قبل الولادة وضـعت حالا وكذلك إذا علق على الإناث من الخيل الحـبالى فإنه ينفعـها وإذا أخذ شعـر الزعفران وبخر به الـبيت فإنه يطرد الوزغ بـإذن الله فإذا أصاب الثـوب وطبع فيـه فإنه يغسل بالبورق ويدخن بالكبريت وهـو رطب ثم يغسل بالصابون فإنه يذهب، وقال الإمام الخوارزمى فيه:

أمـا ترى الزعفـران الغض تحـسبـه خمـرا بدا فى رماد الفحـم منتظما

كـــــــأنه بين أوراق تحف به طرايق الدم فى حدين قد نظما

دما عيانا ونشر المسك رائحة فى طيبه وكذاك المسك كان دما

ومما قيل فى زهر الباقلاء وهو الفول قال بعضهم:

أنظر لزهر الباقلاء وقد غدا فوق القضيب يميس فى أبراده

يحكى عيون العين فى تلوقنها وفتوره وبياضه وسواده

ومما قيل فى زهر اللوز لبعضهم:

انظر إلى اللوز المنور إنه بالسعد جاء لوقته المنعوت

أغصانه ليست حلى زبرجد وتتوجت بالدر والياقوت

ومما قيل فى التفاح

والحلو منه يقوى القلب والمعدة ويجود الهضم أيضًا ويسر النفس ويحسن الخلق والحامض منه يقوى المعدة الصفراوية ويورث النسيان كما أن البول فى الماء الراكد ونبذ القمل وهو حى وأكل موضع سؤر الفار كذلك يورث النسيان وإذا أخذ ورقه وعرك به طبعه فى الثياب مع الماء فإنه يخرجه وقال فيه ابن المعتز:

كأنما التفاح لما بدا يرفل فى أثوابه الحمر

شهد بماء الورد مستودع فى أكرا من جامد الخمر

كأننا حين نحيا به نستنشق الند من الجمر

غيره:

تفاحة جاءت إلى عاشق تحكى له طيب مولاها

ما مسها طيب ولكنها أكسبت من كف مهديها

لبعضهم:

تفـــاحـــة جـــاد بهـــا شـــادن تشـــبهـــه فى الحـــسن إذ يوصف

حـــمـــراء بيـــضـــاء لـهـا رونق كـــأنهـــا مـن خـــده تقـطف

وقال القاضى عبد الوهاب المالكى رحمه الله:

وتفـاحـــة من كف ظبى أخـذتهـا جناها من الغـصن الذى مـثل قـده

لهـا لون خـديه وطيب نسيـمـه وطعـم ثناياه وحـــمـــرة خـــده

وقال آخر:

لما تـشكـيت إلـيـــه الهـــوى وطول شـــوقى والهـــوى زائد

فـــأرسل التـــفـــاح من خـــده إلى كـيـــمـــا يفطـن الحـاسـد

فـــريحـــه فـى حـسنهـا ظـاهر وريقـــه فى طعـــمـــهـــا جـامـد

غيره:

فـديت مـن حـيـا بتـــفـاحـة كـــأنهـــا فى اللون مـن وجنتـــه

نسـيـــمـــهـا يـخـبـرنى أنهـا تسـرق الأنـفـاس من نكـهـتـه

لما حـكت نوعـين من وصـــفـــه قـبلتـــهـا شـــوقـــا إلى رؤيتـــه

وقال آخر:

وتفـــاحـــة لما هـمـت بأكـلهـا وأخرجت سكينًا لأقسمها شطرا

تأملت من خـديك فـيـهـا عـلامـة فـقبلـتهـا سـرا وعانقـتـهـا جهـرا

غيره:

أعطت يداه محبه تفاحة تعطى المحب أمانه من ضده
فعلمت حين لثمتها من كفه إنى سألثم مثلها فى خده

غيره:

لا أكل التفاح دهرى ولو جنيته لى من جنان الخلود
والله ما تركى لى عن قلى لكننى أكرمه للحدود

وقال آخر:

يا أكل التفاح ما تستحى من حمرة التفاح أن تأكله
اقصر لحاك الله عن أكله فخد من تهواه قد تأكله
تفاحة حمراء فى صفرة غيره قد خصها الحسن بإشراقه
رأيتها فى كف ذاك الذى يزهو على الخلق بأخلاقه

وقال آخر:

تفاحة يحكى لنا نصفها وجنة حبى حين عانقته
ونصفها الآخر شبهته بلون وجهى حين فارقته

غيره:

وتفاحة من سوسن صيغ نصفها ومن جلنار نصفها وشقائق
كان الهوى قد ضم من بعد فرقة بها خد معشوق إلى خد عاشق

وقال آخر:

اهدى لنا التفاح من كفه من لم يزل يهديه من خده
وخط بالطرف على بعضها قد أنعم المولى على عبده

غيره:

تفـاحـة من شـجـرات الهـوى أرسلهـا صب إلـى مسـتـهـام
يقـول فى السر كـمـا قـد علمت سـيـدى يـقـرأ عليك السـلام
فـشـمـهـا ثم استـوى جـالسـا وهم من سـاعـتـه بالقـيـام

ومما قيل فى الكمثرى

وهو بارد يابس يقوى المعدة الضعيفة ولكنه يحدث القولنج إذا أكل قبل الطعام وطبـعه فى الثـوب يخرجه الماء والخل والصـابون. وقال عـبد الله بن برغش فيه متغزلا:

وكـمـثـرى سـبـانى منـه طعم كطعـم الشـهـد شـيب بماء ورد
لـذيـذ خـلـتـه لما أتـانـا نهـود السـمـر فى مـعنى وقـد

بعضهم:

وكـمـثـرى تـراه حين يبـدو على الأغـصـان مـخضـر الثـيـاب
كنـدى مليـحـة أبدتـه تيـهـا لـه طعـم ألـذ مـن الشـراب

ومما قيل فى السفرجل

وهو بارد فيه قبض وينفع العصير إذا كان ناضجا وإذا كان أخضر بسوى ويسر النفس وينفع المعـدة ويدر البول وإذا استعمل على الريق أحـدث الامتلا وقبل الطعام يحدث القولنج وبعد الطعام يعين على الهضم والمستوى منه أنفع وطبعـه يخرجه ورقـه مع الماء والأشنان وكل طبع عسـر إخراجـه فإنه يذهب بدخان الكبريت العراقى، وقال بعضهم:

أنظر إلى شجر السفر جل فهو أحسن منتظر
وكأنما أغصانه يحملن من ذهب أكرا

وقال آخر:

لك في السفرجل منظر تحظى به وتفوز منه بشمه ومذاقه
هو كالحبيب سعدت منه بحسنه متأملا وبلثمه وعناقه
يحكي لك الذهب المصفى لونه وتزيد بهجته على إشراقه
والشطر من أعلاه يحكي شكله ثدي الكعاب إلى مدار نطاقه
والشطر أسفله يحاكي سرة من شادن يزهو على عشاقه

غيره:

حاز السفرجل أوصاف الورى فغدا على الفواكه بالتفضيل مشكورا
كالراح طعما ونشر المسك رائحة والتبر لونا وشكل البدر تدويرا

وقال آخر:

سفرجلة جمعت أربعا فكان لها كل معنى عجيب
صفاء النضار وطعم العقار ولون المحب وريح الحبيب

ومما قيل في التطير منه:

أهدى إلى سفرجلا فتطيرا منه فظل نهاره متحيرا
خاف الفراق لأن شطر هجائه سفر وحق له بأن يتطيرا

ومما قيل فى المشمش

وهو حار رطب ويقال أن كل مشمشة فيها أوقية بلغم، وذم ابن زهر الطبيب بالمغرب التفاح ذما شديداً وبالغ فيه وقال فى آخر كلامه لا أعلم شيئًا أضر منه إلا المشمش فكانت مبالغته فى ذم المشمش أكثر، وقال بعضهم:

وصفراء تحكى الصب لونا وما بها ... سقام ولكن جسمها رائق الشكل

إذا ما انتهت فى الحسن ألقت بنفسها ... إليك ابتداء وهى عالية الأصل

وقال آخر:

بدا مشمش الأشجار فيها كأنه ... يلوح على حصن الغصون الموائل

قباب بمخضر الرياحين عشبت ... وقد زينت من عسجد بجلاجل

وقال العلامة ابن وكيع فيه:

بدا مشمش الأشجار يبدو شهابه ... على حسن أغصان من الدوح ميد

حكى وحكت أغصانه فى اخضرارها ... جلاجل تبر فى قباب زبرجد

وقال آخر:

ومشمش جاءنا من أعجب العجب ... أشهى إلى من اللذات والطرب

كأنه وهبوب الريح تنثره ... بنادق خرطت من خالص الذهب

ومما قيل فى اللوز

قال عبد الله بن الظاهر:

إن لوز جلق ... عجمه لين القرى

لم يكلفك كسره ... فالق الحب والنوى

وهو بارد رطب وشرابه نافع من ريح النقرس الذى يحدث للأطفال والمكى منه ينفع بخر المعدة ويشهى الطعام غير أنه ردى الخلط يولد البلغم من أكله فليأكل بعده عسلا وطبعه يخرج بماء ورقه والغاسول.

ومما قيل فى الخوخ

قال بعضهم:

وخوخة بستان زكى نسيمها ... من المسك والكافور قد كسيت نشر

ملبسة ثوبا من التبر نشرها ... مصاغ وباقيها كياقوتة حمر

وقال آخر:

وخوخة يحكى لنا نصفها ... وجنة معشوق رآه الرقيب

ونصفها الآخر شبهته ... بلون صب غاب عنه الحبيب

وقال العلامة القيراطى:

حللنا ببستان به الدوح واقف ... وجدول صافى الماء من تحته يجرى

كأن النجوم الزهر زهرى خوخه ... ولم أر مثل يشبه الزهر بالزهرى

ومما قيل فى الرمان

الحلو منه حار رطب يلين الصدر وينفع السعال والباه لكنه يحدث تعجينا ويدفع بالرمان الحامض وإذا استعمل ماؤه خاصة ورمى نقله كان هاضما للطعام والرمان الحامض بارد رطب يقمع الصفراء لكنه يضر المعدة والصوت والصدر وإذا خلط بماء الرمانين شحمهما أسهلا جميعا وإذا استعمل بالسكر على الريق قمع الصفرا ولم ير للهريسة أهضم من ماء الرمان، وإذا

أخذ الرمان الحلو وقشر من القشر البرانى وحشى أهليلجا هنديا وغلى على النار فى ماء وزبيب معه أحمر حتى يتهرى الجميع وصفى واستعمل بسكر أبيض نفع لوجع الفم والأسنان وطبعه يخرجه طعم الأترج الحامض يفركه به ويخرج سريعا، وإذا أردت أن تخرج طبع قشره فخذ أشنانا وشبا وصمغا وانقعهم فى ماء واغسل بهم وبالصابون ولبعضهم:

وأشجار رمان كان ثمارها ثدى العذارى فى غلائلها الخضر
إذا فض عنه قشره فكأنه فصوص عقيق فى حقائق من الدر
فدر ولكن لم يدنسه عارض وماء ولكن فى مخازن من خمر

وقال آخر:

رمانة صنع الرحمن خالقها أمثالها بديع الحسن منعوت
والقشر م حولها قد صان داخلها والقطن حب لها والشحم ياقوت

ومما قيل فى التين

قال بعضهم:

أحببت بتين جاءنا مثل نهود الخرد
داخله مضمن قراضة من عسجد
قشره الخارج يحكى للزبرجد

وقال ابن المعتز:

أنعم بتين طاب طعما واكتسى حسنا وقارب مخرجا من منظر
فى برد ثلج فى نقا تبر وفى ريح العبير وطيب طعم السكر

يحكى إذا مـا صب فى أطبـاقـه خيـما ضـربن من الحرير الأخـضر

وقال مولانا أبو الفتح كشاجم:

أهـلا بـتـين جـــــاءنـا مـبـتـسـمـا علـى طبق

يحكـى الصـبـاح بعـضـه وبعـضـه يحكى الـغـسق

كـــــفـــرة مـن أدم مـضـمـومـة بلا حـلق

ومما قيل فى العنب

ومن أسمائه الحبلة والزرجون وهو رطب طبعه الحياة والمتروك بعد قطعه بيومين أو ثلاثة أجود من المقطوف فى يومه فإنه ينفتح وزرجون الكرم إذا أخذ وجعل عليه ماء وغلى على النار وأخذ ماؤه وسقى لمن به النزيف قطعه، وقال ابن المعتز فيه:

شـربنا عـصـيـر الكرم تحت ظلاله على وجه مـعشوق الشمائـل أغيد

وكـان عناقـيـد الكروم وظلهـا كـواكـب در فى سـمـاء زبـرجـد

وقال السرى الرفا:

أدرها فـفـقـد الهم إحـدى الغنائم ولا تخش إثما لـست فـيـهـا بآثم

فـلا عيش إلا فى اعـتصـام بقهـوة يروح الفتى منها خـصيب المعاصم

ولا ظل إلا ظل كـــرم مـعـرش تغنيـك من قطريه ورق الحـمـائم

سمـاء غصون تحـجب الشمس إن ترى على الأرض إلا مـثل نثـر الدراهم

وتلطف بدر الدين بن الصاحب بقوله:

يا أيـهـا العـاصـر بادر إلى عنقـودك الفـاخـر فى كـرمـه
إياك أن تتـركـه سـاعـة يـزب النحس عـلـى أمـه

ما قيل فى الجمار

قال بعضهم:

أهـدى لـنا جـمـارة مـن لست أخلـو مـن عـذابـه
فـكأنما هى جـسـمـه لما تجـرد مـن ثيـابـه

وقال ابن المعتز فى الطلع:

أفـدى الذى أهـدى لنا طـلعـة أهدت إلـى قلبى المشـوق بـلابلا
فكـأنما هى زورق مـن فـضـة قـد أودعـوه فى اللـجين سـلاسـلا

ومما قيل فى البلح المقمع:

أمـا تـرى النخل أطـلعت بلـحـا جـاء بشـيـرا بدولة الـرطب
مكـاحل مـن زمـرد خـرطت مـقـمـعـات الرؤوس بـالذهب

ومما قيل فى البسر الأصفر:

أمـا ترى البـسـر الذى قـد جـاءنا بـالعـجب
كـيـف غـدا ولـونـه كـعـاشق ملـتـهب

ومما قيل فى الأخضر:

أمـا تـرى النخـل حـامـلات بسـرا حكى حـمـرة الشـقـيق
كـأنـه من عـقـود تبـر منظمـات مـن العـقـيق

غيره:

أنظر إلى البسر الذى تبدى ولونه قد حكى الشقيقا
كأنما خوصه عليه زبرجد مثمر عقيقا

الحداد:

روض كمخضر العذار وجدول نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالهيف الحسان تزينت فلبسن من أثمارهن قلائدا

فى الرطب:

أما ترى الرطب المجنى لآكله حلوى أعدت لنا من صنعة البارى
ما باشرتها يد العقاد فى جمل فى الدست يوما ولا حطت على النار

وقال آخر:

أهدى لنا رطبا خل أخو ثقة يا حبذا هو من رزق لنا رزقا
يذوب من قبل مضغ الآكلين له أنسى به إذا أتانا اللوزج العبقا
كأنه الند لونا والعبيق ذكا والشهد طعما بماء الورد قد فتقا

ومما قيل فى النبق، قال بعضهم:

وسدرة كل يوم من حسنها فى فنون
كأنما النبق فيها إذا بدا للعيون
جلاجل من نضار قد علقت فى الغصون

وقال آخر يتفاءل به:

أيا من ملك الرقا ولا أسأله العتقا
تفاءلت بأن نبقى فأهديت لنا النبقا

ومما قيل فى العناب، قال المهدوى:

كأنما العناب فى دوحة لما تناهى حسنه وانتسب
أقراص ياقوت تبدت لنا أو إثمد قد طوقت بالذهب

ومما قيل فى الأجاص، قول بعضهم:

يا حبذا الأجاص لا سيما إذا جاء يحكى لى سواد العيون
كأعين الغزلان فى حلكه ذوب بياض ظاهر أو جفون

ومما قيل فى الموز لعبد الرزاق التونسى:

كأنما الموز إذا ما بدا ما بين أغصان وأوراق
سبائك من ذهب أصفر تلوح فى حسن وإشراق

فى الجوز قال بعضهم:

تأمل الجوز فى أطياقه لترى رواق حسن عليه غير مخروط
كأنه أكرمن صندل خلطت فيها بدائع من نقش وتخطيط

ومما قيل فى زهر اللوز لابن تميم:

أزهر اللون أنت لكل زهر من الأزهار تأتينا إمام
لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك فى فم الدهر ابتسام

وقال آخر:

أهيم بزهر اللوز من أجل سبقه يبشرنا أن الربيع لقادم

وأعجب شيء من معانيه أنه تقطع أغصان له وهو باسم

ومما قيل فى اللوز اليابس قال بعضهم:

ومهدا لينا لوزة قد تضمنت لمبصرها قلبين فيها تلاصقا

كأنهما خلان فازا بخلوة على غفلة فى جلسة فتعانقا

ومما قيل فى الفستق لبعضهم:

وفستقة شبهتها إذ رأيتها وقد عاينتها مقلتى بنعيم

زبرجدة خضراء وسط جزيرة بحقة عاج فى غلاف أديم

ومما قيل الصنوبر قال عبد الخالق:

حب الصنوبر أن أرا ك غنيت عن كل البشر

نقل لعمرى مشتهى ما إن يدوم له خبر

يحكى لنا صدفا أتت فى باطن منها الدرر

فى الأترج:

قال بعضهم:

حياك من تهوى بأترجة ناعمة مقدودة غضة

فجلدها من ذهب سائل وجسمها النعم من فضة

وقال آخر:

يا حبذا أترجة تحدث للناس الطرب

كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

أبو القاسم الزاهى:

وذات جسم من الكافور فى ذهب ... دارت عليه حواشيه بمقدار

كأنها وهى قدامى ممثلة ... فى رأس دوحتها تاج من النار

غيره:

أترجة غضة صفراء قد بسطت ... أناملا رخصه فى كفها سبطا

كأنما جسمها فى جوفها درر ... لفت بقطن نديف أودعت سفط

كأنما أعطيت شيئ تسربه ... فامتد منها إليه الكف منبسطا

لحين ضمت إليه فى أناملها ... ظنتها ناب عاج طرفه خرطا

أو كف جارية صفراء قد خضبت ... أومت لتلقط شيئًا منه قد سقطا

فى الأترج المصبغ قال بعضهم:

أنظر إلى الأترج وهو مصبغ ... إن كنت فى البستان أى محقق

مثل الأكف غدت تضم أناملا ... منها لتدخل فى إناء ضيق

فى التطير منه لآخر:

أهدى له أحبابه أترجة ... فبكى وأشفق من عيافة زاجر

خاف التلون إذ أتته لأنها ... لونان باطنها خلاف الظاهر

غيره:

أترجة قد أتتك تزهو ... لا تقبلنها وإن سررتا

لا تهو أترجة فإنى ... رأيت مقلوبها هجرتا

ما قيل فى النارنج:

قال بعضهم:

انظر إلى قضب النارنج حاملة ... زمردا وعقيقا صاغه المطر

كان موسى كليم الله اقبسها ... نارا وجر عليها ذيله الخضر

ابن المعتز:

كأنما النارنج لما بدت ... صفرته فى حمرة كاللهيب

وجنة معشوق رأى عاشقا ... فاصفر ثم احمر خوف الرقيب

وقال آخر:

أحسن ما رمت امتداحا له ... فيما يراه الله فوق الشجر

نارنجة أبصرتها بكرة ... فى كف ظبى مشرق كالقمر

كأنها فى يده جمرة ... وقد أثرت فيها رؤوس الإبر

غيره:

ونارنجة عاينتها بيمينه ... كشعلة نار وهى باردة اللمس

فقربتها من خده فتألقت ... فشبهتها المريخ فى دارة الشمس

الواثق المعرى:

انظر إلى روضة يسبيك منظرها ... بحسنها فى البرايا يضرب المثل

نار تلوح من النارنج فى قضب ... لا النار تخبو ولا الأشجار تشتعل

وقال آخر:

وشـــادن قلنا له صف لنا بســـتـــاننا هذا ونارنجنا
فـقـــال لى بســـتـــانكم جنة ومـن جنـى الـنـارنج نـاراجـنـا

غيره:

جسم من الدر مـخـروط تضـمنه ثوب يشـــابهـه فى لونه الذهب
تكـاد أغـصـــانـه منه إذا طلـعت عليه شمس الضـحى بالنار تلتهب

وقال آخر:

يا رب نارنجـة يلهـو النديم بهـا كـأنهـا كـرة من أحـمـرُ الذهب
أو جـذوة حـملتـها كف قـابسـهـا لكنهـا جـذوة مـعـدومـة اللهب

غيره:

ونارنجـــة بـين الرياض نظـرتهـــا على غـصن رطب كـقـامـة أغـيـد
إذا مـبلتـهـا الريح كـانت كـاكـرة بدت ذهبـا فى صـولجـان زبرجـد

عبد الله بن برعش:

أنظر إلى شـــجـر الـنارنج حين بدا قد جاء من حسنه فى غاية العجب
يحكى الصوالج أغصان به نسكت فى رأسها أكرا صيغت من الذهب

ابن المعتز:

وكـــأنما الـنـارنج فى أغـــصـــانه من خالص الذهب الذى لم يخلط
كـرة رماهـا الصولجـان إلى الهـوا فـتـعـلقت فى جـوه لم تسـقط

غيره:

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه ... فلاحت على الأغصان منه نوافج

كرات من العقيان أحكم خرطها ... وأيدى الندامى حولهن صوالج

أبو فضلة:

كأنما النارنج لما بدت ... أغصانه عند طلوع الشروق

صوالج المينا بأيدى المها ... تحمل فيها أكرا من عقيق

ابن المعتز:

وأشجار نارنج كان ثمارها ... حقاق عقيق قد ملئن من الدر

مطالعها بين الغصون كأنها ... خدود عذارى فى ملاحفها الخضر

أنت كل مشتاق بريا حبيبه ... فهاجت له الأحزان من حيث لا يدرى

وقال آخر:

ودوحة نارنج بهتنا لحسنها ... وقد نشرت أغصينها للتزود

ونارنجها فوق الغصون كأنه ... نجوم عقيق فى سماء زبرجد

وهو مما يتطاير المحبوب بإهدائه لاشتماله على اسم النار خصوصا مع لفظ جنا ومع غضاضة الطعم ولذلك يحكى أن بعض الأمراء كان لا يعطى لمهديه جائزة عليه بل يزجره ويؤدبه ويقول له ما أردت بإهداء النار إلينا حتى شاع ذلك عنه وكثير من المحبين كان يحبه فى الدياجى العاكرة وكانوا يحبون الصبوح والغبوق عنده لما أن فى رؤيته وهو على أشجاره بتلك الحالة من اللذة العظيمة والأنس القويم وعلى ذلك أكثر الإخوان.

ومما قيل فى الليمون

قال ابن المعتز:

يا حبذا ليمونة تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

وقال آخر:

أهدى إلى الظبى ليمونة لا زلت ذا شكر لإحسانه
صفرتها تحكى اصفرارى به وطعمها من طعم هجرانه

ابن المعتز فى الليمون المختتم:

كأنما الليمون لما بدا للعين فى أوراقه الخضر
مداهن من ذهب أطبقت على زكى المسك والخمر

فى الكباد لبعضهم:

أما ترى الكباد فى حسنه إذا بدا فى وسطه بستانه
كعاشق أبصر معشوقه فاصفر من خيفه هجرانه

ما قيل فى قصب السكر لبعضهم:

سبحان من أنبت فى أرضنا ما بين شوك وحلا فيها
أنبوبة فى حشوها سكر قد كان ماء وحلا فيها

وقال آخر:

نزلنا على القصب السكرى نزول رجال يريدون نهبة
يجذ كجذ رقاب العدا ومص كمص شفاه الأحبة

غيره:

قضبان شهد شهدنا أنها انفردت ... بطيب طعم ولا شيء يحاكيها
مفصلات فصولا بينها عقد ... حلت ورقت وفاقت فى معانيها
تخضر لينا فتحكى فى تلونها ... قضب الزمرد تفصيلا وتشبيها
ولا تطيب ولا تحلو مذاقتها ... حتى تشيب وما شابت نواصيها

وقال ابن قاضى سلمية ملغزا فيه:

وحاملة درا حكى الخمر لذة ... ونشرا يروى شربه ويقوت
تعيش إذا لم يبد فيها فإن بدا ... فمهجتها فى أثر ذاك تفوت
فلم تر عينى مرضعا فى مثالها ... من الخلق تسقى درها وتموت

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة ملغزا فيه:

وعالة تبدو بغير أسنة ... ولا طعن فيها وهى داخلة الصدر
ممشقة هيفاء حلو قوامها ... به يطرح المران فى المهمة القفر
منعمة فاء مهضومة الحشا ... تكاد بأن تنقد من رقة الخصر
وتحلو على البيض الرشاق شمائلا ... إذا ما تثنت فى غلائلها الخضر
يلذ قبيل العصر فى الظهر رشفها ... وبرد لماها من أليم الجوى يبرى
وإن سقيت ماء سقتك سلافة ... بلطف مزاج وهى طيبة النشر
وينبت حول الثغر حلو نباتها ... فترشف أرياقا ألذ من الخمر
وإن لمعت فى ثغرها وتبلجت ... دع ابن جلا يقرع ثناياه فى الثغر

على عـودها كم لـلذباب مـواقع ... وموصولهـا يغنى عن النای والزمر
وإن قطعـوا مـوصولـها شـبـبت به ... أولو الذوق تشبيبـا شفى علة الصدر
وترفع بعد النصب والكسـر جرها ... فـتـجـزم مـا للفـارسى من الذكـر
وهمزاتهـا همزات وصل وقطعـها ... إذا مـا أميـلت جائز لك يـا مقـرى
وفى أول الأعراف ترى مـن الظما ... ونضر نيـران الجوى وهى فى العـصر
ونقـطرهـا لكن إذا مـــا تـكررت ... لذوقك بعـد الحل تحلو على القطر
ومن حلهـا إن أفرغت فى قـوالب ... يقول الورى هذا هو الـسكر المصرى
ومن أجل ذا عنهـا ابن سكرة روى ... وأمـا البـاتى قيـل من هاهنا قطرى
كـذا ابن الحـلاوى قلبه مـعـه يرى ... كسيرا وكم قـد أوردته لظى الجمر
فـيـا من حـلا ذوقـا وحلى بدائعى ... وفى عـقد الألـغاز نافت بالـسحـر
تأملـت بعـد الحـل كـيف تـنوعت ... حـلاوتها حـتى رقت منبـر الشكر

وكتب القـاضى ناصر الدين بن البـارزى لغزا فى سكر نبـات وبعث به للشيخ تقى الدين ابن حجة:

يا قاضى الأدب احكم لى فذا أدبى ... حـلا مـذاقـا ووقع لى بتـحسين
وأقـبل شـهـادة مـا أهديتـه ترمن ... تصـحـيف معكـوسه فـإن يزكـينى

فحله الشيخ تقى الدين وألغز فيه بقطر:

أهديت لـغـزا حـلا ذوقـا مكرره ... فـانحل مـذ حل فى قلبى بتسكين
وفـزت منه بشكـر فى مـصـحـفـه ... بيـــان مـعناه لـلإبداع يهـــدينى

فحل منه لنا لغزا محاسنه ... يحل أحشاء أرضينا فيرضينى

يرادف اسم رباب فهو يطربنى ... هذا وتصحيفه فى العيد يأتينى

حلو رقيق با حشو لذائقه ... لأن قطر النباتى عنه ينبينى

ما قيل فى الجميز قال بعضهم:

وذات فروع تدحو الظلال بها ... ما بين مستتر فيها وأشجار

كأن أولادها بهم رمد ... وقد كوتهم برأس مسمار

ما قيل فى النعناع الأخضر:

وجاءت بنعناع كأن غصونه ... وأوراقه مخلوقة من زبرجد

إذا مسه نفح الحرور رأيته ... كأصداغ زنج فلفلت من تجعد

فى الباذنجان قال بعضهم فيه:

وكأنما الأبذنج سود حمائم ... بأوكارها خيم الربيع المبكر

لقطت مناقرها الزبرجد سمسما ... فاستودعته حواصلا من عنبر

وقال آخر:

وروضة أبذنج تكامل حسنها ... لها منظر يزهو بكل نظير

وقد لاح فى أقماعه كأنه ... قلوب ظباء فى أكف نسور

ابن رشيق القيروانى يذمه:

وإذا صنعت غدانا ... فاجعله غير مبنذج

إياك هامة أسود ... عريان أصلع كوسج

فى القرع لرافع الأندلسى:

وقرع تبدى للعيون كأنه خراطيم أفيال لطخن بزنجار

مررنا فعاينّاه بين مزارع فأعجب منها حسنه كل نظار

عبد الرحيم المهدوى فى الجزر:

انظر إلى الجذر البديع كأنه فى حسنه قضب من المرجان

أوراقه كزبرجد فى لونها وقلوبه صيغت من العقيان

ابن المعتز:

انظر إلى الجزر الذى يحكى لنا لهب الحريق

كمذبة من سندس وبها نصاب من عقيق

فى الثلجم قال بعضهم:

كأنما الثلجم لما بدا فى حسنه الرائق من غير مين

قطائع الكافور مملوءة لمبصريه أو كرات اللجين

النور الأسعردى يهجو الفجل:

أيا مطعما أصحابه مذ دعاهم من الفجل فى أوراقه غير ما يمرى

وحقك ما أكرمتهم مذ لقيتهم بجيش ضراط تحت راياته الخضر

السراج الوراق فيمن أضاف أصحابه برجله:

وأحمق أضافنا ببقله لنسبة بينهما ووصله

فمن أقل أدبا من سفله قد مد فى وسط لضيوف رجله

الأمير طاهر فى الباقلا:

وأخضر ليس له مشبه ... يعرف المملوك والحر

ما هو بالزهر ولكنه ... زمرد فى جوفه در

وأجاد الصنوبرى فيه:

فصوص زمرد فى غلف در ... بأقماع حكت تقليم ظفر

وقد خاط الربيع لها ثيابا ... لها وجهان من خضر وصفر

عبد الرحيم المهدوى فى الحمص:

وحمص عال جليل القدر ... أفضل ما استعملته فى عمرى

مثل كرات خرطت فى الشطر ... مثلثات صفرت فى القدر

لو أنها تبقى طوال الدهر ... لاستعملت فى السلك دون الدر

وعطلت نفيس در البحر ... وعلقت فى الجيد فوق النحر

فى الفقوس وأجاد:

شبهت حين بدا الفقوس مبتهجا ... على الرياض وحب فيه مأسور

مخازن من لجين لف ظاهرها ... بسندس حشوها حبات كافور

ابن المعتز فى القثاء:

انظر إليه أنابيبا منضدة ... من الزمرد خضر ما لها ورق

إذا قلبت اسمه بانت ملاحته ... وصار مقلوبه إنى بكم أثق

السرى الرفا الموصلى فيه:

وعـقـفـاء مـثل هـلال الدجى ولكنهـا ألبـست سندسـا
زبرجـدة حـسنت نظرا وكـافـورة بردت ملبـسـا
تقـوس من حين مـيـلادها ولم أر ذا صـغـر قـوسـا

فى الخيار قال بعضهم:

خـيـارة مـا لهـا شـبـيـه ولا لتـأثيـر نفـعـهـا ثـمن
كـأنهـا فـى يدى مـقـلبـهـا قـائـم سـيف غـشـاه سـفن

آخر فيه:

خـيـارة ناولـنيـهـا رشـا كـالبـدر إذ لاح من الـغـيـهب
مبـيضـة مـصـفـرة حسنهـا يسـحـر طرف النـاظر المعـجب
كـأنهـا من منصل قـائم غـشـاؤه من سـفن مـذهب

غيره فيه:

خـيـارة أهديت إلينا من كـف من يـجلب الـسـرورا
قـد صـانـهـا القشر فـهى فيه كـغـادة تسكـن القـصـورا
كـأنهـا عنـدمـا تبـدت كـافـورة ألبـست حـريرا

آخر فيه:

وبيضاء جاءت فى قـميص زبرجد تزف إلى نـدب كـريم مـسـود
يشبـهـها الراءون حين يـرونها وقـد جـودوا فيـهـا بـحق زمرد
فـأصـدافـهـا من لؤلؤ مـتـشـابه بغـيـر سلوك وهو غـيـر مـبـدد

أبو طالب المأمونى فى البطيخ الأخضر الهندى:

ومبيضة فيها طرائق خضرة ... كما اخضر مجرى السيل عن صيب المزن

كحقة عاج صببت بزبرجد ... حوت قطع الياقوت فى قطب القطن

آخر فيه:

ألا فانظروا البطيخ وهو مشقق ... وقد حاز فى التشبيه كل أنيق

صفائح بلور بدت فى زمرد ... مركبة فيها فصوص عقيق

فى البطيخ الأصفر:

ثلاث هن فى البطيخ فخر ... وفى الإنسان منقصة وذلة

خشونة جلده والثقل فيه ... وصفرة لونه من غير علة

إذا قطعته إربا تراه ... كبدر قطعت منه أهلة

وقال آخر فيه:

وطيب أهدى لنا طيبا ... فدلنا المهدى على المهدى

بظاهر أخشن من قنفذ ... وباطن ألين من زبد

كأنما نكشف منه الذى ... عن زعفران ديف بالشهد

كأنما فى جوفه قهوة ... ينقع فيها صندل هندى

فى البطيخ السمرقندى:

وبطيخة أخمرية عسلية ... وأوراقها من فوقها كغمام

إذا شققت شبهتها بأهلة ... وإن كملت كانت كبدر تمام

آخر فيه:

أتانا الحبيب ببطيخة ... وسكينة أحكموها صقالا

فقطع بالبرق شمس الضحى ... وأهدى إلى كل بدر هلالا

عبد الله بن برغش فيه:

وبطيخ حبباك به غزال ... رخيم الدل معتدل القوام

كأن صفاره لما تبدى ... به فى كفه بيض النعام

الحسن بن مقلة:

بطيخة محمرة مصفرة ... فى نشر عنبرة ولون شهاب

فكأنها فى الكف كف خريدة ... ضمت أناملها لنقش خضاب

سرقت من العشاق صفرة لونهم ... وكذاك حمرتها من الأحباب

فى اللفاح قال بعضهم:

أهدى إلى الضبى لقاحة ... قد ضمخت بالمسك والعنبر

كأنما اللفاح فى كفه ... سبيكة من ذهب أحمر

آخر فيه:

جاءت بلفاحة من قد فتنت بها ... طابت روائحها من ريحها الأرج

تريك للحسن ألوانا فقد جمعت ... لون العقيق ولون التبر والسبج

فى الشمام قال بعضهم:

وشمامة قد ضمخت بمورد ... واصفر مثل الوشى من كل جانب

أشبهها إذ لاح فيها منمنما ... بآثار نقش فى أكف كواعب